التّفسير الجَامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الكريم الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

الجُزءُ الرّابع عشر

ســورة الحِجر

ســورة النّحل

سُورَةُ (الحِجر)

الآيات: (١–٩٩)

سورة الحِجر

سورة الحِجر سورةٌ مكّيّة، عدد آياتها تسعٌ وتسعون آية، سمّيت بهذا الاسم نسبةً إلى أصحاب الحِجر المذكورين بالآية الثّمانين من السّورة: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾، وهم قوم ثمود، أرسل الله سبحانه وتعالى لهم صالحاً رسولاً فكذّبوه، والحِجر هي ديار ثمود، ناحية الشّام عند وادي القرى، أمّا الحِجر لغويّاً فيعني العقل، وقد نزلت سورة الحِجر بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام.

في السّورة السّابقة؛ سورة إبراهيم كانت آخر آيةٍ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم]، وهذه السّورة تبدأ بالكلام عن القرآن الكريم الّذي جاء بالخبر اليقين في قضيّة الألوهيّة الواحدة الّتي ذكرنا في آخر السّورة السّابقة بأنّ أُولِي الألباب يستقبلونها بعقولهم.

(الآية ١) - ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾:

السّورة كما نرى قد افْتُتِحَتْ بالحروف التّوقيفيّة؛ وقد مرّت معنا في عدّة سور، بدايةً في سورة البقرة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ١﴾ [البقرة]، ونعود إلى التّذكير بهذه الحروف المقطّعة الّتي بدأت بها بعض سور القرآن الكريم؛ لأنّ سيّدنا جبريل عليه السلام قرأها هكذا، فحفظها رسول الله ﷺ وأبلغها لنا، وهي نزلتْ أوّل ما نزلت على قومٍ برعوا في اللّغة؛ وهم أهل فصاحةٍ وبيان، ولم نجد منهم مَنْ يستنكرها.

وهي حروفٌ تُنطَق بأسماء الحروف لا مُسمَّياتها، ونعلم أنّ لكلّ حرفٍ اسماً ومسمّىً، فحين نقول أو نكتب كلمة: (كتب)، فنحن نضع حروفاً هي:

الكاف والتّاء والباء بجانب بعضها بعضاً، لتكون الكلمة كما ننطقها أو نقرؤها، ويقال عن ذلك: إنّها مُسمَّيات الحروف، أمّا أسماء الحروف فهي (كاف) و(باء) و(تاء)، ولا يعرف أسماء الحروف إلّا المُتعلِّم.

وهذه الحروف المقطّعة هي نوعٌ من الإعجاز في القرآن الكريم، وقد تكون مفاتيح روحيّة لهذه السّور، فلا يمكن أن يكون هناك كتابٌ يكتبه بشر ويضع فيه بعض الأمور الّتي لا يفهمها القارئ، وإنّما الكاتب حصراً، وهذا من إعجاز كتاب الله سبحانه وتعالى، وسبق أن قلنا: إنّ الأحرف المقطّعة في القرآن الكريم هي: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓر﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿طه﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿يسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾، وهي سرٌّ من الأسرار، ونحن نؤمن بالآيات المتشابهات الّتي من ضمنها الأحرف المقطّعة، والآيات العلميّة الّتي لم تتوصّل الاكتشافات بعد إلى حقائقها، وكمثال: عندما تحدّث القرآن الكريم عن كرويّة الأرض بشكلٍ واضح، لم يكن قد اكتُشِفَ بعد أنّ الأرض كرويّة، فكانت آيةً متشابهةً، وعندما اكتشف العلم أنّ الأرض كرويّةٌ أصبحت الآية واضحة، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النّمل: من الآية ٨٨]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزّمر: من الآية ٥]، وقوله جلّ جلاله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: من الآية ١٩]، وكثيرٌ من الآيات الأخرى الّتي تشير إشارات واضحة إلى أنّ الأرض كرويّةٌ ولكن لم تكن مكتَشَفة، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: من الآية ٧]؛ أي: أنّ القرآن الكريم فيه آياتٌ مُحْكمات، هي آيات الأحكام الّتي يترتّب عليها الثّواب والعقاب، افعل ولا تفعل، حلال وحرام، أمّا الآيات المتشابهات فهي مثل تلك الآيات الّتي تبدأ بها فواتح بعض السّور، ومَنْ في قلوبهم زَيْغٌ يتساءلون: ما معناها؟ ولماذا وُضِعت هنا؟ وهم يقولون ذلك لا بَحْثاً عن معنى؛ ولكن رغبةً للفتنة، ولهؤلاء نقول: لماذا تريدون أنْ تفهموا كلّ شيءٍ في كتاب الله ﷻ وفق المنظار البشريّ؟ إنّ العقل هو وسيلة إدراك، كالعين والأذن، فهل ترى عيناك كلّ ما يمكن أن يُرَى؟ بالتّأكيد لا؛ لأنّ للرّؤية بالعين قوانينَ وحدوداً، فإنْ كنتَ بعيداً بمسافة كبيرة عن الشّيء فلن تراه، ذلك أنّ العين لا ترى أبعد من حدود الأفق، فإذا كانت للعين -وهي وسيلة إدراك المرائي- حدود، وإذا كانت للأذن -وهي وسيلة إدراك الأصوات- حدّ بحدّ المسافة الموجيّة للصّوت، فلا بُدَّ أن تكون هناك حدودٌ للعقل، فهناك ما يمكن أن تفهمه، وهناك مَا هو غيبيّ، فلا يمكن إذا لم يُخبرك القرآن الكريم عن معناه أن تعرفه؛ لذلك قال النّبيّ ﷺ عن آيات القرآن الكريم: «مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»[1]، وكلّما ارتقى العقل البشريّ في العلوم والتّطوّر أَذِن الله ﷻ بكشف سِرٍّ من أسرار القرآن الكريم، ولا أحد بقادرٍ على أن يجادل في آيات الأحكام، ويقول الله ﷻ عن الآيات المتشابهة: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ

---

(١) صحيح ابن حبّان: كتاب العلم، ذِكْرُ الزّجر عن تتبّع المتشابه من القرآن للمرء المسلم، الحديث رقم (٧٤).

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: من الآية ٧].

﴿تِلۡكَ﴾: إشارة لما سبق ولِمَا هو قادمٌ من الكتاب.

﴿ءَايَٰتُ﴾: جمع آية، وهي الشّيء العجيب الّذي يُلْتَفت إليه، والآيات إمّا أن تكونَ كونيّة كاللّيل والنّهار والشّمس والقمر لتثبت الوجود الأعلى، وإمّا أنْ تكونَ الآيات المُعْجزة الدّالّة على صِدْق البلاغ عن الله ﷻ، وهي معجزات الرّسل -عليهم السّلام-؛ كعصا موسى ﵇، وإمّا أن تكونَ آيات القرآن الكريم الّتي تحمل المنهج للنّاس كافّة.

﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾: وهنا وقفةٌ مهمّةٌ، فبعض الّذين حاولوا تناول تفسير القرآن الكريم بأسلوبٍ خرج عن علوم القرآن كلّها، وعن المنطق والعقل، وعن المعطيات كلّها، وعن ما قاله النّبيّ ﷺ، فسّروا بأنّ الكتاب شيءٌ والقرآن الكريم شيءٌ آخر، والآن نبيّن بشكلٍ واضح، ونقول: إنّ الكتاب إذا أُطلِق فهو ينصرف إلى كلّ ما نزل من الله ﷻ على الرّسل -عليهم السّلام-، كصحف إبراهيم ﵇، وزبور داود ﵇، وتوراة موسى ﵇، وإنجيل عيسى ﵇، كلّ تلك كتب؛ ولذلك يسمّونهم: (أهل الكتاب)، أمّا إذا جاءت كلمة: (الكتاب) مُعرَّفة بالألف واللّام، فلا ينصرف إلّا للقرآن الكريم؛ لأنّه نزل كتاباً خاتماً، ومُهيْمناً على الكتب الأخرى، وكلمة كتاب؛ أي: مكتوب؛ لأنّه مكتوبٌ في اللّوح المحفوظ قبل أن يكتب من قبل كتبة الوحي، وهو (قرآن)، وبذلك يكون قد عطف خاصّاً على عامٍّ، فالكتاب هو القرآن، ودلَّ بهذا على أنّه سيُكتَب، وإن قيل: إنّ الكتب السّابقة قد كُتِبت أيضاً، فالرّدّ هو أنّ تلك الكتب قد كُتِبت بعد أن نزلتْ بفترةٍ طويلة، ولم تُكتب مِثْل القرآن الكريم ساعة التّلقِّي

من جبريل عليه السلام، وسمّي قرآناً؛ لأنّه مقروء، قرآن مصدر قراءة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]، فهو محفوظٌ في الصّدور، مكتوبٌ في السّطور، ويُوصف القرآن الكريم بأنّه مُبِينٌ في ذاته وبيّن لغيره؛ وهو مُحيط بكلّ شيء، وسبحانه القائل: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨]، وهنا يتبيّن الفارق بين كلمة الكتاب والقرآن، وسبب التّسميتين.

(الآية ٢) - ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾:

﴿رُّبَمَا﴾: رُبَّ: حرف يستعمل للتّقليل، ويُستعمل أيضاً للتّكثير على حَسْب ما يأتي بعده، وهو حَرْفٌ الأصل فيه أن يدخلَ على المفرد، ونحن نقول: رُبَّ أخٍ لك لم تلدْه أمّك، وذلك للتّقليل، وكقولنا: ربّما ينجح الكسول، ولكن لو قُلْنا: ربّما ينجح الذّكيّ، فهذا للتّكثير، وفي هذا استعمالٌ للشّيء في نقيضه إيقاظاً للعقل كي يتنبّه.

وهنا جاء الله سبحانه وتعالى بـ (رُبّ) ومعها حرف (ما) ومن بعدهما فعل، ولا يمكن أن نقول: إنّ (ما) هنا زائدة؛ ذلك أنّ المتكلّم هو ربُّ العباد.

والطّلب هنا في هذه الآية؛ يقول: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، فهل يتأتّى هذا الطّلب؟ وَلنر متى يودُّون ذلك؟ إنّ ذلك التّمنّي سوف يحدث عند الوفاة، يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون: الآية ٩٩، ومن الآية ١٠٠]، ويعلّق الحقّ سبحانه وتعالى على هذا القول: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: من الآية ١٠٠]، فعند الوفاة، وعند البعث يتمنّى الإنسان لو كان مسلماً كما بيّنت الآيات

القرآنيّة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السّجدة].

(الآية ٣) - ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾:

﴿ذَرْهُمْ﴾: أمْرٌ بأن يدعَهم ويتركهم، وسبحانه قال مرّةً: ﴿ذَرْهُمْ﴾، وقال مرّةً: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزّمّل: من الآية ١١]؛ أي: اتركهم لي، فأنا الّذي أعاقبهم، وأنا الّذي أعلم أجلَ الإمهال، وأجل العقوبة.

ويستعمل مِن ﴿ذَرْهُمْ﴾ فعلٌ مضارع هو: (يَذَر)، وقد قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢٧]، وهنا يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾، ونحن أيضاً نأكل، وهناك فرْقٌ بين الأكل كوقود للحركة وبين الأكل كلذّة وتمتُّع، والحيوانات تأكل لتأخذ الطّاقة بدليل أنّها حين تشبع لا يستطيع أحد أنْ يُجبرها على أكل أيّ شيءٍ زائد، لذلك نجد رسول الله ﷺ يقول: «**حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**»(١)؛ أي: أنّه ﷺ ينهانا عن أن نأكل بالشّهوة واللّذّة فقط.

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: أي: أن يَنصبوا لأنفسهم غايات سعيدة تُلهِيهم عن وسيلة ينتفعون بها، فما دُمْت تأمل أملاً، فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل ليتحقّق، أمّا هم فأملهم سراب.

---

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشّبع، الحديث رقم (٣٣٤٩).

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾: وكلمة (سوف) تدلّ على المسافة الزّمنيّة.

(الآية ٤) - ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾:

﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾: أي: أنّه ﷻ لا يأمر بهلاك أيّ قرية إلّا في الأجل المكتوب لها، فهناك آجالٌ مكتوبةٌ ومضروبة.

(الآية ٥) - ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾:

أي: أنّه ﷻ قد جعل لكلّ أمّةٍ أجلاً وغايةً، فإذا ما انتهى الأجل المعلوم جاءتْ نهايتها، فلا كائنَ يتقدّم على أجله، ولا أحدَ يتأخّر عن موعد نهايته.

(الآية ٦) - ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾:

هم يسخرون من الرّسول ﷺ ومن القرآن الكريم؛ ذلك أنّهم لو كانوا يؤمنون بالقرآن الكريم وبالرّسول ﷺ لَمَا وصفوه ﷺ بالجنون، والّذين قالوا ذلك هم أربعة من كبار الكفّار: عبد الله بن أبي أميّة، والنّضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة، والظّاهر من قولهم هو التّناقض الواضح، فَهُمْ يعترفون بالقرآن الكريم بأنّه (ذِكر)، والذِّكْر في اللّغة له عدّة مَعَانٍ، منها الشّرف، وقد أُطلِق على القرآن الكريم، كما قال الحقّ ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزّخرف]، وسبق لهم أن تلمّسُوا في هذا القرآن هنّاتٍ فلم يجدوا، فكيف يَصِفون مَنْ نُزِّل عليه هذا القرآن بالجنون، وهم الّذين شهدوا له من قَبْل بالصّدق والأمانة؟!

وقد شاء الحقّ ﷻ أن يُنصِف رسوله الكريم ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

﴿عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم]، وهم في اتّهامهم للرّسول ﷺ لم يلتفتوا إلى أنّهم قد خاطبوه بقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، وهو خطابٌ يتطابق مع الخطاب ذاته الّذي يخاطبه به الله سبحانه وتعالى، وهكذا أجرى الحقّ سبحانه وتعالى على ألسنتهم توقيراً واحتراماً للرّسول ﷺ من غير أنْ يشعروا، وذلك من مشيئته جل جلاله حين يُنطِق أهل العناد بالحقّ، فقد قال سبحانه وتعالى عن المنافقين أنّهم قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ [المنافقون: من الآية ٧]؛ أي: لا تنفقوا على مَنْ عند النّبيّ ﷺ حتّى يجوعوا، فينفضّوا من حوله، وهم يقولون عنه: ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، فهل آمنوا بذلك؟ أو أنّ هذا من غلبة الحقّ؟!

(الآية ٧) - ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾:

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: نعلم أنّ في اللّغة ألفاظاً تدلّ على الحَثِّ وعلى رغبة المُتكلِّم في أن يُوجد السّامع ما بعدها، ومن هذه الألفاظ (لولا) و(لوما)، وقد قال الكفّار هنا ما أورده الحقّ سبحانه وتعالى على ألسنتهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وسبق لهم أنْ قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: من الآية ٧]، وكأنّهم يطلبون نزول ملَك مع الرّسول الكريم لِيُصدّقوا أنّه رسولٌ من عند الله عز وجل، فهم يتحجّجون ويتلكّؤون.

(الآية ٨) - ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾:

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: وهكذا يُعلِّمنا الله سبحانه وتعالى أنّه لا يُنزّل الملائكة إلّا بمشيئة حكمته جل جلاله، ولو نزل الملَك كما طلبوا لمساعدة رسول الله ﷺ في البلاغ عن الله عز وجل، لكان إمّا على هيئة البشر، فلن يستطيعوا تمييز المَلَك من البشر، وإمّا أن يكون على هيئة الملك، فلا يستطيع البشر أنْ يروْه؛ وإلّا

هلكوا، ذلك أنّ البشر لا تستطيع تحمُّل التّواصل مع القوّة الّتي أودعها الله ﷻ في الملائكة -عليهم السّلام-، والحقّ ﷻ هو القائل: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام: من الآية ٨]، ولو جعله الحقّ ﷻ في هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الأمر، ولَظنّوا أنّ الملَك بشرٌ مثلهم، وفي هذا يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام]، ولو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم، فالحقّ ﷻ إذا أعطى قوماً آيةً طلبوها، فإمّا أن يؤمنوا، وإمّا أن يهلكهم، ولذلك يقول ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]، فلو نزّلنا الملائكة كما يريدون فسننزلهم بالحقّ، والحقّ هو أن نهلكهم إذا كذّبوا.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾: أي: ما كان أجَلُ المشركين قد حانَ ليُنزّل الله ﷻ لهم الملائكة لإهلاكهم، كما سبق وأهلك الأمم السّابقة الّتي طلبتْ الآيات، فنزلت لهم كما طلبوها، ولَمّا لم يُصدِّقوا ويؤمنوا أهلكهم الله ﷻ.

(الآية ٩) - ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾:

القرآن الكريم جاء خاتماً للرّسالات، وستبقى المعجزة مكتنزة فيه إلى يوم القيامة، بينما الرّسل -عليهم السّلام- الّذين سبقوا النّبيّ ﷺ كانت المعجزات معهم حسّيّة في وقت النّزول؛ كسفينة نوح عليه السلام وعصا موسى عليه السلام ونار إبراهيم عليه السلام وناقة صالح عليه السلام وإحياء الموتى وشفاء المرضى لسيّدنا عيسى عليه السلام.. إلخ، لذلك فالله ﷻ تكفّل بحفظ القرآن الكريم، ولم يترك مهمّة حفظه كتكليفٍ منه للبشر؛ لأنّ التّكليف عُرْضة أن يطاع وأنْ يُعصى، فضلاً عن أنّ

القرآن الكريم يتميّز عن الكتب السّابقة في أنّه يحمل المنهج، وهو المعجزة الدّالّة على صِدْق بلاغ رسول الله ﷺ في الوقت ذاته، ولذلك قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، والذِّكْر إذا أُطلِق انصرف المعنى إلى القرآن الكريم.

ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن الكريم، ولكنّهم يتفنّنون في وسائل حفْظه، فهناك مَنْ طبع المصحف في صفحةٍ واحدة، وهناك من قام بتسجيل المصحف بوسائل التّسجيل المعاصرة، وفي ألمانيا على سبيل المثال توجد مكتبة يتمّ بها حِفْظ كلّ ما يتعلّق بكلّ آيةٍ من القرآن الكريم في مكانٍ مُعيّن مُحدّد، وفي البلاد الإسلاميّة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن الكريم منذ الطّفولة، ويُنهي حِفْظه وعمره سبع سنوات، وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرفه، ولكنّه يحفظ القرآن الكريم حتّى وإن لم يكن عربيّاً، حتّى ولو لم يملك أيّة ثقافة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى تكفّل بحفظه، ولم تتبدّل فيه كلمةٌ منذ عهد النّبيّ الكريم ﷺ، ولكي نعرف دِقّة حِفْظ الحقّ سبحانه وتعالى لكتابه الكريم، نجد أنّ بعضهم قد حاولوا أن يُدخِلوا على القرآن الكريم ما ليس فيه، وحاولوا تحريفه من مدخلٍ يروْنَ أنّه قريبٌ من قلب كلّ مسلم، وهو توقير الرّسول ﷺ، فتناولوا قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: من الآية ٢٩]، وأدخلوا في هذه الآية كلمة ليست فيها، وطبعوا مصحفاً غيَّروا فيه تلك الآية بكتابتها: (محمّد رسول الله ﷺ والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم)، وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين، فقامت ضَجَّة، ورفض الجميع، وأُعدِم هذا القرآن الّذي جعلوا فيه هذه الزّيادة، وقالوا: (إنّ به شيئاً

زائداً)، فردَّ مَنْ طبع المصحف: (ولكنّها زيادةٌ تحبّونها وتُوقّرونها)، فردَّ العلماء: (إنّ القرآن توقيفيّ؛ نقرؤه ونطبعه ونحفظه كما نزل)، فأيّ زيادةٍ حتّى ولو كانت في توقير رسول الله ﷺ ومحبّته لا تجوز في القرآن الكريم؛ لأنّ علينا أن نحفظ القرآن الكريم كما نزل.

ولنلحظ بأنّ الله ﷻ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، ولا يوجد آية في القرآن الكريم فيها تأكيد: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ و﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ غير هذه الآية، واستخدم ﷻ هنا نون العظمة؛ أي: بصفات الكمال والجلال والجمال لله ﷻ كلّها، فالقرآن الكريم محفوظٌ بأمر الله ﷻ وبقي أن نحفظه بالعمل، أمّا حفظه كقرآن بالكتابة فهو محفوظٌ إلى أن تقوم السّاعة.

(الآية ١٠) - ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾:

هنا يُسلّي الحقّ ﷻ رسولَه الكريم، ويوضّح له أنّ ما حدث له من إنكارٍ ليس بِدعاً، بل حدث مثله مع غيره من الرّسل -عليهم السّلام- سواء من إنكارٍ أو تجاهلٍ أو سخريةٍ واستهزاء.

وإذا كنت أنت سيّد الرّسل وخاتم الأنبياء -عليهم السّلام-؛ فلا بُدَّ أن تكون مشقّتك على قَدْر مهمّتك، ولا بُدَّ أن يكون تعبُك على قَدْر جسامة الرّسالة الخاتمة.

﴿شِيَعِ﴾: تعني الجماعة، وهم مَن يجتمعون على مذهبٍ واحد، سواء كان ضلالاً أم حقّاً، والمثَل على مَنِ اجتمعوا على باطل هو قوله الحقّ: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ [الأنعام: من الآية ٦٥]، والمثَل على مَنْ اجتمعوا على الحقّ قوله ﷻ: ﴿۞وَإِنَّ مِن

شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصّافّات]، وقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، يعني أنّك لن تكون أقلّ من الرُّسل السّابقين –عليهم السّلام–، بل قد تكون رحلتك في الرّسالة شاقّة بما يناسب مهمّتك.

(الآية ١١) - ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾﴾:

﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: ونجد أنّ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: من الآية ٦]، وهذا يعني أنّهم عجزوا عن مقاومة منهج الرّسول ﷺ، ويحاولون بالاستهزاء أن يحقّقوا إضعاف النّبيّ ﷺ، وبعد وفاته إضعاف من كان مع النّبيّ ﷺ أو من هو على دينه ﷺ.

والاستهزاء كما نعلم لَوْنٌ من الحرب السّلبيّة، فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله ﷺ بالجدّ، ولا أنْ يردّوا منهجه الرّاقي؛ لذلك لجؤوا إلى السُّخْرية منه ﷺ، ولكن لم تنفعهم سخريّتهم في النَّيْل منه ﷺ، أو النَّيْل من الإسلام، ونتوقّف هنا قليلاً، فالاستهزاء والسّخرية من رسول الله ﷺ كان منذ الزّمن الأوّل وصولاً إلى الرّسوم الآن، ونحن كعرب وكمسلمين صحيح أنّنا نعيش في حالة من التّخلّف العلميّ والأخلاقيّ، وهجوم شرس على الإسلام وشعائره ومقاصده وكلّ ما يتعلّق به، سواء من أعدائه –وعلى رأسهم الصّهاينة– أو من بعض المحسوبين عليه، لكن علينا أن نفكّر: لماذا يريد الغرب أن يوصلنا إلى هذه الحالة؟ لماذا استعمر بلادنا؟ لماذا يُسيء إلى إسلامنا؟ هل فقط لأنّه غرب ونحن شرق؟ هل السّبب مكانيّ؟ بالتّأكيد لا، هل لأنّ الغرب مسيحيّ والشّرق

أغلبه مسلم؟ والجواب بالتّأكيد لا؛ لأنّ الغرب ليس مسيحيّاً، والمسيحيّة أساسها في بلادنا وانطلقت من عندنا، وفي بلادنا يعيش المسلمون والمسيحيّون، وفي الغرب أيضاً يعيش المسلمون والمسيحيّون، فكلّ ما يجري من حروب واستهزاء كالرّسوم المسيئة للنّبيّ ﷺ، ليست منطلقة ممّا ذُكِر، فما هو السّبب؟ هناك أمرٌ خطرٌ جدّاً، هو العقيدة الّتي ينتهجها الغرب، يحاربوننا برسومٍ مسيئة، بحروبٍ عسكريّة، بغزوٍ ثقافيّ.. إلخ، ووراء هذا أيديولوجية؛ أي: عقيدة، فمن الّذي يقف وراء كلّ هذا؟ إنّه ما يسمّى الآن اللّيبراليّة الجديدة، فهذا المصطلح يمثّل ثقافة وعقيدة وأيديولوجيّة الغرب، فالسّياسة كلّها الّتي تحكم العالم؛ ترامب وماكرون وغيرهما.. عبارة عن ليبراليّة كمبادئ ظاهرة تدعو إلى الحرّيّة والمساواة وحقوق الإنسان، وقد نشأت هذه الفكرة في الغرب في القرن السّابع عشر على يد مفكّر إنكليزيّ يدعى (جون لوك)، ثمّ انتشرت وقويت وتغذّت في العالم، وأصبحت دول الغرب تدين بها بعد الثّورة الفرنسيّة، ولكن أين الخطر الّذي يمثّله هذا المبدأ (اللّيبراليّة الجديدة) بالنّسبة إلى مجتمعاتنا وقيمنا ومنظوماتنا الأخلاقية؟ اليوم من خلال وسائل الإعلام ووسائل التّواصل الاجتماعيّ المثل الأعلى الّذي يصوّرونه لنا هو الدّيمقراطية الغربيّة، والإنسان الأكمل هو الإنسان الغربيّ، والأقوى علميّاً هو الغرب، والثّقافة السّائدة في العالم من شرقه إلى غربه هي الثّقافة الاستهلاكيّة، هذا كلّه تحت مسمّى اللّيبراليّة الجديدة، فعلينا أن نستيقظ، وألّا نعتقد أنّ الرّسوم المسيئة للنّبيّ ﷺ جاءت مصادفة، وإنّما هي ضمن مخطّط يتمّ العمل عليه ضمن الحرب الثّقافيّة والعسكريّة وإخراج الحركات المتطرّفة لتشويه الإسلام، فهؤلاء هم نتاج الغرب،

وهناك أخطار من هذه الأيديولوجية، فأوّل شيءٍ تسعى إليه هو تهميش الدّين، فلا تقول: إنّها تعادي الدّين بشكلٍ مباشر، لكنّها تقول: الدّين هو حرّيّةٌ شخصيّةٌ بين الإنسان وبين الله عَزَّوَجَلَّ بالمسجد والكنيسة فقط، ولا علاقة له بالحياة الاجتماعيّة، فحاوَلوا بذلك فصله عن الحياة الاجتماعيّة، ونحن نسمع هذا الكلام كثيراً: إنّ قضايا الدّين هي قضايا ثانويّة ليست لها قيمة، ونجد أنّ هناك كثيراً من الأقنية تعمل على تمرير هذه الأفكار الخطرة بالنّسبة إلى مجتمعاتنا، من خلال بعض البرامج كقضيّة الرّسوم المسيئة للنّبيّ ﷺ، فيأتون بشخصين مسلمين، أحدهما يقول: إنّ الرّسوم المسيئة هي حرّيّة تعبير، والآخر يرى أنّها تُسيء للإسلام، ويناقشون الأمر كرأيين، أو يطرحون قضيّة الزّواج المدنيّ كرأيين، أو قضيّة الحجاب كرأيين.. وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعدم وجوده.. مؤمن وغير مؤمن ... وهكذا، فهم يضعون قضايا الدّين ضمن إطار النّقاش، وهذا يضرب عقيدة الدّين، فالدّين مبنيٌّ على اليقين وليس على الشّكّ والتّشكيك، والمبدأ الأساسيّ بالنّسبة إليهم هو عبادة المال، فالمال هو كلّ شيءٍ، هو الّذي يحكم العالم، ويسيطر على الدّول، ومن أجله تقوم الحروب وتُستَعمر الدّول وتُنهَب الثّروات، ومن أجله تقوم التّحالفات أو عكسها.. كلّ شيءٍ من أجل المال على مستوى الأفراد والدّول، فالدّول الكبرى كالولايات المتّحدة وأوروبّا تحكمها اللّوبيّات الصّهيونيّة اليهوديّة، شركات النّفط والسّلاح يملكها يهود، وهذا معروف وتسمّى في أمريكا الدّولة العميقة، لوبيّات الضّغط، كلّها لوبيّات ماليّة، ومعظمها يهوديّ، الأحزاب والحكومات والإدارات كلّها تأتي لتنفّذ ما تريد هذه اللّوبيّات في العالم، تكريس استعباد المال للإنسان، تفكير الإنسان

كلّه ومشكلاته من أجل المال، قطع الأرحام، الفساد، الرّشوة، انتهاك القيم، وقد يبيع ذمّته وضميره وأخلاقه من أجل المال، وقد تصل ببعضهم أن يبيع عِرضه من أجل المال، فأصبح المال هو الإله، يقول ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان]، وقد نبّهنا الله ﷻ إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران]، فماذا يصنعون بهذه اللّيبراليّة الجديدة؟ هذه اللّيبراليّة الغربيّة تحاول أن تسقط الكيانات الوطنيّة، تسقط الوطن والدّول، كلّ الفئات الّتي تنشط وتعمل وتدّعي أنّها تريد الحرّيّات وحقوق الإنسان والمساواة والعدالة الاجتماعيّة ترفع شعارات برّاقة، وكثير منها قد يكون مطلوباً، ممّا أدّى إلى ما شاهدناه في مصر وسوريا وتونس فيما سمّوه بالرّبيع العربيّ، والثّورات الملوّنة في شرق أوروبّا، هذه التّحرّكات تمّت تحت هذه الشّعارات اللّيبراليّة الجديدة، وهي تريد أن تدمّر القيم والأسر، وتفاوتت الأمور واختلفت من دولة إلى دولة.

وإذا أردت أن تفكّك مجتمعاً فما عليك إلّا أن تخرّب الأسرة، فاليوم نسمع في الغرب، وعندنا على استحياء: نريد حقوق المثليّين الشّواذّ قوم لوط الّذين ذمّهم الله ﷻ في عشرات المواضع، وضعوا لهم اسم المثليّة الجنسيّة ليوحوا بأنّ لهم حقّاً، وكذلك حقّ المساكنة، وهو أن يعيش شابٌّ مع فتاة في المكان ذاته من غير زواج، هذا الكلام يزداد، تحت مسمّيات أحياناً علميّة، ويقولون: إنّ الشّذوذ الجنسيّ له سببٌ جينيٌّ، وهذا الكلام علميّاً غير صحيح، ويقولون أيضاً: إنّ اختيار الجنس حقٌّ يملكه الإنسان، لذلك في بعض الدّول الغربيّة بعضاً من المستشفيات عندما تلد الأمّ لا يسجّلون جنس المولود ذكراً أو أنثى،

بل يقولون: مولود، وعندما يكبر له الحقّ أن يختار أن يكون ذكراً أو أنثى، وهذه الشّعارات تؤدّي إلى تفكيك المجتمع ودمار الأسرة وعبوديّة المال وجعل الشّعوب كلّها مستعبدة للشّركات الكبرى واللّوبيّات الموجودة في الغرب وفي الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ممّا يؤدّي إلى التّطبيع والعلاقات مع الكيان الصّهيونيّ الغاصب، ونجد أنّه في عام ٢٠١٦م قال مكتب الإحصاء الأوروبّي: بأنّ ٤٣٪ من المواليد في أوروبّا وُلِدوا خارج مؤسّسة الزّواج؛ أي: من غير أسرة، في فرنسا ٦٠٪، في الدّانمارك ٥٤٪... أرقام مخيفة، ويراد أن يتمّ ذلك في مجتمعاتنا، لذلك نجد أنّ التّصويب باتّجاه الإسلام، رسومٌ مسيئةٌ للنّبيّ ﷺ، إساءةٌ هنا وإساءةٌ هناك، إلصاق الإرهاب بالإسلام، وقولهم: بذور العنف في الإسلام...إلخ، الشّيء الوحيد الّذي يستطيع أن يُمسك المجتمعات ويحميها من اللّيبراليّة الجديدة هي القيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة الّتي نعيشها وكرّسها الإسلام، والأسرة الّتي حماها الإسلام، العلاقة مع الأمّ والأب والإخوة، فالمجتمعات الغربيّة، والثّقافة الغربيّة، ونمط العيش الغربيّ الّذي يريد أن يغزونا، أوّل ما يصوّب الآن يصوّب باتّجاه الإسلام، ونعلم أنّ هذه الثّغرات الموجودة في هذه العقيدة الغربيّة يسدّها الإسلام، فأهمّ فكرة وهي عبوديّة الإنسان للمال، جاء الإسلام ليجعل المال عبداً وليس سيّداً، سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه كان يقول: "بئس السّيّد المال، ونعم العبد المال"، فالإسلام وجّه الإنسان ليكون المال مأموراً تحت يده، وأن يدفع الزكاة والصّدقات، قال النّبيّ ﷺ: «مَا آمَنَ

بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم به»[1]، وقد ذُكِر ذلك في عشرات الآيات في القرآن الكريم: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة]، وقال ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]، وقال ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٥]، حشدٌ كبير من الآيات تجعل المال في يدك خادماً لك، ولست أنت خادم له، الإسلام يربّيك منذ اللّحظة الأولى على العطاء والإنفاق وليس على الأخذ، فقد جعل الزكاة ركناً من أركان الإسلام والصّدقات تابعة لها، وحرّم الكنز ووضع مبدأ المحاسبة، والمال بالنّسبة إلى الإنسان عبء كبير؛ لأنّه يعلم أنّه كما أخبر النّبيّ ﷺ: «لَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ»[2]، فالإسلام يضرب هذه

---

(١) الجامع الصّغير وزيادته: ج١، الحديث رقم (١٠٤٤٢).

(٢) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: كتاب البعث، باب ما جاء في الحساب، الحديث رقم (١٨٣٧٠).

العقيدة الغربيّة في صلبها، ويُحرّم مداخل المال الحرام كلّها، الرّشوة والرّبا والغشّ والاحتكار، يقول ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾ [البقرة]، ويُحافظ على الأسرة وعلى قيم العفّة لدى الشّابّ والشّابّة، فالشّابّ ينشأ وهو يقرأ ويتعلّم ويرى نموذجاً بالشّاب العفيف النّبيل الكريم سيّدنا يوسف عليه السلام وهو يرفض المغريات، بعد ذلك يأتيه الزّواج كي يعفّ نفسه، ويسأل: كيف يختار زوجته؟! والزّوجة تسأل: كيف تختار زوجها؟ وبعد ذلك الأمر بالمعروف والأمر بصلة الأرحام، وحسن العلاقة بين الأخوة، والحفاظ على النّسل، وتقديس الأسرة، والأب والأمّ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، أحاط الأسرة ومنع اختراق أسوارها، فبقاء الأسرة بقاءٌ للمجتمع، هذه أهمّ قضيّة في هذا الأمر، فالإسلام يجعل الإنسان عبداً لله ﷻ وليس عبداً لمصالحه وللمال، أمّا العقيدة الغربيّة الّتي تحاربنا وتُسيء إلى ديننا تجعل الإنسان محور كلّ شيء، وبالتّأكيد كلّنا مع مصلحة الإنسان، لكن لا نجعل أهواء الإنسان ومتعه ورغباته هي المحور من غير أيّ ضابط، فإن أراد الزّنا والعلاقات غير الشّرعيّة فلا بأس، وإن أراد المال بشكل غير شرعيّ فلا بأس، وإن أراد احتلال الدّول كما تفعل أوروبّا وأمريكا فلا بأس، ومن أراد المساكنة فليفعل، ومن أراد ترك أمّه وأبيه ليعيش مستقلّاً فليفعل ما يشاء، أمّا الإسلام فقد جعل المعيار عبوديّةً لله ﷻ تتحرّر من عبوديّة المال وعبوديّة الآخرين، وأنّ الأخلاق هي القيم المستمدّة من شرع الله ﷻ، من مصدرٍ إلهيّ، وليس وفق أهواء الإنسان، فالإسلام يضع لنا ضوابط، بينما الثّقافة الغربيّة تريد أن تأتي إلى قضيّة خلق الله ﷻ، كتغيير جنس المولود، وتغيير

خلق الإنسان، والمبالغة في عمليّات التّجميل.. وقد وردت آيات في القرآن الكريم تحذّر وتنهى عن ذلك، كما نهى النّبيّ ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ**»[1]، فاليوم عندما نرى هجمات ترامب وماكرون وكثير من القادة الغربيّين على الإسلام متستّرين بعبارة الإرهاب الإسلاميّ فهي ضمن هذا المخطّط، وعندما نرى الرّسوم المسيئة للنّبيّ ﷺ فهي ضمن هذا المخطّط، وعندما نرى من يريد أن يقضي على الدِّين ويحاربه ويحاصره فهو ضمن هذا المخطّط، وعندما نرى من يريد أن يقيم علاقات مع إسرائيل من غير أن تُعاد الحقوق فهو من ضمن هذا المخطّط، ومن يريد التّطبيع فهو ضمن هذا المخطّط، ومن يريد إسقاط شعار الدّين فهو ضمن هذا المخطّط، أقلامٌ مأجورة وصفحاتٌ مشبوهة تريد أن تنظّر الابتعاد عن الدّين وذمّه من أجل هذا المخطّط الغربيّ الشّيطانيّ الخبيث، والحلّ بأن نتذكّر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام]، هذا هو نموذج الإنسان الّذي أراده الإسلام الّذي سيقف أمام النّموذج الآخر الّذي يريده الغرب لمجتمعاتنا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان].

(الآية ١٢) - ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾:

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾: سلك الشّيء؛ أي: أدخله، كما نُدخِل الخيط في ثقب الإبرة، والحقّ سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾ [المدّثّر]؛ أي: ما أدخلكم في

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب اللّباس، باب ما وطئ من التّصاوير، الحديث رقم (٥٩٥٤).

النّار؟ فتأتي إجابتهم: ﴿قَالُوا۟ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدّثر]، وهنا يقول الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢﴾؛ أي: كما سلكنا الكفر والتّكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأوّلين، كذلك نُدخِله في قلوب المجرمين، يعني: مشركي مكّة؛ لأنّهم أدخلوا أنفسهم في دائرة الشّرك الّتي دعتهم إلى هذا الفعل، فنالوا جزاءَ ما فعلوا مثل ما سبق من أقوامٍ مثلهم.

(الآية ١٣) - ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾:

وهكذا يوضّح الله ﷻ أنّ قلوب الكفرة لا تلين بالإيمان، ولا تُحسِن استقبال القرآن الكريم، فقد امتلأت بالكفر، تماماً كما حدث من الأقوام السّابقة، فتلك سُنّة مَنْ سبقوهم إلى الكفر.

﴿سُنَّةُ﴾: السُّنّة هي الطّريقة الّتي تأتي عليها قضايا النّتائج للمُقدِّمات، وهي أوّلاً وأخيراً قضايا واحدة.

ومرّةً نجد أنّ الله ﷻ يقول: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡا۟ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٦٢﴾ [الأحزاب] قانونٌ إلهيّ، ونعلم أنّ الإضافة تختلف حَسْب ما يقتضيه التّعبير، فـ ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: تعني الأمور الكونيّة الّتي قدّرها الله ﷻ لعباده، و﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: تعني سُنّة منسوبة إلى الله ﷷ، ومن سنن الحقّ ﷻ أن يُهلك المُكذِّبين للرّسل إنْ طلبوا آيةً فجاءتهم، ثمّ واصلوا الكفر.

(الآية ١٤) - ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤﴾:

طلبوا أن ينزل إليهم مَلَكٌ من السّماء؛ لذلك نجد الحقّ ﷻ يأتيهم بدليل

أقوى مِمَّا طلبوا، ذلك أنّ نزول مَلَك من السّماء هو أسهل بكثير من أن يُنزِلَ من السّماء سُلَّماً يصعدون عليه، وفي هذا ارتقاءٌ في الدّليل، لكنّهم يرتقون أيضاً في إنكار الدّليل، وقالوا: إن حدث ذلك فَلَسوفَ يكون من فعل السّحر، ولكانَ رسول الله ﷺ هو الّذي سحرهم وأعمى أبصارهم، ولَجعلهم يتوهّمون ذلك، فهكذا كان بالنّسبة إليهم في أيّ معجزة تأتي من قبل النّبيّ ﷺ، ولا بُدَّ أن نلحظ أنّ الحقّ سبحانه وتعالى قد جاء بكلمة: ﴿فَظَلُّوا﴾، ولم يقل: (فكانوا)، ذلك أنّ (كان) تُستخدمِ لِمُطلْق الزّمن، و(ظلّ) للعمل نهاراً، و(أمسى) للعمل ليلاً؛ أي: أنّ كلّ كلمة لها وَقْت مكتوب، والمقصود من (ظَلُّوا) هنا أنّ الحقّ سبحانه وتعالى لن ينزل لهم السُّلَّم الّذي يعرجُون عليه إلى السّماء إلّا في وضح النّهار؛ أي: لن نأخذهم باللّيل، حتّى لا يقولوا: إنّ الدّنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً؛ أي: أنّ الله سبحانه وتعالى حتّى لو فتح باباً في السّماء يصعدون منه إلى الملأ الأعلى في وضح النّهار لكذّبوا، لذلك قال جلّ جلاله: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾.

(الآية ١٥) - ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ١٥﴾:

﴿سُكِّرَتْ﴾: مبني للمجهول، كأنّ هذه الأعين سُكِّرَت بفعل فاعل وأغلقت، وقد قال الشّاعر:

إنّ الرّسول لنور الكون أجمعه   لكن تعامت عن الأنوار عيناك

فهم لا يرون أنوار الحقيقة وأنوار العلم والمعرفة وأنوار الحقّ الّتي جاء بها النّبيّ ﷺ، وسيتحجّجون باستمرار.

(الآية ١٦) - ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾:

﴿بُرُوجٗا﴾: البروج: تعني المباني العالية، والحقّ سبحانه وتعالى هو القائل: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النّساء: من الآية ٧٨]، وهو جل جلاله القائل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ [البروج]، والمعنى الجامع لهذا كلّه هو الزّينة المُلْفتة بجِرْمها العالي، وقد تكون مُلْفِتة بجمالها الأخّاذ.

والبروج: جمع بُرْج، وهي منازل الشّمس والقمر، فكلّما تحرّكت الشّمس في السّماء انتقلت من برجٍ إلى آخر، وكذلك القمر، مصداقاً لقول الحقّ سبحانه: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٣]، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: من الآية ٥]؛ أي: لنضبط التّوقيتات على ضَوْء تلك الحركة لكلٍّ من الشّمس والقمر، ونحن حين نفتح بعض الصُّحف نقرأ ما يُسمَّى بأبواب الطّالع، وفيه أسماء الأبراج: برج الحَمَل، وبرج الجدي، وبرج العذراء، وغيرها، وهي أسماء سريانيّة للمنازل الّتي تنزلها أبراج النّجوم، وهم اثنا عشر برجاً، ولكلّ برجٍ مقاييس في الجوّ والطّقس، وحين نقرأ القرآن الكريم نجد قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل]، وبعضهم يحاول أن يجد تأثيراً لكلّ برجٍ على المواليد الّذين يُولدون أثناء ظهور هذا البرج، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بمواقع النّجوم فقال: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة]، وهناك مَنْ يقول: إنّ لكلّ إنسانٍ نجماً يُولَد معه ويموت معه؛ لذلك يُقَال: هوى نجم فلان، ونحن لا نجزم بصِحّة أو عدم صِحّة مثل هذه الأمور؛ لأنّه لم تثبُت

علميّاً، والحقّ ﷻ أعلم بأسراره، وقد يُعلِّمها لبعضٍ من خَلْقه.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾: أي: أنّ هناك تأكيداً لوجود تلك البروج في السّماء، وليس هذا الجَعْل لتأثيرها في الجوّ، أو لأنّها علامات نهتدي بها، فضلاً عن تأثيرها على الحرارة والرّطوبة والنّباتات، ولكنّها مع ذلك كلّه تؤدّي مُهمّة جماليّة كبيرة، وهي أن تكون زينة لكلّ مَنْ ينظر إليها، لذلك قال الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾، ذلك أنّ الشّيء قد يكون نافعاً؛ لكن ليس له قيمة جماليّة، وشاء الله ﷻ أن يجعل للنّجوم قيمةً جماليّةً، ذلك أنّه قد خلق الإنسان، ويعلم أنّ لنفسه مَلَكاتٍ مُتعدّدة، وكُلّ مَلَكةٍ لها غذاء، فغذاءُ العين المنظر الجميل، والأذن غذاؤها الصّوت الجميل، والأنف غذاؤه الرّائحة الطّيّبة، واللّسان يعجبه المذاق الطّيّب، واليد يعجبها المَلْمَس النّاعم، وهذا ما نعرفه من غذاء المَلَكات للحواسّ الخمس الّتي نعرفها.

(الآية ١٧) - ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾:

نعلم أنّ الشّياطين كانوا يسترقون السّمع لبعضٍ من منهج الله ﷻ الّذي نزل على الرّسل السّابقين لرسول الله ﷺ، وكانوا يحاولون أن يُضيفوا لها من عندهم ما يُفسِد معناها، وما إنْ جاء رسول الله ﷺ حتّى مُنِع كلّ هذا بأمرٍ من الله ﷻ، يقول جلّ في عُلاه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢١]، ولذلك نجد الشّياطين تقول ما ذكره الله ﷻ على ألسنتهم في كتابه العزيز: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجنّ]، وهكذا علمنا أنّهم كانوا يسترقون

السّمع، ويأخذون بعضاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها قبل نزول القرآن الكريم، وشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُكّذب ذلك، فقال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾.

﴿شَيْطَانٍ﴾: الشّيطان كما نعلم هو عاصي الجنّ.

﴿رَّجِيمٍ﴾: المرجوم بالحجارة؛ أي: المطرود من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(الآية ١٨) - ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ١٨﴾:

﴿اسْتَرَقَ﴾: تُحدِّد المعنى بدقّة، فهناك مَنْ سرق، وهناك مَنْ استرق، فالّذي سرق هو مَنْ دخل بيتاً على سبيل المثال، وأخذ يُعبّئ ما فيه في حقائب، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد، لكن إنْ كان هناك أحدٌ في المنزل، فاللّصّ يتحرّك في استخفاء، خوفاً من أن يضبطه مَنْ يوجد في المنزل، وهكذا يكون معنى ﴿اسْتَرَقَ﴾ الحصول على السّرقة مقرونة بالخوف.

وقد كان العاصون من الجنّ قبل رسول الله ﷺ يسترقون السّمع للمنهج المُنزّل على الرُّسُل السّابقين لرسول الله ﷺ، واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة، حيث شاء الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يحرسَ السّماء، وما إنْ يقترب منها شيطانٌ حتّى يتبعه شهابٌ ثاقبٌ.

والشّهاب: النّار المرتفعة، وهو عبارة عن جَذْوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة، ويخرج منه اللّهب، أمّا إذا كان اللّهب بلا ذؤابة من دخان، فهذا اسمه (السَّمُوم)، وإنْ كان الدّخان مُلْتوياً، ويخرج منه اللّهب، ويموج في الجوّ فيُسمى (مارج) حيث قال الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ١٥﴾ [الرّحمن: من الآية ١٥]، وهكذا نجد السّماء محروسة بالشّهب والسَّمُوم ومارج من نار.

وهنا نتوقّف قليلاً عند موضوع الجنّ والشّيطان -وهو العاصي من الجنّ- واستراق السّمع والشّهب الّتي تنزل.. سيقول قائلٌ: ما هذا الكلام الّذي تردّدونه كمسلمين: شياطين وجنّ وشهب ثاقبة تتبع الشّياطين إذا استرقوا السّمع.... إلخ، نُجيب: إنّنا إذا أردنا أن نتحدّث فبالعلم والمنطق والعقل، وليس خارج حدود العقل البشريّ كما يدّعي أعداء الإسلام، فالإسلام بنى أحكامه كلّها وما يتعلق بالرّسالة على العقل البشريّ، فهو يخاطب العقول، حتّى أنّ التّكليف لا يكون إلّا لأولي الألباب، ولا يكون إلّا للإنسان الّذي اكتمل عقله؛ أي: أصبح في سنّ الرّشد، ويستطيع أن يعي المعاني، فعندما يقول الإسلام: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وعندما يقول الإسلام: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ [البقرة: من الآية ٢٢١]، فهذه النّقاشات والحوارات الرّائعة الموجودة في كتاب الله عزوجل إنّما تخاطب العقل البشريّ، لكن الإيمان بالله سبحانه وتعالى والغيب بُني على الدّليل العلميّ، وعندما يُبنَى الإيمان على الدّليل العلميّ وتناقش هذا الأمر في العقل وتقتنع بوجود الله سبحانه وتعالى تأتي موجبات الإيمان، وهي طالما أنّك آمنت بالله سبحانه وتعالى فإنّك تتلقّى عن الله جل جلاله، فنحن لا نقول لغير المؤمن: بأنّك يجب أن تؤمن بالملائكة والجنّ، بل نقول له أوّلاً: يجب أن تؤمن بالله عزوجل، وتؤمن بأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأنّ القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى، وتناقش في هذه الأدلّة وتعرضها على العقل، وبعد أن يأخذ النّقاش الحدّ المطلوب بالنّواحي كلّها، الاستقراء العلميّ والمنطقيّ والعقليّ، وتؤمن بوجود إله، وتُثبت بأنّ القرآن الكريم من عند الله جل جلاله، وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهناك بعض الأمور الغيبيّة الّتي لا يمكن أن تخضع لمقاييس العقل البشريّ، فمثلاً هناك حدودٌ للعين

لا ترى إلّا ضمنها، لكن هل هذا يعني بأنّه بعد هذا الحدّ لا يوجد شيء؟! بالتّأكيد يوجد، فقد كنّا لا نعرف أنّ هناك جراثيم، وكثير من الأمور العلميّة الّتي لم تكن مكتشفةً، هل عدم معرفتها يعني أنّها غير موجودة؟! بالتّأكيد لا يعني ذلك، فهذه الأمور الغيبيّة نأخذها كما يقولها المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنّنا آمنّا به جَلَّ جَلَالُهُ، فالّذي يريد أن يُناقش في هذه القضايا نعود به إلى النّقاش بالإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمّا إن كان غير مؤمن بالله عَزَّ وَجَلَّ فما الفائدة في أن يؤمن بوجود جنّ أو شيطان، وأنّه استرق السّمع.. إلخ، فلا فائدة من هذا الكلام إذا كان لا يؤمن بوجود إله أصلاً، ولا يؤمن أنّ القرآن الكريم من عند الله جَلَّ جَلَالُهُ، فالنّقاش لا يكون هنا وإنّما بأصل الإيمان، فلا يقولنّ أحدٌ: أنا مؤمنٌ لكن عليك أن تقنعني بوجود الجنّ.. فإن كنت مؤمناً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد أخبرك جَلَّ جَلَالُهُ عنهم في القرآن الكريم، فعليك أن تؤمن، إلّا إذا كنت تشكّك في القرآن الكريم، فعندها نعود للنّقاش حول القرآن الكريم ولا نعود للنّقاش حول الجنّ والشّياطين.

(الآية ١٩) - ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾: هذه الآية تثبت صدق القرآن الكريم وإعجازه، وأنّ مَن يقول هذا الكلام هو الخالق جَلَّ جَلَالُهُ، وحين نسمع كلمة (الأرض) فنحن نتعرّف على المقصود منها، ذلك أنّه ليس مع العين أَيْن.

﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾: المدُّ هو الامتداد الطّبيعيّ لِمَا نسير عليه من أيِّ مكانٍ في الأرض، وهذه هي اللّفتة الّتي يلفتنا إليها الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلو كانت الأرض مُربّعة،

أو مستطيلة، أو مُثلّثة، لوجدنا لها نهاية وحَافّة، فلا يمكن عندها أن تقول: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾، لكِنّا حين نسير في الأرض نجدها مُمّتدّة، ولذلك فهي لا بُدّ أن تكون مُدوَّرة، وهم يستدلّون في العلم التّجريبيّ على أنّ الأرض كُرويّة بأنّ الإنسان إذا ما سار في خطٍّ مستقيم؛ فلسوف يعود إلى النّقطة الّتي بدأ منها، ذلك أنّ مُنْحنى الأرض مصنوعٌ بدقّة شديدة قد لا تدرك العين مقدارَ الانحناء فيه ويبدو مستقيماً، فأثبت المولى سبحانه وتعالى قبل العلوم الحديثة كلّها بأنّ الأرض كرويّة بقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ يتقبّلها ويطيقها العقل البشريّ في ذلك الوقت، وعندما نقرأ القرآن الكريم في هذا الوقت نفهم بأنّ الأرض كرويّة.

﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: وحين يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، يعني أشياء تثبّتها، ولقائلٍ أنْ يتساءل: ما دامت الأرض مخلوقةً على هيئة الثّبات، فهل كانت تحتاج إلى مثبّتات؟ نقول: لا بدّ أنّ الحقّ سبحانه وتعالى قد خلقها مُتحرّكة وعُرْضة للاضطراب، فخلق لها المُثقّلات، فهي كرويّة وتدور، فقد أثبتت هذه الآية حقيقتين علميّتين: التّكوير والدّوران، وهناك آيةٌ أخرى يقول فيها الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النّمل: من الآية ٨٨]، ونفهم من هذا القول الكريم أنّ حركة الجبال ليست ذاتيّةً، بل تابعة لحركة الأرض، وشاء الله تبارك وتعالى أن يجعل الجبال رواسي مُثّبتات للأرض كي لا تميدَ بنا، فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها، فهذه الآية من الإعجاز العلميّ، وأيّ إنسانٍ يقرأ هذه الآية لا يستطيع إلّا أن يقول: سبحان الله.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾: وأنبت سبحانه وتعالى من الأرض كُلَّ شيءٍ موزون بدقّةٍ تُناسب الجوّ والبيئة، ويضمّ العناصر اللّازمة لاستمرار الحياة.

(الآية ٢٠) - ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ٢٠﴾:

في هذا القول يمتنُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا بأنّه جعل لنا في الأرض وسائل للعيش، ولم يكتَفِ بذلك، بل جعل فيها رزقَ ما نطعمه للكائنات الّتي تخدمنا، وما يلهمنا إيّاه لنطوّر حياتنا من أساليب الزّراعة والصّناعة، وفوق ذلك أعطانا الذّرّيّة الّتي تَقَرُّ بها العين، وكلّ ذلك خاضعٌ لمشيئته وتصرُّفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(الآية ٢١) - ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ٢١﴾:

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾: أي: أنّه لا يوجد جنس من الأجناس إلّا وله خزائنُ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالشّيء الّذي قد تعدّه تافهاً له خزائن، وكذلك الشّيء النّفيس، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنزِّل كلّ شيءٍ بقدَرٍ، حتّى الاكتشافات العلميّة يُنزّلها بقدَرٍ، وحين نحتاج إلى أيِّ شيءٍ مخزون في أسرار الكون، فنحن نُعمِل عقولنا الممنوحة لنا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنكتشف هذا الشّيء، مثلاً: الوقود، فقد كنّا قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب، فإذا شكوْنَا من شيء فهذا مَرْجعه إلى التّكاسل وعدم حُسْن استثمار ما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا وقدَّره من أرزاقنا في الأرض، وبعد ذلك تطوّر العلم، وأيّ تعاسة على وجه الأرض سببها عدم التّقدُّم العلميّ والتِّقنيّ، فعلينا أن نستخدم كلّ ما كنزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا، لكن مع الأسف استخدم الإنسان كثيراً ممّا كنزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من علومٍ ووجّهها باتّجاه التّدمير والحروب، ولو أنّ ما يُصرَف على الحروب تمّ توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لَعاشَ الجميع في وفرة حقيقيّة، ولكن سوء التّنظيم والتّوزيع الّذي قام به البشر هو المُسبِّب

الأوّل لتعاسة الإنسان في الأرض؛ ذلك أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد جعل الأرض كلّها للأنام، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرّحمن]، فمن يجد ضيقاً في موقعٍ ما من الأرض فنتيجةً لذلك.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾: فلكلّ شيءٍ في الأرض خزائن، والخزينة هي المكان الّذي تُدَّخر فيه الأشياء النّفيسة، فإنْ رأيتَ فقيراً مُضيَّعاً على وجه الأرض فاعلم أنّ هناك غنيّاً قد ضَنَّ عليه بما أفاض الله عَزَّ وَجَلَّ على الغنيّ من رزق، وإنْ رأيت عاجزاً عن إدراك أسباب حياته فاعلم أنّ واحداً آخر قد ضَنَّ عليه بقُوّتِه، وإنْ رأيت جاهلاً فاعلم أنّ عالماً قد ضَنَّ عليه بعلمه، وإنْ رأيت أخْرقَ فاعلم أنّ حكيماً قد ضَنَّ عليه بحكمته.. فكُلّ شيءٍ مخزونٌ في الحياة، حتّى تسلم حركة الحياة، سلامةً تؤدّي إلى التّسانُد والتّعاضُد، لا إلى التّعانُدِ والتّضارب.

وكُلُّ شيءٍ في الكون موزون، إمّا أن يكون جِنْساً، أو نَوْعاً، أو أفراداً، والميزان الّذي توجد به تلك العطاءات، إنّما شاء به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتّفق مع كثرة البشر؛ ليعيش الإنسان في حضْن الإيمان، وهكذا يكون عطاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا عطاءَ ربوبيّةٍ، وعطاءَ ألوهيّةٍ، والإنسان الذّكيّ هو مَنْ يأخذ العطاءين: الرّبوبيّة والألوهيّة لتستقيم حركة الحياة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أوضح لنا بأنّ عنده خزائن كلّ شيءٍ، ولم يرد أن يلقيه مرّةً واحدةً؛ ليؤكّد للإنسان أنّه ابْنُ أغيارٍ، وأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو مُعْطي النّعم كلّها، كما أنّ رتابة النّعمة قد تُنسِي الإنسانَ حلاوة الاستمتاع بها، وعلى سبيل المثال: أنت لا تجد إنساناً يتذكّر عَيْنه إلّا إذا آلمتْه؛ وبذلك يتذكّر نعمة البصر.

(الآية ٢٢) - ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾: والإرسال هو الدَّفْع للشّيء من حَيِّزٍ إلى حَيِّزٍ آخر، وحين يقول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إنّه أرسل الرّياح، نجد أنّها مُرْسلَة من كُلّ مكانٍ إلى كُلّ مكان، فهي مُرْسَلة من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا، وهكذا يكون كلّ مكان هو موقع لإرسال الرّياح، وكلّ مكان هو موقع لاستقبالها، ولذلك نجد الرّياح تسير في دَوْرة مستمرّة، ولو سكنتْ لـمَا تحرَّك الهواء، ولأُصِيبتْ البشريّة بالكثير من الأمراض؛ لأنّ الرّياح تُجدّد الهواء، وتُنظِّف الأمكنة من الرّكود الّذي يُمكِن أن تصيرَ إليه.

ونعلم أنّ القرآن الكريم حين يتكلّم عن الرّياح بصيغة الجمع فهو حديثٌ عن خير، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: من الآية ٥٧]، أمّا إذا أُفرد وجاء بكلمة: (ريح) فهي للعذاب، كقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقّة].

﴿لَوَٰقِحَ﴾: جمع لاقحة، وتُطلَق في اللّغة مرّةً على النّاقة الّتي في بطنها جنين، ومرّة على اللّاقح الّذي يلقّح غيره ليصير فيه جنين؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شاء أن يتكاثر كلّ ما في الكون، وجعل من كُلٍّ زوجين اثنين، إمّا يتكاثر أو تتولّد منه الطّاقة، كالسّالب والموجب في الكهرباء، وهو القائل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: من الآية ٣٦]، ثم عَدَّد لنا فقال: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: من الآية ٣٦]، وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان،

مثل بعض أنواع الأشجار الّتي لا يعلم الشّخص كيف تتكاثر لتنبت وتُثمِر، فشجرة منها تلعب دور الأنثى، وشجرة أخرى تلعب دور الذَّكَر، كشجرة التّوت، وهناك شجر لا تُعرَف فيه الأنثى من الذَّكر؛ لأنّه مكمور توجد به الأُنثى والذَّكَر، والحقّ سبحانه وتعالى جعل اللُّقاحةَ خفيفةً للغاية؛ لتحملَها الرّيحُ من مكانٍ إلى مكانٍ. ونحن لم نَرَ كيف يتمّ لقاح شجرة الزّيتون، أو شجرة غيرها، لنأخذ من ذلك عبرةً على دِقّة صَنْعته سبحانه وتعالى، والمياه الّتي تسقط على جبلٍ ما، وبعد أيّام قليلةٍ تجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء، ومعنى هذا أنّ الجبل كانت به بذور تلك الحشائش الّتي انتظرتْ الماء لِتُنبت، وتعرّف العلماء على أنّ الذّكورة بعد أن تنضج في النّبات تنكشف وتنتظر الرّياح والجوّ المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكانٍ إلى مكانٍ، ولهذا نجد بعضاً من الجبال تصبح خضراء بعد هبوب الرّياح وسقوط المطر؛ ذلك أنّ حبوب اللّقاح انتقلت بالرّياح، وجاء المطر لتجد النّباتات فرصةً للنّمو، وقد نجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدْب؛ لأنّ الرّياحَ نقلتْ للنّصف الأخضر حبوبَ اللّقاح، ولم تنقل الحبوب للنّصف الثّاني من الجبل؛ ولذلك نجد الحقّ سبحانه وتعالى قد جعل للرّياح دورةً تنتقل بها من مكانٍ إلى مكان، وتدور فيها بالأماكن كلّها.

﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾: وقد تبيّن لنا أنّ المياه نفسها تنشأ من عمليّة تلقيح، وبه ذكورة وأنوثة السّالب والموجب بالنّسبة إلى الغيوم.

وفي هذا المعنى يقول الحقّ سبحانه وتعالى:

﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: أي: أنّكم لن تخزّنوا المياه؛ لأنّكم غير مأمونين عليه، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد هدانا إلى أن نخزّنَ المياه، فذلك من عطاء

الله ﷿، فلا يقولنّ قائل: لقد بنينا السّدود، بل قُلْ: هدانا الله ﷻ لِنبني السّدود بعد أن يسقطَ المطر ولو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزينَ المياه، وعلى هذا يكون ﷻ هو الّذي خزّنَ المياه حين أنزله من السّماء بعد أنْ هدانا لنبنيَ السّدود.

ونحن حين نريد كوباً من الماء المُقطّر، نذهب إلى الصّيدلانيّ لِيُسخِّن الماء في جهاز مُعيّن، ويُحوّله إلى بخار، ثمّ يُكثّف هذا البخار لِيصِيرَ ماء مُقطّراً، وكلّ ذلك يتمّ في الكون ونحن لا ندري به.

(الآية ٢٣) - ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٢٣﴾:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾: في ظاهر الأمر كان من المُمْكِن أن يقول المولى ﷻ: (إنّا نُميت ونُحيي)؛ لأنّه ﷻ يخاطبنا ونحن أحياء، ولكنّ الله ﷻ أراد بهذا القول أن يلفتنا إلى أن ننظر إلى الموت الأوّل، وهو العدم المَحْض الّذي أنشأنا منه، وهو ﷻ القائل: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: من الآية ٢٨]، والكلام في تفصيل الموت يجب أن نُفرّق فيه بين العدم المَحْض والعدم بعد وجود، فالعدم المَحْض هو ما كان قبل أن نُخلَق، ثمّ أوجدنا الله ﷻ لنكون أحياء، ثمّ يميتنا من بعد ذلك، ثمّ يبعثنا من بعد ذلك للحساب.

وهنا في هذه الآية الّتي نفسِّرها يكون الكلام عن الموت الّذي يحدث بعد أن يهبَنا اللهُ ﷻ الحياة، ثمّ نقضي ما كتبه لنا من أجلٍ.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: وهذا القول يعني أنّ هناك تركة كبيرة، وهي هذا الكون

الّذي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليستخلفنا فيه، ونحن لم نُضِفْ شيئاً لهذا الكون الّذي خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنّنا إذا نظرنا إلى كمّيّة المياه أو الغذاء الّتي في الكون، ومقوّمات الحياة كُلّها لَمَا وجدنا شيئاً يزيد أو ينقص، فالماء نشربه لِيروينا، ثمّ يخرج عَرقاً وبولاً، ومن بعد الموت يتحلّل الجسم ليتبخّرَ منه الماء، وهذا يجري على الكائنات كلّها.

وحين يتناول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية أَمْر الموت والحياة وعودة الكون في النّهاية إلى مُنْشئِه جَلَّ جَلَالُهُ، فهو يُحدّثنا عن أمرين يعتوران حياة كلّ موجود؛ هما الحياة والموت، وكلاهما يجري على الكائنات كُلِّها، فكُلّ شيء له مدّة يَحْياها، وأجل يقضيه، ولكنّنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعي ذلك، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائل: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، فكُلّ شيءٍ يُطلَق عليه (شيء) مصيره إلى هلاك، ومعنى ذلك أنّه كان حيّاً، ودليلنا على أنّه كان حيّاً هو قول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٢]، وهكذا نعلم أنّ كلّ ما له مهمّة في هذه الحياة له حياة تناسبه، وفَوْر أن تنتهي المهمّة يهلك ويموت، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرث كلّ شيء بعد أن يهلك كلّ مَنْ له حياة، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائل: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم]، وهو بذلك يرث التّارك والمتروك، وهو الخالق لكلّ شيء، ويختلف ميراث الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن ميراث الخَلْق؛ بأنّ المخلوق حين يرث آخر فهو يُودِعه التّراب أوّلاً، ثمّ يرث ما ترك، أمّا الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو يرث الاثنين معاً، المخلوق وما ترك، ولذلك نحن نرى مَنْ يعزّ عليهم ميّت، وقد يُمسِكون بالخشبة الّتي تحمل الجثّة، ويرفضون من فَرْط المحبّة أن تخرج من منزله، ولكن لو تركناه لهم لمدّة أسبوع ورمّت الجثّة،

فإنّهم سيتوسّلون لِمَنْ يحمل الجثث أن يحملَه لِيُوارِيه التّراب، ثمّ يبدؤون في مناقشة ما يرثونه من الفقيد، وهم بذلك يَرِثون المتروك بعد أن أودعوا التّارك للتّراب.

(الآية ٢٤) - ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾: المُستقدم: هو مَنْ تقدّم بالحياة والموت، وهم مَنْ قبلنا من بشرٍ وأُمَم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: المُسْتأخِر: هو مَنْ سيأتي من بعدنا.

وسبحانه يعلَمُنَا بحكم أنّه علم من قَبْل كلّ مستأخر؛ أي: أنّه عَلِم بنا من قبل أنْ نُوجد، ويعلم بنا من بَعْد أن نرحلَ، فعِلْمه كاملٌ وأزليّ، وفائدة هذا العلم أنّه سيترتّب عليه الجزاء، فنحن حين أخذنا الحياة والرّزق لم نُفلت بهما بعيداً، بل نجد الله ﷻ قد عَلم أزلاً بما فعل كلٌّ مِنّا.

وهناك مَنْ يقول: إنّ هناك معنًى آخر، بأنّ الحقّ ﷻ يكتب مَنْ يُسرع إلى الصّلاة ويتقدّم إليها فَوْر أن يسمع النّداء لها، ويعلم مَنْ يتأخّر عن القيام بأداء الصّلاة، وما يتعلّق بهذه الأحكام، ونحن نأخذ الأمر بشكله العامّ، وهو المعنى الأوّل الّذي ذكرناه من أنّ المولى ﷻ يعلم المستأخرين الّذين سيأتون بعدنا، والمستقدمين الّذين أتوا من قبلنا، ولا تخفى عليه خافية في السّموات ولا في الأرض، ومن مقتضى هذا العلم أنّه يُحاسب النّاس على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، قال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ

﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء].

وقال بعضهم: قد يكون المعنى هو المُستقدمين إلى الجهاد في سبيل الله أو المتأخّرين عن ذلك. فلها عدّة معانٍ بالتّفسير.

(الآية ٢٥) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ﴾: أي: أنّ المُتولّي تربيتك يا محمّد لن يترك مَنْ خاصموك وعاندوك وأهانوك وآذوْكَ من غير عقاب.

وكلمة: ﴿يَحْشُرُهُمْ ۚ﴾ تكفي كدليلٍ على أنّ الله ﷻ يقفُ لهم بالمرصاد، فهم قد أنكروا البعث، ولم يجرؤ أحدٌ منهم أن يُنكِر الموت، وإذا كان الحقّ ﷻ قد سبق وعبَّر عن البعث بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون]، فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لِمَا بعد الموت، وكأنّهم يشكُّون في أنّه قادم، وجاء لهم المولى ﷻ بخبر الموت كأمرٍ حتميّ، وسبقتْه ﴿هُوَ﴾ لتؤكّد أنّه سوف يحدث، فالحشر منسوبٌ إلى الله ﷻ، وهو قادرٌ عليه، كما قدر على الإحياء من عَدَم، فلا وَجْهَ للشّكّ أو الإنكار.

(الآية ٢٦) - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾: هنا يتكلّم المولى ﷻ عن خَلْق الإنسان بعد قضيّة الموت والبعث، قال ﷻ: ﴿۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف].

﴿مِن صَلْصَالٍ﴾: عندما خلق المولى ﷻ الإنسانَ خلقه من الصَّلصال: وهو الطّين اليابس.

وجاء ﷻ بخبر الخَلْق في هذه السّورة الّتي تضمّنت خبر مَدِّ الأرض، ومَجِيء الرّياح، وكيفيّة إنزال الماء من السّماء، وكيف قَدَّر في الأرض الرّزق، وجعل فيها رواسي، وجعل كُلّ شيءٍ موزوناً، وقد استهلَّ ﷻ هذه السّورة بقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: من الآية ١]؛ أي: أنّه افتتح السّورة بالكلام عن حراسة القِيم للحركة الإنسانيّة، ثمّ تكلّم عن المادّة الّتي منها الحياة، وبذلك شمل الحديثُ الكلام عن المُقوِّمِ الأساسيّ للقيم وهو القرآن الكريم، والكلام عن مُقوِّمِ المادّة، وكان ذلك أمراً طبيعيّاً، فالله ﷻ جاء بالقيم من أجل صيانة هذا الإنسان، وعندما خَلَق الله ﷻ الإنسان كخليفةٍ له في الأرض، وضع له مُقوِّمات مادّة ومُقوّمات قِيَم، وجاء بالحديث عن مُقوِّمات القِيَم أوّلاً، وبعد ذلك تحدّث عن المادّة، فهو يتحدّث بأنّه خلق الإنسان من صلصالٍ من حمأٍ مسنون، وهناك كثيرٌ من الآيات في القرآن الكريم الّتي يتحدّث فيها المولى ﷻ بأنّه خلقنا من تراب، وأنّه خلقنا من ماء، وأنّه خلقنا من صلصال، ومن حمأٍ مسنون، فهذه مراحل لخلق الإنسان؛ لأنّ الماء إذا أضفته إلى التّراب يكون طيناً، وإذا تركت الطّين فترةً يصبح صلصالاً وبعد ذلك حمأً مسنوناً، فذلك كلّه حديثٌ عن مراحل الخَلْق، وهو ﷻ أعلم بمَنْ خلق، كما خلق السّموات والأرض، ولم يُشهِد الحقّ ﷻ أحداً من الخلق كيف خلق المخلوقات، قال ﷻ: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف]، ومن رحمته ﷻ أنّه ترك في مُحسَّات الحياة ومادّيّتها ما يُثبِت صِدْقه في غيبيّاته، فإذا قال مرّةً: إنّه خلق كلّ شيءٍ من الماء، فهو صادقٌ فيما قال؛ لأنّ الماء يُكوِّن أغلبَ الجسد البشريّ، وإذا أوضح أنّه

خلق الإنسان من طين، فالتّراب إذا اختلط بالماء صار طيناً، وإذا مرّ على الطّين وقتٌ صار صلصالاً، وإذا قال ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر]، كُلُّ هذا من الأمور الغيبيّة الّتي يشرحها لنا نقضُها في الواقع المادّيّ الملموس، فحين يحدث الموت -وهو نَقْض الحياة- نجد الرّوح هي أوّل ما يخرج من الجسم؛ وكانت هي آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق، ومن بعد ذلك تبدأ الحيويّة في الرّحيل عن الجثمان، فيتحوّل الجثمان إلى ما يشبه الصَّلْصال، ثمّ يتبخّر الماء من الجثمان؛ ليصير من بعد ذلك تراباً، وهكذا نشهد في الموت نقض الحياة، وتتبيّن لنا مراحل الخَلْق وهي معكوسة، فالماء أوّلاً ثمّ التّراب ثمّ الطّين ثمّ الصّلصال الّذي يُشبه الحمأ المسنون ثمّ نَفْخ الرّوح، وقد صدق الحقّ ﷻ حين أوضح لنا في النّقيض المادّيّ ما أبلغنا عنه في العالم الغيبيّ، وعلى ذلك أيضاً نجد أنّ الّذين يضعون التّكهّنات بأنّ الشّمس خُلِقَتْ قبل الأرض، وكانت الأرض جزءاً من الشّمس ثمّ انفصلت عنها، على هؤلاء أن يعلموا أنّ ما يقولونه هو أمرٌ لم يشاهدوه، وهي أمورٌ لا يمكن أن يدرسها أحدٌ في معملٍ تجريبيٍّ؛ أي: لا تخضع للعلم التّجريبيّ، وقد قال القرآن الكريم عن أهل هذا اللّغو: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف]، وهم قد أعانوا على تأكيد إعجازيّة القرآن الكريم الّذي أسماهُم: ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾؛ لأنّهم يغوون النّاس عن الحقّ إلى الباطل.

(الآية ٢٧) - ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾:

﴿ٱلسَّمُومِ﴾: نعلم أنّ كلمة: ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ هي اللّهب الّذي لا دُخانَ له،

ويُسمّونه: ﴿ٱلسَّمُومِ﴾؛ لأنّه يتلصّص في الدّخول إلى مسَامِّ الإنسان.

وهكذا نرى أنّ للعنصر تأثيراً في مُقوِّمات حياة الكائنات، فالمخلوق من طين له صفات الطّينيّة، والمخلوق من نارٍ له صفات النّاريّة؛ ولذلك كان قانون الجنّ أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنس، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: من الآية ٢٧]، وهكذا نعلم أنّ قانون خَلْق الجنّ من عنصر النّار الّتي لا لهبَ لها يوضّح لنا أنّ له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان، ذلك أنّ مهمّته في الحياة تختلف عن مهمّة الإنسان، لكنّها لا تجعل له خيريّةً أو أفضليّة؛ لأنّ المهامّ حين تتعدّد في الأشياء تمنع المقارنة بين الكائنات، والمَثلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده عِلْمٌ بالكتاب على عفريت الجنّ، حين سأل سليمان عليه السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النّمل]، قال عفريتٌ من الجنّ: إنّه قادرٌ على أن يأتي بالعرش قبل أن يقومَ سليمان من مقَامه، ولكن مَنْ عنده عِلْمٌ بالكتاب قال: إنّه قادرٌ على أنْ يأتيَ بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ طَرْف سليمان عليه السلام، وهكذا غلب مَنْ عنده علمٌ بالكتاب قدرة عفريت الجنّ، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم هذا: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النّمل].

(الآية ٢٨) - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾:

عرفنا في مواقع متفرّقة من التّفسير كيف نفهم هذه الآية، ونعلم أنّ البشر

في زماننا حين يريدون صُنْع تمثالٍ ما، فَهُم يَخْلِطون التّراب بالماء ليصير طيناً، ثمّ يتركونه إلى أنْ يختمرَ ويصيرَ كالصَّلْصَال، ومن بعد ذلك يُشكِّل المَثَّالُ ملامح مَنْ يُريد أن يصنَع له تمثالاً، والتّماثيل تكون على هيئةٍ واحدةٍ، ولا قدرةَ لها، عَكْس الإنسان المخلوق بيد الله عَزَّ وَجَلَّ، الّذي يملك بفعل النّفْخ فيه من روح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماَ لَا يملكه أيُّ كائن صنَعَتْه مهارة الإنسان؛ ذلك أنّ إعجازَ وطلاقةَ قدرةِ الخالق جَلَّ جَلَالُهُ لا يمكن أن تستوي مع قدرة المخلوق المحدودة، وهناك حديثٌ يقول فيه نبيّنا الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»(١)، واختلف العلماء في مرجع الضّمير في هذا الحديث، أيعود إلى صورة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ أم يعود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؟ فمن العلماء من قال: إنّ الضّمير يعود إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بمعنى أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يخلقه طفلاً ثمّ كبر، بل خلقه على الصّورة النّاضجة، وتلفَّت آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فوجد نفسه على تلك الصّورة النّاضجة، وأنّه لم يكُنْ موجوداً من قبل ذلك بساعة، لذلك تلفَّت إلى المُوجِد له، والّذين قالوا: إنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الإنسان على صورته، وأنّ الضّمير يعود إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ؛ فذلك لأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد جعل الإنسان خليفةً له في الأرض، بهذا المعنى وليس بمعنى صورته وشكله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أعطاه من قدرته قدرةً، ومن عِلْمه علماً، ومن حكمته حكمة، حتّى لا يذهب الخيال إلى معنى آخر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، لكن هو الّذي أعطى الأخلاق، ولم يبقَ إلّا الإيمان بالخالق جَلَّ جَلَالُهُ.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب النّهي عن ضرب الوجه، الحديث رقم (٢٦١٢).

(الآية ٢٩) - ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: التّسوية: تعني جَعْل الشّيء صالحاً للمهمّة الّتي تُرَاد له. وشاء سبحانه وتعالى أن يُسوِّيَ الإنسان في صورةٍ تسمح لنفخ الرّوح فيه.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: والنّفخ من روح الله سبحانه وتعالى لا يعني أنّ النّفخ قد تمّ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فَمِ آدم عليه السلام، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الرّوح في جميع أجزاء الجسد.

وقد اختلف العلماء في تعريف الرّوح، وأرى أنّه من الأسلم عدم الخوض في ذلك الأمر؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى هو القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾: يعني أنّ عمليّة السّجود قد حدثت بصورةٍ مباشرة وحاسمة وسريعة، وكان سجودهم -عليهم السّلام- هو طاعةٌ للآمر الأعلى جل جلاله، لا طاعة لآدم عليه السلام.

(الآية ٣٠) - ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

وقد سجدوا جميعاً في حركةٍ واحدة؛ ذلك أنّه لا اختيارَ لهم في تنفيذ ما يُؤمرون به، وهم هنا سجدوا لأمر الآمر، وهو سجود تحيّة لآدم عليه السلام، فمن بَعْد أن خلق اللهُ عز وجل آدمَ عليه السلام جاء تكريم الحقّ سبحانه وتعالى له بقوله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [طه: من الآية ١١٦]، وسجدت الملائكة الّتي كلّفها الله سبحانه وتعالى برعاية وتدبير هذا المخلوق الجديد، وهم المُدبِّرات أمراً والحَفَظة، ومَنْ لهم علاقة بهذا

المخلوق، وقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، يعني الملائكة الأعلى من البشر، ذلك أنّ هناك ملائكةً أعلى منهم؛ وهم الملائكة المتفرِّغون للتّسبيح فقط.

(الآية ٣١) - ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾:

وهكذا جاء الحديث هنا عن إبليس بالاستثناء وبالعقاب الّذي نزل عليه، فكأنّ الأمرَ قد شَمله، وقد أخذتْ هذه المسألة جدلاً طويلاً بين العلماء، وهناك نصٌّ صريحٌ يقول فيه الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: من الآية ٥٠]، وهكذا حسم الحقّ سبحانه وتعالى الأمر بأنّ إبليس ليس من الملائكة -عليهم السّلام-، بل هو من الجنّ، والجنّ جنسٌ مختارٌ كالإنس، يمكن أن يُطيع، ويمكن أن يَعصِي، وقد كان إبليس من الجنّ الطّائع وكان مع الملائكة -عليهم السّلام- عندما صدر الأمر فرفض، وعندما يصدر الأمر للأعلى - والملائكة أعلى من الجنّ- فأمرٌ طبيعيٌّ أن يشمل الأمر الأدنى، وهو رَفَضَ السّجود وقد كان معهم وليس من جنسهم، فهنا الّذي يقول: إنّ إبليس من الملائكة مخطئ؛ لأنّه ورد أنّه من الجنّ بالنّصّ الصّريح في سورة الكهف، وقد رفض السّجود؛ لأنّ له اختيارٌ بينما الملائكة ليس لها اختيار.

ونجد الحقّ سبحانه وتعالى وهو يعرض هذه المسألة، يقول مرّةً: ﴿أَبَىٰ﴾، ومرّةً ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ [ص: من الآية ٧٤]، ومرّةً يجمع بين الإباء والاستكبار: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: من الآية ٣٤]، والإباء يعني أنّه يرفض أن ينفّذ الأمر، والاستكبار هو التّأبِّي بالكيفيّة، وهنا كانت العقوبة تعليلاً لعمليّة الإباء والاستكبار، وردّ الحكم على

الله ﷻ بقوله: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [الحجر: من الآية ٣٣]، وقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: من الآية ٧٦].

(الآية ٣٢) - ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾:

﴿مَا لَكَ﴾: تُقال في الشّيء العجيب، كيف وقع منك هذا الأمر؟ كيف اختار إبليس المعصية والتّكبّر والإباء على الطّاعة؟ والمتكلّم هنا هو الله ﷻ، وهو الّذي يعلم أنّه خلق إبليس بخاصّيّة الاختيار، فله أن يطيعَ، وله أنْ يعصيَ، وهو سبحانه هنا يُوضِح ما علمه أزلاً عن إبليس، وشاء ﷻ إبراز هذا ليكون حجّة على إبليس يوم القيامة.

(الآية ٣٣) - ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾:

هكذا أفصح إبليس عمّا يُكِنّه من فَهْمٍ خاطئ لطبيعة العناصر، فقد توهَّم أنّ الطّينَ والصّلصال أقلُّ مرتبةً من النّار الّتي خلقه الله ﷻ منها، وامتناع إبليس عن السّجود امتناعٌ مُعلَّلٌ، وكأنّ إبليس قد فَهِم أنّ عنصر المخلوقيّة هو الّذي يعطي التّمايز، وتجاهل أنّ الأمر هو إرادة الله ﷻ الّذي يُرتِّب المراتب بحكمته، وليس على هَوى أحدٍ من المخلوقات، ثمّ مَنْ قال: إنّ النّارَ أفضلُ من الطّين؟ ونحن نعلم أنّه لا يُقال في شيءٍ إنّه أفضل من الآخر إلّا إذا استوتْ المصلحة فيهما، والنّار لها جهة استخدام، والطّين له استخدامٌ مختلفٌ، وأيٌّ منهما له مهمّة تختلف عن مهمّة الآخر، ومن توجيه الله ﷻ في فضائل الخَلْق أنّ مَنْ يطلي الأشياء بالذّهب لا يختلف عنده ﷻ عن الّذي يعجن الطّين

ليصنعَ منه الفخّار، فلا يفضلُ أحدهما الآخرَ إلّا بإتقان مهمّته.

وهكذا أفصح إبليس أنّ الّذي زَيَّن له عدم الامتثال لأمر السّجود هو قناعته بأنّ هناك عنصراً أفضل من عنصر.

ويأتي الأمر بالعقاب من الله ﷻ فيقول ﷻ:

(الآية ٣٤) - ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾:

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾: وهكذا صدر الأمر بطرْدِ إبليس من حضرة الله ﷻ بالملأ الأعلى، وصدر العقاب بأنّه مطرودٌ من كلّ خَيْر.

﴿رَجِيمٞ﴾: أَصْل المسألة أنّها الرَّجْم بالحجارة، وقد حدث ذلك لردِّه أمر الله ﷻ واستكباره، ولقناعته أنّ النّار الّتي خُلِق منها أفضلُ من الطّين الّذي خُلِق منه آدم ﷺ، ولم يقبل أن يساوى بآدم ﷺ.

(الآية ٣٥) - ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾:

بيّن ﷻ أنّه طرده من رحمته، وفي هذا القول ما يؤكّد أنّ الجنّ أيضاً يموتون، ولهم آجالٌ مثلنا، وفي هذا الحكم بالطّرد تأكيدٌ على أنّه ﷻ لن يُوفِّقه إلى توبة، ولا يعفو عنه في النّهاية، ولكنّ إبليس يحاول الالتفاف، فيأتي ما جاء على لسانه في الآية الآتية:

(الآية ٣٦) - ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾:

وكأنّ إبليس بهذا القول أراد أن يُفلِتَ من الموت، ولكن مثل هذا المَكْر لا يجوز على الله ﷻ أو معه، فإذا كان إبليس قد أراد أنْ يظلَّ في الدّنيا إلى يوم بَعْث البشر، فذلك دليلٌ على أمنيته بالهروب من الموت.

ويقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ردّاً على دعاء إبليس:

(الآية ٣٧) - ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٣٧﴾:

ولحظةَ أنْ يسمعَ إبليسُ ذلك يظنّ أنّه قد أفلتَ من الموت؛ إذ لا مَوْتَ بعد البعث، ويتوهّم أنّ دعوته قد أُجيبت، وكأنّه قد أفلتَ بغروره الّذي ظَنَّ به أن يتّسع له الوقت ليأخذ الثّأر من بني آدم، فعدم سجوده لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الّذي وضعه في هذا الموقف العصيب، فإبليس بهذا الاستكبار ضلّ وكفر وجحد فخرج من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(الآية ٣٨) - ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٣٨﴾:

أي: أنّ إبليس سيذوق الموت أيضاً؛ لأنّ المخلوقات كلّها ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة، مصداقاً لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزّمر: من الآية ٦٨]، وكذلك قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦﴾ [الرّحمن]، وهكذا لم يُفلتْ إبليس من الموت.

وقد يقول قائل: كيف كلّمه الله عَزَّ وَجَلَّ؟ نقول: لم يُكلِّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تشريفاً أو تكريماً، بل غلَّظ له العقاب، كما أنّ للحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ملائكة يمكنهم أن يُبلِّغوا ما شاء لمَنْ شاء.

(الآية ٣٩) - ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩﴾:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: وقول الشّيطان هنا هو إقرارٌ بالرّبوبيّة، ولكن هذا الإقرار متبوعٌ بعد الاعتراف بأنّه قد سبّب لنفسه الطّرد واللّعنة، فقد قال: ﴿بِمَآ

﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾، والحقّ ﷻ لم يُغوِه، بل أعطاه الاختيار الّذي كان له به أن يؤمن ويطيع، أو يعصي فيُعاقب، فسبحانه قد مَكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل، فخالف إبليسُ أمرَ الله ﷻ وعصاه.

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وفي هذا إيضاح أن كُلّ وسوسة للشّيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة، وفي الأشياء الّتي تُدمّر العافية، كمَنْ يشرب الخمر، أو يتناول المخدّرات، أو يلعب القمار، أو يتّجه إلى كلّ ما يُغضب الله تعالى بالانحراف والفجور والفسوق، فمن يَأْمن على نفسه من الانحراف يبعد عن طريق الشّيطان، ومنْ يحاول أن يضبط موازينه الماليّة بالاستقامة يبعد عن الانحراف.

وتزيين الشّيطان لن يكون في الأمور الحلال؛ لأنّ الضّرورات لم يُحرّمها الله ﷻ، بل يكون التّزيين دائماً في غير الضّرورات، فالاستقامة عمليّة اقتصاديّة، تُوفّر على الإنسان مشقّة التّكلفة العالية من ألوان الانحراف، ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على الاستقامة، ويحاولون أَخْذهم إلى طريق الانحراف؛ لأنّ كلّ منحرفٍ إنّما يلوم نفسه متسائلاً: لماذا أخيب وحدي ولا يخيب معي مثل هذا المستقيم؟ تماماً مثل إبليس.

﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾: وكذلك كان إبليس في حُمْق ردّه على الله ﷻ، ولكنّه ينتبه إلى أنّه لن يستطيع أن يدخل في معركةٍ مع الله ﷻ، ولكنّه أراد أن يدخل في معركةٍ مع أبناء آدم عليه السلام، لقد حدّد إبليس موقعه من الصّراع، فقال: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: من الآية ٣٦]، وهذا يعني أنّ مجالَ معركته مع الخَلْق لا مع الخالق؛ لذلك قال: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

وكلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تفيد الإحاطةَ للأفراد كلّهم، وهذا فوق قدرته بعد أنْ عرف مقَامه من نفسه ومن ربّه، فقال ما جاء به الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الآتية:

(الآية ٤٠) - ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾:

فهؤلاء العباد الّذين أخلصوا في طاعتهم لك يا ربّ، لن أقدر عليهم؛ لأنّك أخذتهم من طريق الغواية وأحسنوا الإيمان، وقد وصلوا إلى مرتبة من الإخلاص التّعبُّديّ، ويقول أهل المعرفة: (أنت تصل بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ إلى كرامة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)، ولو أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون جميع خَلْقه مهديّين ما استطاع أحدٌ أنْ يُضلّهم ولا حتّى إبليس، ولكن عِزَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن خَلْقه هي الّتي أفسحت المجالَ للإغواء، ولذلك نجد إبليس يُقِرّ بعجزه عن غواية مَنْ أخلصوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العبادة.

ونجد ردّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إبليس واضحاً لا لَبْس فيه، ولا قبول لِمَا قد يظنُّه إبليس مجاملةً منه لله عَزَّ وَجَلَّ، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

(الآية ٤١) - ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾:

وهكذا أوضح الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنّ صراطه المستقيم هو الّذي يقود العباد إلى الطّاعة، فليس في الأمر تفضُّل من إبليس الّذي سبق له أنْ حدَّد المواقع والاتّجاهات الّتي سيأتي منها لغواية البشر، حيث قال المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما جاء على لسان إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف]، في ذلك القول حدَّد إبليس جهات الغواية الّتي يأتي منها وترك (فَوْق) و(تَحْت)، لذلك نقول: إنّ العبد إذا استحضر دائماً عُلُوّ عِزّة الرّبوبيّة، وذُلّ العبوديّة، فالشّيطان لا يدخل له أبداً.

(الآية ٤٢) - ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝٤٢﴾:

وهكذا أصدر الحقّ سبحانه وتعالى حُكْمه بألَّا يكون لإبليس سلطانٌ على مَنْ أخلص لله جل جلاله العبادة، وأمر إبليس ألّا يتعرّض لهم، فسبحانه هو الّذي يَصُونهم منه، إلّا مَنْ ضَلَّ عن هدى الله سبحانه وتعالى، وهم مَنْ يستطيع إبليس غوايتهم. وهكذا نجد أنّ: ﴿الْغَاوِينَ﴾ هي ضدّ: ﴿عِبَادِي﴾، وهم الّذين اصطفاهم الله عز وجل من الوقوع تحت سلطان الشّيطان؛ لأنّهم أخلصوا وخَلَّصوا أنفسهم لله سبحانه وتعالى، وسنجد إبليس وهو ينطق يوم القيامة أمام الغاوين: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۗ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، ومن نِعَم الله عز وجل علينا أن أخبرنا بذلك كلّه في الدّنيا، ولسوف يُقِرّ الشّيطان بهذا كلّه في اليوم الآخر؛ ذلك أنّه لم يملك سلطاناً يقهرنا به في الدّنيا، بل مجرّد إشارة ونَزْغ، ولا يملك سلطانَ إقناع ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا.

(الآية ٤٣) - ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾:

لأنّ المصير لهؤلاء هو جهنّم، فعلى العبد أن يستحضرَ هذا الجزاء وقتَ الاختيار للفعل، كي لا يرتكب حماقةَ الفعل الّذي يُزيّنه له الشّيطان، أو تُلِحّ عليه به النّفس الأمّارة بالسّوء، ولو أنّ المُسرِف على نفسه استحضر العقوبة لحظةَ ارتكاب المعصية لَمَا أقدم عليها، ولكنّ المُسْرف على نفسه لا يقرِن المعصية بالعقوبة؛ لأنّه يغفل النّتائج عن المقدّمات، هَبْ أنّ إنساناً قد استولتْ

عليه شراسة الغريزة الجنسيّة، وعرف النّاس عنه ذلك، وأعدّوا له مَا يشاء من رغبات، وسهّلوا له المكان المناسب للمعصية، وقالوا: هذا كلّه لك، شَرْط أن تعرف أيضاً ماذا ينتظرك، وأناروا له من بعد ذلك قَبْواً في المنزل، وقالوا: إنّك ستسجن فيه لفترةٍ طويلة بعد أن تفرغ من لذّاتك، ماذا سيصنع هذا الإنسان؟ لا بُدّ أنّه سيرفض الإقدام على المعصية الّتي تقوده إلى السّجن، وهكذا نعلم أنّ مَنْ يرتكب المعاصي إنّما يستبطِئ العقوبة، والذّكيّ حقّاً هو مَنْ يعلم أنّ مَن مات فقد قَامتْ قِيَامَتُه، ولا أحدَ يعلم متى يموت.

ويُبيِّن المولى ﷻ من بعد ذلك مراتبَ الجحيم، فيقول:

(الآية ٤٤) - ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾:

بيّن المولى ﷻ أنّ جهنمَ ستكون مَوْعِد هؤلاء الغَاوين، ومعهم إبليس الّذي أَبَى واستكبر، وجهنّم لها سبعة أبواب، بينما الجنّة لها ثمانية أبواب، من الّذي أعلمنا بذلك؟ إنّه النّبيّ ﷺ، ولماذا يرد أنّ جهنّم لها سبعة أبواب بينما الجنّة ثمانية؟ الفارق أنّ رحمت الله ﷻ سبقت غضبه، فأنت تدخل الجنّة برحمة الله ﷻ، أمّا الّذي يدخل جهنّم يدخل بعدل الله ﷻ، لذلك يقول النّبيّ ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، **قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ:** «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١)، ولكُلّ بابٍ من أبواب جهنّم جماعة تدخل منه ربطَتْ بينهم في الدّنيا معصيةٌ ما، وهكذا يتحقّق قول الحقّ ﷻ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزّخرف]، وفي جهنّم أماكن

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المرضى، باب تمنّي المريض الموت، الحديث رقم (٥٦٧٣).

تأويهم، فقِسْمٌ يذهب إلى اللّظى، وآخر إلى الحُطَمة، وثالثٌ إلى سَقَر، ورابع إلى السَّعير، وخامس إلى الهاوية... وكلّ جُزْءٍ له قِسْمٌ مُعيَّن به، وفي كلّ قسم دَرَكَات؛ لأنّ الجنّة درجات، والنّار دركات تنزل إلى أسفل.

ويأتي الحقّ سُبحانه وتعالى بالمقابل؛ لأنّ ذِكْر المقابل -كما نعلم- يُعطي الكافر حَسْرةً، ويعطي المؤمن بشارةً، لذلك يقول الله سُبحانه وتعالى بعد ذلك:

(الآية ٤٥) - ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: المُتّقِي هو الّذي يحولُ بين ما يُحبّ وما يكره بطاعة الله تعالى، وتتعدّى التّقوى إلى متقابلاتٍ، فنجد الحقّ سُبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٢]، وقال سُبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤]؛ أي: أن تجعلَ بينك وبين صفات الجلال حاجزاً؛ أي: بينك وبين عذاب الله عزّ وجلّ حاجزاً، وقد بيّن سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه التّقوى بقوله: "التّقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتّنزيل، والرّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل"، وهنا يقول الحقّ سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾، وهم الّذين لم يرتكبوا المعاصي بعد أن آمنوا بالله سُبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم واتّبعوا منهجه، وإنْ كانت المعصية قد غلبتْ بعضهم، وتابوا عنها واستغفروا الله تعالى، فقد يغفر الله جلّ جلاله لهم، وقد يُبدّل سيئاتِهم حسناتٍ.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾: ومَنْ يدخل الجنّة سيجد فيها العيون، والمقصود بها الأنهار، يقول المولى سُبحانه وتعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ [محمّد: من الآية ١٥]، ولعلّ هناك عيوناً ومنابعَ لا يعلمها إلّا الله سُبحانه وتعالى.

(الآية ٤٦) - ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾:

وهنا يدعوهم الله سبحانه وتعالى إلى الدّخول إلى الجنّة في سلام الأمن والاطمئنان. ونحن نعلم أنّ سلامَ الدّنيا والاطمئنان فيها مُختلِفٌ عن سلام الجنّة، فسلامُ الدّنيا يعكّره خوف افتقاد النّعمة، أو أن يفوت الإنسانُ تلك النّعمة بالموت، ونعلم أنّ كلّ نعيمٍ في الدّنيا إلى زوال، أمّا نعيم الآخرة فهو نعيمٌ مقيمٌ.

(الآية ٤٧) - ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾:

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾: وهكذا يُخرِج الحقّ سبحانه وتعالى من صدورهم أيَّ حقد وعداوة، ويطهِّرهم من كلّ ما كان يكرهونه، ويحيا كلٌّ منهم مع أزواجٍ مُطهَّرة، ويجمعهم الحقّ بلا تنافس، ولا يشعر أيٌّ منهم بحسدٍ لغيره.

والغِلُّ كما نعلم هو الحقد الّذي يسكُن النّفوس، ونعلم أنّ بعض النّاس قد تختلف وُجهات نظرهم في الحياة، ولكنّهم على إيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَنَزَعۡنَا﴾: تدلّ على أنّ تغلغل العمليّات الحِقْديّة في النّفوس يكون عميقاً، وأنّ خَلْعها في اليوم الآخر يكون خَلْعاً من الجذور، وينظر المؤمن إلى المؤمن بنظرة الحبّ والسّلام والأمن والاطمئنان، ويجعلهم الحقّ سبحانه وتعالى إخواناً، فَرُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُّك، والحقّ سبحانه وتعالى يقول في موقعٍ آخر: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣].

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: كلّ ما يتعلّق بالجنّة نقول: إنّ المولى سبحانه وتعالى يمثّله لنا لتقريبه إلى عقولنا، وهي منزلة عالية، والسّرر المتقابلة؛ أي: في أرفع وأرقى

الدّرجات.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: يرون بعضهم بعضاً.

(الآية ٤٨) - ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾:

﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾: حياتُكَ في الآخرة –إنْ أصلحتَ عملك وكنت من المؤمنين– تختلف عن حياتك في الدّنيا، فأنت تعلم أنّك في الدّنيا تَحْيا مع أسباب الله ﷻ المَمْدودة لك، وتضرب في الأرض من أجل الرّزق، وتجتهد وتتعب من أجل أَنْ يهبكَ اللهُ ﷻ ما في الأسباب من عطاء، أمّا الآخرة فلا يمسّ الإنسان فيها نصبٌ ولا تعب، ولا يُخْرَج منها، ذلك أنّه قد نَال فيها الخلود.

(الآية ٤٩) - ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾:

﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾: والخطاب هنا لرسول الله ﷺ، والإنباء هو الإخبار بأمرٍ عظيمٍ له خطورته، ولا يقال: ﴿نَبِّئۡ﴾ في خبرٍ بسيط، وسبق أن قال الحقّ ﷻ عن هذا النّبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النّبأ]، وقال ﷻ أيضاً عن النّبأ: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾ [ص]، ونفهم من القول الكريم أنّه الإخبار بنبأ الآخرة ما سوف يحدثُ فيها، وهنا يأتي ﷻ بخبر غُفْرانه ورحمته الّذي يختصُّ به عباده المخلصين المُتّقِين الّذين يدخلون الجنّة، ويتمتّعون بخيْراتها خالدين فيها، وبعضهم قد يسأل سؤالاً: أليستْ المغفرة تقتضي ذَنْباً؟ نقول: إنّ الحقّ ﷻ خلقنا ويعلم أنّ للنّفس هواجسَ، ولا يمكن أنْ تسلمَ النّفسُ من بعض الأخطاء والذّنوب والوسوسة، بدليل أنّه ﷻ قد حَرَّم كثيراً من الأفعال على المسلم، حمايةً للفرد وللمجتمع أيضاً، ليعيش المجتمع في الاستقرار الآمن،

فقد حرَّم الحقّ ﷻ على المسلم السّرقة والزّنا وشُرْب الخمر.. وغيرها من المُوبِقات والخطايا والهواجس الّتي تقوده إلى الإفساد في الأرض، وما دام قد حرَّم ذلك كلّه فهذا يعني أنّها سوف تقع، ونزل المنهج الإلهيّ مُحرِّماً ومُجرِّماً لمن يفعل ذلك، كما يُلزم المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا.

وهنا يُوضِّح المولى ﷻ أنّه مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصيةً ثمّ يتوب عنها، عليه ألّا يُؤرِّق نفسه بتلك الغفلات، فسبحانه رؤوفٌ رحيم.

ونحن حين نقرأ اللّغة العربيّة الّتي قد شرَّف اللهُ ﷻ أهلَها بنزول القرآن الكريم بها، نجد أقسامَ الكلام إمّا شِعْراً أو نَثْراً، والشّعر له وَزْنٌ وقافية، وله نَغَمٌ وموسيقى، أمّا النّثر فليس له تلك الصِّفات، بل قد يكون مَسْجوعاً أو غَيْرَ مسجوعٍ، وإنْ تكلّمتَ بكلامٍ نثريٍّ وجِئْتَ في وسطه ببيتٍ من الشّعر، فالّذي يسمعك يُمكِنه أن يلحظ هذا الفارقَ بين الشّعر والنّثر، ولكنّ القرآن الكريم كلامُ ربٍّ قادر؛ لذلك أنت تجد هذه الآية الّتي نفسّرها الآن وتقرؤها وكأنّها بَيْتٌ من الشّعر، فهي موزونةٌ مُقفّاة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ووزنها من (بَحْر المُجْتثّ) ولكنّها تأتي وَسْط آيات من قبلها ومن بعدها فلا تشعر بالفارق، ولا تشعر أنّك انتقلتَ من نثرٍ إلى شعرٍ، ومن شعرٍ إلى نثرٍ، وكلام الله ﷻ أعلى من الشّعر ومن النّثر، وتضامن المعاني مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التّأثير المعجز، وتلك من أسرار عظمة القرآن الكريم.

(الآية ٥٠) - ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾:

يكتمل النّبأ بالمغفرة لِمَن آمنوا، والعذاب لِمَنْ كفروا وكانوا من أهل الغواية، ونلحظ أنّه ﷻ لم يُشدِّد في تأكيد العذاب؛ ذلك أنّ رحمته سبقتْ

غضبه، مصداقاً لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»(١)، ونحن نلحظ أنّ الآيتين السّابقتين يشرحهما قوْل الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٦﴾ [الرّعد: من الآية ٦]، ولذلك نرى أنّ الآيتين قد نبّهتا إلى مَقَامي الرّجاء والخوف، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما، وألّا يُؤجِّل العمل الصّالح وتكاليف الإيمان، وأن يستغفر من المعاصي؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعامل النّاس بالفضل لمن أخلص النّيّة وأحسن الطّويّة، لذلك جاء في الحديث: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»(٢).

بعد ذلك ينقلنا المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد الحديث عن صفات الجلال والجمال في الغفران والرّحمة والانتقام إلى مسألة حسّية واقعيّة تُوضّح تلك الصّفات كلّها، فيتكلّم عن سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(الآية ٥١) - ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٥١﴾:

كلمة ﴿ضَيْفِ﴾ تدلُّ على الإنسان الّذي يأتي لغيره لقِرَىً أو استئناس، ولطلب الأمن. وكان الكرماء من العرب من أهل السّماحة، لا تقتصر سماحتهم

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الرّقاق، باب الرّجاء مع الخوف، الحديث رقم (٦٤٦٩).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، الحديث رقم (٣١٩٤).

على مَنْ يطرقون بابهم، ولكنّهم يُعلِنون عن أنفسهم بالنّار ليراها مَنْ يسير في الطّريق ليهتدي إليهم، وكلّنا قرأنا ما قال حاتم الطّائيّ للعبد الّذي يخدمه:

أَوقِـد فَإِنَّ اللَّيلَ لَيلٌ قَـرُّ   وَالرِّيحَ يا موقِـدُ ريحٌ صِـرُّ
عَسَى يَرَى نَـارَكَ مَنْ يَمُـرُّ   إِنْ جَلَبـتَ ضَيفاً فَأَنتَ حُـرُّ

﴿ضَيۡفِ﴾: لفظٌ مُفْرد يُطلَق على المفرد والمُثنّى والجمع، إناثاً أو ذكوراً، فيُقال: جاءني ضيفٌ فأكرمته، ويقال: جاءني ضيفٌ فأكرمتها، ويقال: جاءني ضيفٌ فأكرمتهما، وجاءني ضيفٌ فأكرمتهم، وجاءني ضيفٌ فأكرمتهُنَّ؛ ذلك لأنّ كلمة: ﴿ضَيۡفِ﴾ قامت مقام المصدر، ولكن هناك من أهل العربيّة مَنْ يجمعون (ضيف) على (أضياف)، وعلى (ضيوف)، أو يجمعون (ضيف) على (ضِيفان)، ولننتبه إلى أنّ الضّيفَ إذا أُطلِق على جَمْعٍ فمعناه أنّ فرداً قد جاء ومعه غيره، وإذا جاءت جماعة، ثمّ تبعتْهَا جماعةٌ أخرى نقول: وجاءت ضيف أخرى، وهنا في الآية الّتي نفسّرها نعلم أنّهم ليسوا ضيفاً من الآية الّتي تليها، الّتي قال فيها الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٥٢) - ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾:

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾: ونلحظ أنّ كلمة: ﴿سَلَٰمٗا﴾ جاءت هنا بالنَّصبْ، ومعناها نُسلّم سلاماً، وتعني سلاماً متجدّداً، ولكنّه في آيةٍ أخرى يقول: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ [الذّاريات]، ونعلم أنّ القرآن الكريم يأتي بالقصّة عَبْر لقطات مُوزّعة بين الآيات، فإذا جمعْتَها رسمَتْ لك ملامح القصّة كاملة، ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى هنا لا يذكر أنّ إبراهيم عليه السلام قد

رَدَّ سلامهم، وأيضاً لم يذكر تقديمه للعجل المَشْويّ لهم؛ لأنّه ذكر ذلك في موقعٍ آخر من القرآن الكريم، فمِنْ تلك الآية نعلم أنّ إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السّلام، وجاء هذا السّلام مرفوعاً، والسّلام الّذي صدر من الملائكة -عليهم السّلام- لإبراهيم عليه السلام هو سلامٌ مُتجدّدٌ، بينما السّلام الّذي صدر منه جاء في صيغة جملة اسميّة مُثْبتة، ويدلُّ على الثّبوت، فرَدُّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة؛ لأنّه يُوضِّح أنّ أخلاق المنهج أنْ يردَّ المؤمنُ التّحيةَ بأحسنَ منها، لا أنْ يردّها فقط، فجاء رَدُّه يحمل سلاماً استمراريّاً، بينما سلامُهم كان سلاماً تجدّديّاً، والفرق بين سلام إبراهيم عليه السلام وسلام الملائكة -عليهم السّلام-: أنّ سلام الملائكة -عليهم السّلام- يتحدّد بمقتضى الحال، أمّا سلام إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرّسل جميعاً -عليهم السّلام-.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: وجاء في آيةٍ أخرى أنّه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: من الآية ٧٠]، وفي موقعٍ آخر من القرآن الكريم يقول: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ [الذّاريات: من الآية ٢٥]، فلماذا أوجسَ عليه السلام منهم خِيفةَ؟ ولماذا قال لهم: إنّهم قوم مُنْكَرون؟ ولماذا قال عليه السلام: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾؟ الجواب: لقد جاؤوا إليه من غير أن يتعرّف عليهم، وقدَّم لهم الطّعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ٧٠﴾ [هود]؛ ذلك أنّ إبراهيم عليه السلام يعلم أنّه إذا جاء ضَيْفٌ وقُدِّم إليه الطّعام، فإنّه يمدّ يديه ويأكل، فإذا رفض أن يأكل فعلَى المرء ألّا يتوقّع منه الخير، وأن ينتظر المكاره، لكن حين عَلِم عليه السلام أنّهم قد أُرسِلوا إلى قوم لوط عليه السلام، وطمأنوه بالخبر الطّيّب الّذي أرسلهم به الله عز وجل اطمأنّتْ نفسه.

(الآية ٥٣) - ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ٥٣﴾:

هكذا طمأنت الملائكة -عليهم السّلام- إبراهيم عليه السلام، وهَدَّأَتْ من رَوْعه، وأزالتْ مخاوفه، وقد حملوا له البشارة بأنّ الحقّ سبحانه وتعالى سيرزقه بغلامٍ سيصير إلى مرتبة أن يكون كثير العِلْم، ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقةٍ تحمل من الاندهاش الكثيرَ، فيقول ما ذكره الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٥٤) - ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: نعلم أنّ الحقّ سبحانه وتعالى يخلق الخَلْق على أحوالٍ مُتعدّدة، والله سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة، فإذا كان هناك عقمٌ أو لا يوجد أبٌ أو.. فهو سبحانه وتعالى القادر إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له: ﴿كُن﴾ فيكون، فسيّدنا إبراهيم عليه السلام استقبل الأمر بذهنيّة الدّنيا، ويتعجّب من بشارتهم وهو على هذه الدّرجة من الكِبَر، ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾، يعني أنّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ هنا جاءت بمعنى (مع)؛ أي: أنّه يعيش مع الكِبَر، ويرى أنّه من الصّعب أنْ يجتمعَ الكِبَر مع القدرة على الإنجاب، ونقول دائماً: إنّ كلمة: ﴿عَلَىٰٓ﴾ لها عطاءاتٌ واسعة في القرآن الكريم، فهي تُترَك مرّةً ويأتي الحقّ سبحانه وتعالى بغيرها لتؤدّي معنًى مُعيّناً، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: من الآية ٧١]، والصَّلْب إنّما يكون على جذوع النّخل، ولكنّ الحقّ سبحانه وتعالى جاء بـ: (في) بدلاً من: (على) ليدلَّ على أنّ الصَّلْبَ سيكون عنيفاً، بحيث تدخل الأيدي والأرجُل المَصْلوبة في جذوع النّخل، وهنا يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ أي:

أَتُبشِّرونني بالغلام العليم مع أنِّي كبيرٌ في العمر؟ والمفهوم أنّ الكِبَر والتّقدُّم في العمر لا يتأتَّى معه القدرة على الإنجاب، وهكذا تأتي: ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى: (مع)؛ أي: كيف تُبشِّرونني بالغلام مع أنِّي كبيرٌ في العمر؟ وقد قال قولته هذه مُؤمِناً بقدرة الله سبحانه وتعالى، فإبراهيم عليه السلام أيضاً هو الّذي أورد الحقّ سبحانه وتعالى قوْلاً له: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم]، وكأنّ الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب، ويأتي رَدُّ الملائكة على إبراهيم عليه السلام:

(الآية ٥٥) - ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥﴾:

﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: وكأنّ الملائكة -عليهم السّلام- تقول له: لسنا نحن الّذين صنعنا ذلك، ولكِنَّا نُبلِّغك ببشارةٍ شاءها الله سبحانه وتعالى لك، فلا تكُنْ من اليائسين.

والقصّة ذاتها تكرّرتْ من بعد إبراهيم عليه السلام مع زكريّا عليه السلام في إنجابه ليحيي عليه السلام، حين دعا زكريّا رَبّه أن يهبَه غلاماً: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ [مريم]، وجاءته البشارة بيحيي عليه السلام، وقد قال زكريّا عليه السلام لربّه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم]، وإن شئت أن تعرفَ سِرَّ عطاءات الأسلوب القرآنيّ فاقرأ قَوْل الحقّ سبحانه وتعالى ردّاً على زكريّا عليه السلام: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: من الآية ٩٠]، ولم يَقُلِ الحقّ سبحانه وتعالى: (أصلحناكما أنتما الاثنين)، وفي ذلك إشارةٌ علميّةٌ دقيقة، فقد أثبت العلم من بعد ذلك أنّ قدرة الرّجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر، ولكنّ قدرةَ المرأة مُحدّدة بعمر مُعيّن، ثمّ إذا تأمّلنا

قوله ﷻ: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ نجد أنّها تُثبِت طلاقةَ قدرة الله ﷻ فيما وَهَب، وفي إصلاح مَا فسد، فسبحانه لا يُعْوزه شيءٌ، وهو قادرٌ جَلَّ شأنه على الوَهْب، وقادرٌ على أن يُهيّئَ الأسباب ليتحقّقَ ما يَهبه.

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم ؏: ﴿بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: أنّهم ليسوا المسؤولين عن البشارة، بل عن صدق البشارة؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، ويأتي الحقّ ﷻ بما رَدَّ به إبراهيم ؏:

(الآية ٥٦) - ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾:

وهنا يعلن إبراهيم ؏ أنّه لم يقنط من رحمة ربّه ﻷ، ولكنّه التّعجّب من طلاقة القدرة الّتي تؤدّي إلى هذا الأمر العجيب، لا لذات وقوع الحَدث، ولكن لكيفيّة الوقوع، ففي كيفيّة الوقوع إعجابٌ فيه تأمّل، ذلك أنّ إبراهيم ؏ يعلم عِلْم اليقين طلاقة قدرة الله ﻷ، فقد سبق أن قال له: ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٠]، هو لم يشكّ بأنّه ﷻ يحيي الموتى، بل كان سؤاله عن الكيفيّة فقط.

ونجد أنّ القرآن الكريم بأسلوبه المعجز المبهر يأخذ لقطات من قصص الأنبياء -عليهم السّلام- في كلّ سورةٍ تأتي لقطةٌ معيّنةٌ، فإذا جُمعت هذه اللّقطات تتبيّن لك القصّة كاملة، وهنا في سورة الحجر نجد سؤالاً من سيّدنا إبراهيم ؏ للملائكة الّتي حملتْ له بُشْرى الإنجاب عن المُهمَّة الأساسيّة لمجيئهم، الّذي تسبَّب في أن يتوجَّس منهم خِيفةً، فقد نظر إليهم، وشعر أنّهم قد جاؤوا بأمرٍ آخر غير البشارةَ بالغلام؛ لأنّ البشارةَ يكفي فيها مَلَكٌ واحدٌ،

أمّا هؤلاء فهم كثيرون على تلك المُهِمّة، فيقول ﷻ هذا السّؤال الّذي سأله إبراهيم عليه السلام:

(الآية ٥٧) - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: أي: ما هو الأمر العظيم الّذي جِئْتم من أجله؛ لأنّ الخَطْب هو الحَدث الجَلل الّذي ينتاب الإنسان، وسُمِّي خَطْباً؛ لأنّه يشغل بال النّاس جميعاً فيتخاطبون به، وكلّما التقتْ جماعةٌ من البشر بجماعةٍ أخرى تحدّثوا في هذا الأمر، ولذلك سُمِّيتْ رغبة الزّواج بين رجلٍ وامرأةٍ وَتَقدُّمِه لأهلها طَلباً لِيَدها (خِطْبة)؛ لأنّه أمرٌ جلَلٌ ومهمٌّ.

وهنا قال إبراهيم عليه السلام للملائكة: ما خَطْبكم أيّها المُرْسلون؟ أي: لأيِّ أمرٍ جَلَلٍ أتيتُم؟ ويأتي الجواب من الملائكة -عليهم السّلام- في قول الحقّ ﷻ:

(الآية ٥٨) - ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

ونعلم أنّ كلمة: (القوم) مأخوذةٌ من القيام، وهُم القوم الّذين يقومون للأحداث.

وهنا أخبرتْ الملائكةُ -عليهم السّلام- إبراهيمَ عليه السلام أنّهم مُرْسَلون إلى قومٍ مُجرمين، أجرموا بحقّ أنفسهم وأجرموا بحقّ مجتمعهم من خلال الفاحشة الكبيرة الّتي كانوا يقومون بها، وأرهقوا لوطاً عليه السلام بالتّكذيب والمعاصي الّتي أدمنوها.

ولكنّ الحقّ ﷻ يستثني آل لوط عليه السلام من جريمة قوم لوط، فقد كانت أغلبيّة قوم لوط من الفاسدين، فيقول ﷻ:

(الآية ٥٩) - ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩﴾:

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾: وهذا استثناءٌ لآل لُوطٍ عليه السلام من المجرمين.

والمُجرِم: هو المُنقطِع عن الحقّ، والجريمة هي الانقطاع عن الحقّ لانتصار الباطل، غلب اسم القوم على الجماعة المُجْرمين، وهكذا كان الاستثناء من هؤلاء المجرمين.

ثمّ يأتي استثناءٌ جديد، حيث يقرّر الحقّ سبحانه وتعالى أنّ امرأة لوط سيشملها الإهلاك، فيقول سبحانه وتعالى:

(الآية ٦٠) - ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾:

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾: ونعلم في اللّغة أنّه إذا توالتْ استثناءات على مُستثنى منه، نأخذ المُسْتثنى الأوّل من المُسْتثنى منه، والمستثنى الثّاني نأخذه من المستثنى الأوّل، والمستثنى الثّالث نأخذه من المستثنى الثّاني.

هنا يتبيّن أنّ امرأة لوط ستبقى مع الغابرين، فاستثناها من النّجاة؛ لأنّها كانت مع هؤلاء القوم، وكانت تدلّهم وتسايرهم على أفعالهم.

﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: الغابر: هنا بمعنى داخل، أو هو من أسماء الأضداد، وهي لن تنجو؛ لأنّ مَنْ تقرّرتْ نجاتهم سيتركون القرية، وسيهلك مَنْ يبقى فيها، وامرأة لُوط من الباقين في العذاب، والاستثناء من النّفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثناء امرأة لوط من النّاجين يلحقها بالهالكين.

وتنتقل السّورة من إبراهيم عليه السلام إلى لوطٍ عليه السلام فيقول الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٦١-٦٢) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢﴾:

وهكذا قال لوط عليه السلام للملائكة -عليهم السّلام- عندما وصلوا إليه، فقد كان مشهدهم غايةً في الجمال، وهو يعلم أنّ قومه يحترفون الفاحشة الشّاذّة؛ لذلك نجد الحقّ سبحانه وتعالى يقول عن معاملته عليه السلام للملائكة في موقعٍ آخر من القرآن الكريم بأنّه: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: من الآية ٧٧]، ذلك أنّ لوطاً عليه السلام عَلِم أنّ قومه سيطمعون في هؤلاء المُرْد، وسيأتون من أجل الفاحشة، لذلك ما إنْ حضروا حتّى أعلن لهم أنّه غَيْر مرغوبٍ فيهم، ولم يرحّب بهم، ذلك أنّهم قد دخلوا عليه في صورة شبّان تضيء ملامحهم بالحُسْن الشّديد، ممّا قد يُسبِّب غوايةً لقومه، كما أنّهم قد دخلوا عليه، وليس على ملامحهم أيّ أثرٍ للسّفر، كما أنّهم ليسوا من أهل المنطقة الّتي يعيش فيها؛ لذلك أنكرهم.

ويقول سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملائكة -عليهم السّلام- لحظةَ أن طمأنوا لوطاً عليه السلام كشفوا له عن مهمّتهم:

(الآية ٦٣) - ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾:

وهكذا أعلنوا -عليهم السّلام- للوطٍ عليه السلام سبب قدومهم إليه؛ كي يُنزِلوا العقابَ بالقوم الّذين أرهقوه، وكانوا يشكُّون في قدرة الحقّ سبحانه وتعالى أنْ يأخذهم أَخْذَ عزيزٍ مُقْتدر، وفي هذا تَسْرية عنه، ثمّ يُؤكّدون ذلك بما أورده الله سبحانه وتعالى على ألسنتهم:

(الآية ٦٤) - ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾:

أي: جِئْنا لك بأمر عذابهم الصّادر من الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا مجالَ للشّكِّ أو الامتراء، ونحن صادقون فيما نُبلّغك به عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(الآية ٦٥) - ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾:

﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: سِرْ أنت وأهلك في جزء من اللّيل، ومرّةً يُقَال: (سرى)، ومرّةً يُقال: (أسرى)، ويلتقيان في المعنى، ولكن (أسرى) تأتي في موقعٍ آخر من القرآن الكريم، وتكون مُتعدِّية مثل قول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: من الآية ١]، وهنا يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، وكلمة: (قطع) هي اسم جمع، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأهله في جُزْءٍ من اللّيل، أو من آخر اللّيل، فهذا هو منهج الإنجاء الّذي أخبر به الملائكة -عليهم السّلام- لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به، وأوصوه أن يتّبعَ أدبار قومه بقولهم:

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾: أي: أن يكون في المُؤخّرة، وفي ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة.

وكان من طبيعة العرب أنّهم إذا كانوا في مكانٍ وأرادوا الرّحيل منه، فكلٌّ منهم يحمل رَحْلَه على ناقته، وأهله فوق النّاقة ويبتدئون السّير، ويتخلّف رئيس القوم، واسمه (مُعقِّب) كي يرقُب إنْ كان أحدٌ من القوم قد تخلّف أو تعثّر أو ترك شيئاً من متاعه، وهنا تأمر الملائكة -عليهم السّلام- لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون

مُعقّباً لأهله والمؤمنين به؛ لِيحثّهم على السّير بسرعة، ثمّ لِينفّذ أمراً آخرَ يأمره به الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾: وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضي أن يكون لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مُؤخّرة القوم.

﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾: يريد الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألّا يلتفت أحدٌ خَلْفه حتّى لا يشهدَ العذاب، أو مقدّمة العذاب الّذي يقع على القوم، فتأخذه بهم شفقة، فقد يحِنّ إليهم، أو يعطف عليهم، وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الّذين قرّر الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نجاتهم، والكيفيّة هي أن يكون الخروج في جزءٍ من اللّيل، وأنْ يتّبعَ لوطٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أدبارهم، وألّا يلتفتَ أحدٌ من النّاجين خَلْفه؛ ليمضوا حيث يأمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقيل: إنّ الجهة هي الشّام.

(الآية ٦٦) - ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾:

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾: أي: أوحينا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكلّم من قَبْل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط، ثمّ تكلّم جَلَّ جَلَالُهُ عن عذاب الكافرين المنحرفين، والأمر الّذي قضى به الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يُبيدَ هؤلاء المنحرفين.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾: قَطْع الدّابر هو الخَلْع من الجذور، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام]، وهكذا نفهم أنّ قَطْع الدّابر هو أنْ يأخذَهم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَخْذ عزيزٍ مقتدر، فلا يُبقِي منهم أحداً.

﴿مُّصۡبِحِينَ﴾: وموعد ذلك هو الصّباح، فبعد أنْ خرج لوط عليه السلام ومَنْ معه بجزءٍ من اللّيل وتمَّتْ نجاتهم، يأتي الأمر بإهلاك المنحرفين في الصّباح، والأَخْذ بالصُّبح هو مبدأ من مبادئ الحروب، ويُقال: إنّ أغلب الحروب تبدأ عند أوّل خيطٍ من خيوط الشّمس.

ويعود الحقّ سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى قوم لوطٍ الّذين لا يعرفون ما سوف يحدث لهم، فيقول جل جلاله:

(الآية ٦٧) - ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾:

وعندما عَلِم أهل المدينة من قوم لُوطٍ بوصول وَفْدٍ من الشّبّان الحِسَان المُرْد إلى لوط عليه السلام أتَوا مُستبشرين فَرِحين من أجل الفاحشة، وكان لوطٌ عليه السلام يعلم هذا الأمر فيهم، ويعلم ما سوف يَحيق بهم، فيقول الحقّ سبحانه وتعالى ما جاء على لسان لوط عليه السلام:

(الآية ٦٨) - ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾:

والفضيحة: هي هَتْك المساتير الّتي يستحيي منها الإنسان، فالإنسان قد يفعل أشياءَ يستحي أنْ يعلمها عنه غيره، والحقّ سبحانه وتعالى حين يطلب منّا أن نتخلَّق بخُلُقه، جعل من صفات الجمال والجلال كُلِّها نصيباً يعطيه لخَلْقه، من أجل أن يتخلّقوا بالأخلاق الّتي علّمنا الله سبحانه وتعالى إيّاها وأمرنا أن نبتعد عن الفواحش، والآن ما يجري في المجتمعات الغربيّة من زواج المثليّين واختيار الجنس هل يكون ذكراً أو أنثى، كلّ هذا كان في قوم لوط، وذُكِر لنا كيف أنّ الله سبحانه وتعالى عذّبهم وأنزل بهم أشدّ العقاب بسبب هذه الفاحشة والأمر الشّائن.

(الآية ٦٩) - ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: ضَعوا بينكم وبين عقاب الله ﷻ لكم وقاية.

﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾: ولا تخزون في ضيوفي، فمن العار أن تَرغبُوا في فعل الفاحشة، ولكنّهم لم يستجيبوا له، بدليل أنّهم تَمادَوْا في غيِّهم وقالوا ما أورده الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٧٠) - ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾:

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: أَلَمْ نُحذِّرك من قَبْل من ضيافة الشّبّان الّذين يتميَّزون بالحُسْن؛ ولأنّك قُمْتَ باستضافة هؤلاء الشّبّان الحسان، فلا بُدَّ لنا من أنْ نفعلَ معهم ما نحبّ من الفاحشة، وكانوا يتعرَّضون لكلّ غريبٍ بالسّوء.

وحاول لوطٌ عليه السلام أنْ يُثنيهم عن ذلك بأن قال لهم ما جاء به الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٧١) - ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾:

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾: هو لم يقدّم بناته للفاحشة، وحاشا لله أن يصدر مثل هذا الفعل عن رسولٍ، بل هو عليه السلام قد عرض عليهم أن يتزوّجوا النّساء، ثمّ إنّ لوطاً عليه السلام كانت له ابنتان اثنتان، وهو قد قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾؛ أي: أنّه تحدّث عن جمعٍ كثير، ونعلم أنّ بنات القوم كلّهم الّذين يوجد فيهم رسولٌ يُعتبرْنَ من بناته، ولذلك يقول الحقّ سبحانه وتعالى ما يُوضّح ذلك في آيةٍ أخرى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشّعراء]؛ أي: أنّ لوطاً عليه السلام أراد أنْ يردَّ هؤلاء الشّواذّ إلى دائرة الصّواب والفعل الطّيّب،

فأمرهم أن يقوموا بما أحلّه الله ﷻ بالفطرة والزّواج بين الذّكر والأنثى، وليس ارتكاب الفاحشة، فإن كنتم مصرّين فلماذا لا تتزوجون من بناتي؛ أي: بنات المؤمنين، بدلاً من ارتكاب الفاحشة وما تقومون به من فعلٍ ينافي الأخلاق والفطرة والقيم جميعاً؟!

(الآية ٧٢) - ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢﴾:

﴿لَعَمْرُكَ﴾: الخطاب هنا لرسول الله ﷺ، و(عَمْرُك) معناها السّنُّ المُحدَّد للإنسان، والله ﷻ يُقسم بعمر النّبيّ ﷺ، وهذا يماثل قولنا في الحياة اليوميّة: (وحياتك)، وهذا من التّكريم العظيم الّذي لم يلقه نبيٌّ قبل النّبيّ محمّد ﷺ، فبدلاً من أن يناديه: (يا محمّد) أو: (يا أحمد) كما كان ينادي الرُّسُل -عليهم السّلام-، كان يقول: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: من الآية ٤١]، أو: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٤]، وفي هذا تكريمٌ عظيم، وفي هذه الآية نجد تكريماً آخر، فسبحانه يُقسِم بحياة رسوله ﷺ، والله ﷻ يُقسِم بما شاء على ما شاء، أقسم بالشّمس وبمواقع النّجوم وبالنّجم إذا هَوَى.. فهو الخالق العليم بكلّ ما خلق، أمّا الإنسان فلا يجوز أن يقسم إلّا بالله ﷻ.

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: بحياتك يا محمّد إنّهم في سَكْرة يعمهون.

﴿سَكْرَتِهِمْ﴾: السّكرة: هي التّخديرة العقليّة الّتي تحدث لمن يختلّ إدراكهم بفعل عقيدةٍ فاسدة، أو عادةٍ شاذّة، أو بتناول مادّةٍ تُثير الاضطراب في الوعي.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يضطربون باختيارهم.

ويأتي العقاب، فيقول الله ﷻ:

(الآية ٧٣) - ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾:

سبق أنْ أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّه سيقطع دابرهم وهم مصبحون، وهنا يخبرنا أنّ الصّيحة أخذتهم وهم مُشْرقون؛ أي: عند شروق الشّمس، والصّيحة أفقدتهم التّوازن؛ ولذلك قال الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في موقعٍ آخر: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾ [القمر]، ومرّةً يُسمّيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطّاغية، فيقول: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقّة].

(الآية ٧٤) - ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾:

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: وما دام عاليها قد صار أسفلها، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظّم المُوجّه، ولو لم يكن انتقاماً مُنظّماً لانقلب بعضُ ما في تلك المدينة على الجانب الأيمن أو الأيسر، ولكن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يأتي لنا بصورة ما حدث؛ لِيدلَّنا على قدرته على أنّه يفعل ما شاء كما يشاء.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾: وأمطرهم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحجارةٍ من سجيل، كتلك الّتي أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة في عام ميلاد رسول الله ﷺ عام الفيل.

﴿سِجِّيلٍ﴾: حجارة صُنِعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَها إلّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والطّين إذا تحجّر سُمّي سجّيلاً.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو القائل عن هذا الموقف ذاته في سورة الذّاريات: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ [الذّاريات]، وقد أرسل الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تلك الحجارة عليهم لِيُبيدهم، فلا يُبْقِي منهم أحداً نتيجة لهذا الفعل الفاحش، وهو فعل قوم لوط.

(الآية ٧٥) - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: لقد كان العذاب الّذي أنزله الله سبحانه وتعالى بقوم لوط آية واضحة للمُتوسّمين.

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: المُتوسِّم: هو الّذي يُدرك حقائق المَستور بمكْشُوف المظهور، ويُقال: "توسَّمْتُ في فلان كذا"؛ أي: أخذت من ظاهره حقيقة باطنه، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: من الآية ٢٩]؛ أي: ساعةَ تراهم ترى أنّ الملامح تُوَضِّح ما في الأعماق من إيمان، ويقول سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٣]، وهكذا نعرف أنّ المُتوسِّم هو صاحب الفِراسة الّتي تكشف مكنون الأعماق، وها هو النّبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم يقول: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾»(١).

(الآية ٧٦) - ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾:

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أي: أنّها على طريقٍ ثابتٍ تمرُّون عليه إنْ ذهبتُم ناحية هذا المكان، وفي آيةٍ أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصّافّات]، فهذه المدينة في طريقٍ ثابت، لن تُضيّعه عوامل التّعْرية أو الأغيار، ولن تضيّعه تلك العوامل إلّا إذا شاء الله سبحانه وتعالى.

(الآية ٧٧) - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: آية يعني عبرة، معجزة، دليل.

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب تفسير القرآن، بابٌ: ومِنْ سورة الحِجْرِ، الحديث رقم (٣١٢٧).

وهكذا يُنهِي الحقّ سبحانه وتعالى هنا قصّة لوط، وما وقع عليهم من عذابٍ يجب أن يتّعظَ به المؤمنون، فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة.

وينقلنا الحقّ سبحانه وتعالى من بعد ذلك نَقْلةً أخرى إلى أهل مَدْين، وهم قوم شُعَيب عليه السلام، وهم أصحاب الأيكة، يقول سبحانه وتعالى:

(الآية ٧٨) - ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾:

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، مدينتهم مدين، و(الأَيْك) هو الشّجر المُلْتفّ كثير الأغصان، ونعلم أنّ شعيباً عليه السلام قد بُعِث لأهل مدين وأصحاب الأيكة، وهي مكانٌ قريبٌ من مدين، وكان أهل مدين قد ظلموا أنفسهم بالشّرك، وقد قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: من الآية ٨٥]، وقال عن أصحاب الأيكة: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشّعراء]، وهكذا نعلم أنّ شعيباً عليه السلام قد بُعِث لأُمّتين مُتجاورتين.

(الآية ٧٩) - ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾:

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾: يُقال: إنّ ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشّجر المُلْتفّ الكثيف القريب من البحر، ولذلك نجد هنا الدّليل على أنّ شعيباً عليه السلام قد بُعِث إلى أُمّتين هو قوله جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾، وقد انتقم الله جلّ وعلا من الأُمّتين الظّالمتين، مَدْين وأصحاب الأيكة.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾: والإمام هو ما يُؤتَمّ به في الرّأي والفتيا، أو في الحركات والسّكنات، أو في الطّريق المُوصِل إلى الغايات، ويُسمّى (إمام)؛ لأنّه

يدلُّ على الأماكن أو الغايات الّتي نريد أن نصل إليها.

وفيما يبدو أنّ أصحاب الأَيْكة قد تَمادَوْا في الظُّلم والكفر، وإذا كان سبحانه قد أخذ أهل مَدْين بالصّيحة والرّجفة، فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن سلّط عليهم الحَرَّ سبعة أيّام لا يُظِلّهم منه ظِلٌّ، ثمّ أرسل سحابةً وتمنَّوْا أن تُمطر، وأمطرتْ ناراً فأكلتهم، كما قالت كتب الأثر، وهذا هو العذاب الّذي قال فيه الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩﴾ [الشّعراء: من الآية ١٨٩]، وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الّذي يقود إلى التّبصُّر بعواقب الظّلم والشّرك.

بعد ذلك ينقلنا الحقّ جلّ جلاله إلى خبر قومٍ آخرين، فيقول سبحانه وتعالى:

(الآية ٨٠) - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾:

أصحاب الحِجْر هم قوم صالح عليه السلام، وكانت المنطقة الّتي يُقيمون فيها كلّها من الحجارة، ولا يزال مُقَامهم معروفاً في المسافة بين خيبر وتبوك، وقال فيهم الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [الشّعراء]، فقد كان عندهم حضارة وتقنيّة وعلم، يبنون مصانع منذ ذلك الزّمن.

وهم قد كذّبوا نبيّهم صالح عليه السلام، وكان تكذيبهم له يتضمّن تكذيب كلّ الرّسل، ذلك أنّ الرّسل -عليهم السّلام- جاؤوا بوحدانيّة الله عزّ وجلّ، ويتّفقون في الأحكام العامّة الشّاملة، ولا يختلف الأنبياء -عليهم السّلام- إلّا في الجزئيّات المناسبة لكلّ بيئةٍ من البيئات الّتي يعيشون فيها:

فبيئةٌ: تعبد الأصنام، فيُثبِت لهم نبيُّهم أنّ الأصنام لا تستحقّ أن تُعبد.

وبيئةٌ أخرى: تُطفِّف الكيْل والميزان، فيأتي رسولهم بما ينهاهم عن ذلك.

وبيئةٌ ثالثة: ترتكب الفواحش كقوم لوط فيُحذِّرهم نبيّهم من تلك الفواحش.

وهكذا اختلف الرّسل -عليهم السّلام- في الجزئيّات المناسبة لكلّ بيئةٍ، لكنّهم لم يختلفوا في المنهج الكُلّيّ الخاصّ بالتّوحيد، وقد قال الحقّ سبحانه وتعالى عن قوم صالح أنّهم كذَّبوا المُرْسلين؛ بمعنى أنّهم كذّبوا صالحاً عليه السلام فيما جاء به من دعوة التّوحيد الّتي جاء بها الرّسل كلّهم -عليهم السّلام-.

(الآية ٨١) - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٨١﴾:

وهنا يُوجِز الحقّ سبحانه وتعالى ما أرسل به نبيّهم صالح عليه السلام من آياتٍ تدعوهم إلى التّوحيد بالله عز وجل، وصِدْق بلاغ صالح عليه السلام الّذي تمثّل في النّاقة الّتي حذَّرهم صالح عليه السلام أنْ يقربوها بسوءٍ كَيْلا يأخذهم العذاب الأليم، لكنّهم كذَّبوا وأعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إلى الآيات الّتي خلقها الله سبحانه وتعالى في الكون من ليلٍ ونهار، وشمسٍ وقمر، واختلاف الألْسُنِ والألوان بين البشر.. ونعلم أنّ الآيات تأتي دائماً بمعنى المُعْجزات الدَّالّة على صدْق الرّسول في بلاغه عن الله سبحانه وتعالى، وسيّدنا صالح عليه السلام جاءهم بآيةٍ خاصّة هي هذه النّاقة، ولكنّهم أنكروا وجحدوا بالآية، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الّذي جاءهم به صَالح عليه السلام، والإعراض هو أنْ تُعطِي الشّيء عَرْضك بأن تبتعدَ عنه ولا تُقبِل عليه.

(الآية ٨٢) - ﴿وَكَانُوا۟ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾:

وهنا يمتنُّ المولى سبحانه وتعالى عليهم بأن منحهم حضارةً، ووهبهم مهارة البناء والتّقدُّم في العمارة، وأخذوا في بناء بيوتهم في الأحجار، ومن الأحجار الّتي كانت توجد بالوادي الّذي يقيمون فيه، وقطعوا تلك الأحجار بطريقةٍ تُتيح لهم بناء البيوت والقُصور الآمنة من التّقلُّبات الجوّيّة وغيرها.

ونعلم أنّ مَنْ يعيش في خَيْمةٍ يعاني من قِلَّة الأمن، أمّا مَنْ يعيش في بيتٍ أو قصر فهو أقرب للأمان والسّكن منه من الآخرين، وإذا كان قوم صالح عليه السلام قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهي بالتّأكيد أكثر أَمْناً من غيرهم، ونجد نبيّهم صالحاً عليه السلام، وقد قال لهم ما أورده الحقّ سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓا۟ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذۡكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡا۟ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف]، ولكنّهم طَغَوْا وبغَوْا وأنكروا ما جاء به صالح عليه السلام فما كان من الحقّ تبارك وتعالى إلّا أنْ أرسلَ عليهم صيحةً تأخذهم.

(الآية ٨٣) - ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾:

وهم إذا كانوا قد اتّخذوا من جبليّة الموقع أَمْناً لهم، فقد جاءت الصّيحة من الحقّ تبارك وتعالى لِتدكَّ فوق رؤوسهم ما صنعوا، وقد قال الله جلّ جلاله عنهم في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود]، وقال سبحانه وتعالى عنهم أيضاً: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُوا۟ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف]، والرَّجْفة هي الزّلزلة، والصَّيْحة هي بعض من توابع الزّلزلة، ذلك أنّ الزّلزلة تُحدِث تموّجاً في الهواء يؤدّي إلى حدوث أصواتٍ قويّة تعصف بمَنْ يسمعها، وهم

حسب قَوْل الحقّ ﷻ قد تمتَّعوا ثلاثة أيّام قبل أنْ تأخذهم الصَّيْحة كَوَعْد نبيّهم صالح عليه السلام لهم: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: من الآية ٦٥].

ويقول الله ﷻ عن حالهم بعد أنْ أخذتهم الصَّيْحة:

(الآية ٨٤) - ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾:

وهكذا لم تنفع الحصون في حمايتهم من قدَر الله ﷯، ونعلم أنّ قدر الله تعالى أو عقابه لا يمكن أنْ يمنعه مانعٌ مهما كان، فهو ﷻ القائل: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النّساء: من الآية ٧٨]، وهكذا لا يمكن أن يحميَ الإنسانُ نفسَه ممّا قدَّره الله ﷯ له، أو مِمَّا يشاء الحقّ ﷻ أن يُنزِله على الإنسان كعقاب، وسبحانه القائل: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٤]، وهكذا خَرُّوا جميعاً في قاع الهلاك، ولم تَحْمِهِم حصونهم من العذاب الّذي قدَّره الله ﷻ.

(الآية ٨٥) - ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾:

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾: والحقُّ: هو الشّيء الثّابت الّذي لا تَعْتوره الأغيار، والمثَل هو نظام المجرَّات وحركة الشّمس والقمر، نجدها مُنْضبِطة؛ ذلك أنّ الإنسان لا يتدخَّل فيها، وليس للإنسان معه أيّ اختيار، ولذلك نجد أنّ الفسادَ لا ينشأ في الكون من النّواميس العُلْيا، ولكن من الأمور الّتي يتدخَّل فيها الإنسان، والله ﷻ خلق السّموات والأرض وما

بينهما، والمولى سبحانه وتعالى يبيّن بأنّه خلقها بالحقّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾ [الرّحمن]، فإذا أردتم أن تنتظمَ أموركم في الحياة الدّنيا فلا تطغَوْا في ميزان أيِّ شيءٍ، وهنا يُذكِّرنا الحقّ سبحانه وتعالى ألّا نقعَ في خطأ الوهم بأنّنا سنأخذ نِعَم الدّنيا من غير ضابط أو رابط، فالحساب قادم لا محالة، ولذلك قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ٤٢﴾ [الزّخرف]؛ أي: مَا قدّره الله سبحانه وتعالى سيقع من غير أنْ يَصُدَّه شيء مهما كان، وإمَّا ترى ذلك في حياتك، أو تراه لحظة البَعْث، والدّليل هو ما حاق بمَنْ كفروا وظلموا وكذَّبوا الرّسل–عليهم السّلام–، وعاثوا في الأرض مُفْسدين، وأهلكهم الله سبحانه وتعالى كما رأينا في الآيات السّابقة.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾: فلا يردّها شيءٌ، وبما أنّ الله سبحانه وتعالى يقول: إنّ السّاعة آتية فهي قادمة؛ لأنّ من يقول هو الّذي يملك مقادير السّموات والأرض، ويملك الماضي والحاضر والمستقبل، والقادر على كلّ شيءٍ.

﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾: دائماً يعطي المولى سبحانه وتعالى سعة في الأخلاق إضافة لسعة الكون، و﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ أن يكون الإنسان في صدره سعة للصّفح عن النّاس؛ لأنّ السّاعة آتية والحساب آتٍ، فإذا تفلّت من عدالة الأرض فلن يستطيع أن يفلت من عداوة السّماء أبداً، والصّفح الجميل هو الّذي فعله رسول الله ﷺ بعد كلّ ما عاناه، وهو صبرٌ جميل، فقد عانى النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام متاعب ومشاقّ، لكنّه يتذرّع دائماً بالصّبر الجميل، الّذي يرافقه الصّفح الجميل.

(الآية ٨٦) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ٨٦﴾:

وقد جاء سبحانه وتعالى هنا بالاسم الّذي خلق به من عَدَم، وأمدَّ من عُدْم، وقيُّوميّة الرّبوبيّة هي الّتي تمدُّ الكون كلّه برزقه وترعاه، فسبحانه هو الّذي استدعى الإنسان إلى الكون.

﴿رَبَّكَ﴾: هذه الكلمة تُوحي بأنّه إنْ أصابك شيءٌ بسبب دعوتك، وبسبب كنود قومك أمامك وعدائهم لك، فربُّكَ يا محمّد -عليه الصّلاة والسّلام- لن يتركهم.

والرّبّ -كما نعلم- هو مَنْ يتولَّى تربية الشّي إلى ما يعطيه مناط الكمال، ولا يقتصر ذلك على الدّنيا فقط، ولكنّه ينطبق على الدّنيا والآخرة.

﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾: مبالغة في الخَلْق، وهي امتداد صفة الخَلْق في كلّ ما يمكن أنْ يُخلق؛ لأنّه سبحانه وتعالى هو الّذي أعدَّ كلّ مادّة يكون منها أيّ خَلْق، وأعدّ العقل الّذي يُفكِّر في أيِّ خلق، وأعدَّ الطّاقة الّتي تفعل، وأعدَّ التّفاعل بين الطّاقة والمادّة والعقل المُخطِّط لذلك، وما يفعله الإنسان المخلوق هو التّوليف بين ما خلقه الله سبحانه وتعالى من موادّ، وإنْ وُجِد خلّاق من البشر، فهو وحده سبحانه وتعالى الّذي يهب إنساناً ما أفكاراً لينفّذها، ثمّ يأتي مَنْ هو أذكى منه لِيُطوّرِها، ولذلك قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦﴾ [يوسف: من الآية ٧٦]، والعلم هو أساس بالنّسبة إلى الإنسان، وعلم الله سبحانه وتعالى ليس عِلْماً مُكْتسباً أو ممنوحاً، بل العلم صفة ذاتيّة فيه.

(الآية ٨٧) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾:

يمتنُّ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على رسوله ﷺ بأنّه يكفيه أنْ أنزلَ عليه القرآن الكريم الكتاب المعجز، والمنهج الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه، فالقرآن الكريم يضمُّ كمالاتِ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أعطاه ذلك، فهو أيضاً يتحمَّل عنه كُلَّ ما يُؤلِمه، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو القائل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ [الحجر: من الآية ٩٧]، وأزاح الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه هموم اتّهامهم له بأنّه ساحرٌ أو مجنون، وقال له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: من الآية ٣٣].

﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾: اتّفق العلماء على أنّ كلمة: ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ تعني فاتحة الكتاب، فلا يُثنَّى في الصّلاة إلّا فاتحة الكتاب.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾: يَصِف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآنَ بالعظيم، وهو جَلَّ جَلَالُهُ يحكم بعظمة القرآن الكريم على ضَوْءِ مقاييسه المُطْلقة، وهي مقاييس العظمة عنده سبحانه، والمثَل الآخر على ذلك وَصفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾ [القلم]، وهذا حُكْمٌ بالمقاييس العُلْيا للعظمة، وهكذا يصبح متاع الدّنيا كُلّه أقلّ مِمَّا وهبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ.

ونلحظ أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد عطف القرآن الكريم على السَّبْع المثاني، وهو عَطْف عامّ على خَاصٍّ، كما قال الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: من الآية ٢٣٨]، ونفهم من هذا القول أنّ الصّلاة تضمُّ الصّلاة

الوُسْطى أيضاً، وكذلك مثل قول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما جاء على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: من الآية ٢٨]، وهكذا نرى عَطْف عامٍّ على خاصّ، وعَطْف خاصٍّ على عامّ، أو أنْ نقولَ: إنّ كلمة (قرآن) تُطلَق على الكتاب الكريم المُنزَّل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أوّل آيةٍ في القرآن الكريم إلى آخر آيةٍ فيه، وتُطلق أيضاً على الآية الواحدة من القرآن الكريم، فقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ [الرّحمن]، هي آيةٌ من القرآن الكريم، وتُسمَّى أيضاً قرآناً، ونجده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٧٨]، ونحن في الفجر لا نقرأ القرآن الكريم كلّه، بل بعضاً منه، ولكن ما نقرؤه يُسمَّى قرآناً، وكذلك يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]، وهو لا يقرأ القرآن الكريم كُلَّه بل بعضه، فكلُّ آيةٍ من القرآن الكريم هي قرآن، وقد أعطى الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّبْع المثاني (الفاتحة) والقرآن العظيم، وتلك هي قِمَّة العطايا، فللّه جَلَّ جَلَالُهُ عطاءاتٌ متعدّدة تشمل المؤمن والكافر، وتشمل الطّائع والعاصي، وعطاءاتٌ خاصّة بمَنْ آمن به جَلَّ جَلَالُهُ، وتلك عطاءات الألوهيّة لمَنْ سمع كلام ربِّه فأطاع وانتهى عمّا نهى عنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسبحانه يمتدّ عطاؤه من الخَلْق إلى شَرْبة الماء، إلى وجبة الطّعام، وإلى الملابس، وإلى المَسْكن، وكلّ عطاءٍ له عُمْر، ويسمو العطاء عند الإنسان بسُموّ عمر العطاء، وكلّ عطاءٍ يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السّعيد، فإذا كان عطاء الرّبوبيّة يتعلّق بمُعْطيات المادّة وقوام الحياة، فإنّ عطاءات القرآن الكريم تشمل الدّنيا والآخرة، وإذا كان ما يُنغِّص أيَّ عطاء في الدّنيا أنّ الإنسانَ يُفارقه بالموت، أو أن يذوي هذا

العطاء في ذاته، فعطاء القرآن الكريم لا ينفد في الدّنيا ولا في الآخرة، ونعلم أنّ الآخرة لا نهايةَ لها على عكس الدّنيا الّتي لا يطول عمر الإنسان فيها بعمرها، بل بالأجل المُحدَّد له فيها، وإذا كانت عطاءاتُ القرآن الكريم تحرس القيم الّتي تهبُ الإنسان عطاءات الحياة الّتي لا تفنَى وهي الحياة الآخرة، فهذا هو أَسْمى عطاء، وإيّاك أن تتطلّعَ إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نِعَم الدّنيا الفانية؛ لأنّ مَنْ أُعطِي القرآن الكريم وظنَّ أنّ غيره قد أُعْطِي خيراً منه، فقد حقّر ما عَظَّم الله عز وجل، وما دام الحقّ سبحانه وتعالى قد أعطاك هذا العطاء العظيم، فيترتّب عليه قوله جل جلاله:

(الآية ٨٨) - ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾: المَدُّ: هو مَطُّ الشّيء وزيادته، وللعيْن مسافات تُرَى فيها المرائي، كُلّ عَيْنٍ حَسْب قدرتها، فهناك مَنْ يتمتّع ببصرٍ قويٍّ حادّ، وهناك مَنْ ليس كذلك.

والمراد بمَدِّ العين ليس إخراج حبّة العين ومدِّها، ولكن المراد إدامة النّظر والإمعان، ولكنّ الحقّ سبحانه وتعالى عبَّر في القرآن الكريم هذا التّعبير، وكأنّ الإنسان سيُخرِج حبَّة عينه ليجري بها، وليُمعِن النّظر، وهذا ما يُفهَم من منطوق الآية، والمنطوق يشير إلى المفهوم المراد، وهذا عين الإعجاز.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾: كلمة: (متاع) تُفيد أنّ شيئاً يُتمتَّع به وينتهي، ولذلك يُوصَف متاع الدّنيا في القرآن الكريم بأنّه متَاعُ الغرور؛ أي: أنّه متاعٌ موقوت.

﴿أَزْوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾: هي جَمْع زَوْج، وسبق أنْ أوضحنا أنّ كلمة (زوج) هي مفرد، والذّكَر والأنثى حين يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين، والحقّ ﷻ هو القائل: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس]، والأزواج كلُّها تعني الفرد، ومعه الفرد من كلّ صنف من الأصناف، والمراد بكلمة (أزواج) هنا أنّ المخالفين لرسول الله ﷺ كانوا شِلَلاً شِللاً، ضالّ ومضلّ، وضالّ آخر معه مُضِلّ، ولحظة الحساب سيقول كلّ منهم: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾ [الصّافّات]، وهكذا كانت كلمة (أزواج) تدلّ على أصنافٍ متعدِّدة من الّذين يقفون معاندين لرسول الله ﷺ ومُنكِرين لمنهجه.

وهنا يُوضِّح الحقّ ﷻ: إيّاكَ أنْ تَمُدَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم؛ لأنّنا أعطيناك أعلى عطاء، وهو معجزة القرآن الكريم حارس القيم الّذي يضمُّ النَّهْج القويم، فلا تمدنّ عينيك إلى متاع هؤلاء المجموعات مهما كانت.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: يُقال: حزنت منه، وحَزِنت عليه، وحَزِنت له، فمَنْ ناله ما يُحزن، ولم يَصْدُر عنك السّبب في حزنه، فأنت تقول له: (حَزِنت لك). ورسول الله ﷺ حَزِن عليهم، فقد كان يُحِبّ أنْ يؤمنوا، وأنْ يتمتّعوا بالنّعمة الّتي يتمتّع هو بها وهي القرآن الكريم، وفي آيةٍ أخرى يقول ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف]، وقول الحقّ ﷻ هنا: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ دليلٌ على أنّ رسول الله ﷺ كان حريصاً على أن يُؤمِن قومه، محبّةً فيهم، وليتعرَّفوا على حلاوة الإيمان بالله ﷯، وكان ﷺ يتألّم ويحزّ في نفسه عدم إيمانهم، لدرجة أنّ الحقّ ﷻ قال له في آيةٍ أخرى:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾ [الشّعراء]، وهنا يُوضِّح المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ أنّ إيمانهم ليس أمراً صعباً عليه عَزَّ وَجَلَّ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس].

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: يريد أن تتحوّل هذه العاطفة الموجودة من هؤلاء الّذين لا فائدة منهم إلى أولئك المؤمنين، الّذين آمنوا وتحمّلوا المشاقّ، فتوجّه طاقة الحنان والمودَّة الّتي في قلبك إلى مَنْ يستحقّها، وهم المؤمنون برسالته ﷺ، فهذا الحزن إنّما هو طاقة عاطفيّة يجب أن تكون بخفض الجناح، وهو التّواضُع لهؤلاء المؤمنين؛ ذلك أنّ الجناحَ هو الجانب، فحين يأتيك إنسانٌ تريد أنْ تتكبَّر عليه، فهو يقول: "فلانٌ لَوَى عنّي جانبه"، وهذا أمرٌ عامٌّ للمؤمنين كلّهم، وكلمة: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ مأخوذةٌ من خَفْض جناح الطّائر، فالطّائر يرفع جناحه عند الطّيران، ولكن ما إنْ يلمسَ هذا الطّائر فَرْخَه الصّغير حتّى يَخفِض جناحه له ليضمّه إليه، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء].

(الآية ٨٩) - ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾:

نعلم أنّ الرّسل -عليهم السّلام- مُبشرِّون ومُنذرِون، ولسائلٍ أنْ يقولَ: لماذا تأتي صيغة الإنذار دائماً؟ نقول: إنّ مَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة، أمّا مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النِّذارة فهو المُنكِر لوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبذلك يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيتين السّابقتين قد امتنَّ على رسوله ﷺ بأنّه قد آتاه السّبع المثاني والقرآن العظيم، وأوصاه ألَّا تطمح نفسه إلى ما أوتي بعض

الكفّار من جاه ومال في هذه الحياة، فالقرآن الكريم عزُّ الدّنيا والآخرة، ونحن قومٌ أعزّنا الله عَزَّ وَجَلَّ بالإسلام، فمهما ابتغينا العزّة بغيره أذلّنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوصيه كذلك بألّا يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته، فليس عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا البلاغ والإنذار، وأن يتواضعَ للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم خيرٌ من الكافرين برسالته، ثمّ يُوصيه الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُبلّغ الجميع أنّه نذيرٌ وبشير، ويوضّح ما جاء في القرآن الكريم من خيرٍ يعُمّ المؤمنين، وعقاب ينزل على الكافرين.

(الآية ٩٠) - ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾:

نعلم أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أنزل كتابه على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستقبله النّاس استقبالَين: فمنهم مَنِ استمع إلى القرآن الكريم فتبصَّر وآمن، وفي هؤلاء قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة]، والصّنف الآخر استمع إلى القرآن الكريم، فكانت قلوبهم كالحجارة، وفيهم قال الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ [محمّد]، والمسألة لها سوابق مع غيرك من الرّسل، فقد نزل كلّ رسولٍ بكتابٍ يحمل المنهج، ولكنّ النّاس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لِمَا نزل إليك بين كافر ومؤمن، واختلفوا في أمور الكُتب المنزّلة إلى رسلهم، وكان انقسامهم كانقسام قومك حول الكتاب المُنزّل إليك، فلا تحزنْ إنِ اتّهموك بأنّك ساحرٌ، أو أنّ ما نزل إليك كتابُ شعر، أو أنّك تمارس الكهانة، أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتّهموك بالجنون.

وهكذا قَسَّموا القرآن الكريم المُنزّل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى أقسام هي: السِّحْر،

والكهانة، والشّعر، والجنون، كما فعل من قبلهم أقوام آخرين: فمنهم مَنْ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧﴾ [الشّعراء: من الآية ٢٧]، فالاقتسام الّذي استقبل به الكفّار القرآن الكريم سبق وأنْ حدث مع الرّسل الّذين سبقوك.

(الآية ٩١) - ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾:

﴿عِضِينَ﴾: تعني القطع، فيُقال للجزّار حين يذبح الشّاة أو العجل: إنّه قد جعله عِضين؛ أي: فصَل كُلَّ ذراعٍ عن الآخر، وكذلك قطع الفخذ؛ أي: أنّه جعل الذّبيحة قِطَعاً قِطَعاً بعد أنْ كانت أعضاءً مُتّصلة.

وكذلك كان القرآن الكريم حينما نزل كياناً واحداً، فأراد بعض الكفّار أن يُقطِّعوه إلى أجزاء، والمقصود بهم جماعة من اليهود كانوا على عهد النّبيّ ﷺ أرادوا أنْ يُقطِّعوا القرآن الكريم كما فعلوا مع التّوراة الّتي نزلت على موسى عليه السلام، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: من الآية ١٣]، فاليهود استقبلوا القرآن الكريم استقبالَ مَنْ يُصدِّق بعضه مِمَّا يناسبهم ومِمّا لا يُتعِبهم، وكذَّبوه في بعضه الّذي يتعبهم، فقد كذَّبوا مثلاً أنّ كتابهم قد بشَّرهم بالنّبيّ محمّد ﷺ، وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن الكريم عِضين؛ أي: قطعاً مفصولة عن بعضها بعضاً، وقد حاولوا ذلك بعد أن تبيَّن لهم أنّ القرآن الكريم مُؤثِّر وفاعل.

والآن كثيرٌ من النّاس جعلوا القرآن الكريم عضين، فأخذوا منه ما يناسبهم، وتركوا ما لا يناسبهم حسب رأيهم، أو يقول بعضهم: إنّنا الآن في زمنٍ مختلفٍ عن الأزمان السّابقة فنأخذ من القرآن الكريم ما يناسبنا، وهذا

كلامٌ غير مقبول؛ لأنّنا نتعامل مع كلام الله ﷻ، والله ﷻ كلامه أزليّ؛ أي: يَصلُح لكلّ زمانٍ ومكانٍ، ويستوعب الأزمنة والأماكن، فلا تجعلوا القرآن الكريم عضين؛ أي: لا تفصلوه، بل يجب أن تأخذوه جملةً واحدة؛ أي: كلّاً متكاملاً، ولكن يمكن أن تختلف تفسيرات البشر في كلّ وقت وليس أن يُختَلف حول القرآن الكريم، فيمكن أن يجتهد النّاس في تفسيراتهم؛ لإنزال النّصّ على الواقع، وعند إنزال النّصّ على الواقع قد تختلف الأحكام بتبدّل الأزمان كما نعلم من محكم القرآن الكريم، فالقرآن الكريم فيه آياتٌ محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخَر متشابهات، والمتشابهات يمكن أن تُؤَوَّل، أمّا المحكمات فلا، مثلاً: لا يقولنّ قائلٌ: اليوم لا نستطيع أن نصلّي أربع ركعات الظّهر وسنقتصرها على ركعتين، أو نصوم للظّهر وليس للمغرب، فهذا كلامٌ يستحيل عقليّاً، وهكذا تنطبق الأمور كلّها بالنّسبة إلى الآيات القرآنيّة، فيجب ألّا نكون كالمقتسمين الّذين جعلوا القرآن الكريم عضين، ولا تتعلّق القضيّة فقط بالقوم الّذين استقبلوا أوّل استقبالٍ للقرآن الكريم، ففي كلّ زمن وفي كلّ جيلٍ هناك استقبالان للقرآن الكريم: الأوّل: استقبال إيمان كامل متكامل بالقرآن الكريم وبما يتبعه من السّنّة النّبويّة المطهّرة الّتي أمر بها القرآن الكريم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: من الآية ٨٠]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، فهذا أمرٌ محتوم قطعيّ، والاستقبال الثّاني في كلّ زمن: هو استقبال الإنكار، فإمّا أن يكون إنكاراً كاملاً، وهو الإلحاد وعدم القبول بالإيمان بشكلٍ كاملٍ أو أن نأخذ جزءاً ونجعل القرآن الكريم عضين، وهذا ما نحن بصدده الآن، بأن نأخذ ما يناسبنا وندع ما لا يناسبنا منه، فبدلاً من أن

نرتفع إلى مستوى عطاءات القرآن الكريم نريد من عطاءات القرآن الكريم أن تستر عيوبنا، وهذه هي مشكلة من جعلوا القرآن الكريم عضين.

(الآية ٩٢) - ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾:

﴿فَوَرَبِّكَ﴾: يُقسِم الله ﷻ بصفة الرّبوبيّة الّتي تعهّدتْ رسوله ﷺ بالتّربية والرّعاية ليكون أهلاً للرّسالة وأنّه لن يُسلِمه لأحد، وهو ﷻ مَنْ قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطّور: من الآية ٤٨].

﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: يُبيِّن لنا ﷻ أنّه سيسألهم عن أدقِّ التّفاصيل، ومجرّد توجيه السّؤال إليهم فيه لَوْنٌ من العذاب، ويحاول بعضهم مِمَّنْ يريدون أنْ يعثروا على تعارضٍ في القرآن الكريم أن يقولوا: كيف يقول الله ﷻ مرّةً: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرّحمن]، ويقول في أكثر من موقع في القرآن الكريم أنّه سيسأل هؤلاء المُكذِّبين؟ فكيف يُثبِت السّؤالَ مرّةً، وينفيه مرّةً أخرى؟ نقول لهؤلاء: أنتم تستقبلون القرآن الكريم بسطحيّةٍ شديدة، تسطيح العقل في فهم القرآن الكريم، فهذا الّذي تقولون: إنّه تعارضٌ، إنّما هو مجرّد ظاهر من الأمر، وليس تعارضاً في حقيقة الأمر، ونحن نعلم أنّ أيّ سؤال له مُهِمّتان:

المُهِمّة الأولى: أن تعلم ما تجهل.

والمهمّة الثّانية: لتقرَّ بما تعلم.

والحقّ ﷻ حين ينفي سؤالاً فهو ينفي أنّ أحداً سيُخبره بما لا يعلم ﷻ، وحين يثبت السّؤال، فهذا يعني أنّه سيسألهم سؤالَ الإقرار، وقوله هنا: ﴿فَوَرَبِّكَ

﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؛ يعني أنّ الضَّالّ والمُضِلّ، والتّابع والمتبوع سَيُسألون عَمَّا كانوا يعملون.

(الآية ٩٣) - ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾:

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: والعمل كما نعلم هو اتّجاه جارحة إلى مُتعلّقها، فجارحةُ العين مُتعلِّقها أنْ ترى، وجارحةُ اللّسان مُتعلِّقها أن تتكلّم، وجارحةُ اليد إمّا أنْ تُربّت، وإمّا أنَ تبطشَ.. وهكذا فكُلُّ ما تصنعه ملكَاتُ الإدراك في النّفس البشريّة نُسمِّيه عملاً، وسبق أن قلنا: إنّ العمل ينقسم إلى قولٍ وفعلٍ، والإنسان محاسبٌ على أقواله: قال معاذ بن جبل ﵁: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[1]، ويقول الحقّ ﷻ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة: من الآية ٧٤]، أي: تذكَّروا أنّ الله ﷻ لا يغيب عنه شيءٌ، وأنّ كلّ ما تعملونه يعلمه، ويجب ألّا نقف عند موضوع العبادات فقط، فالله ﷻ لن يحاسبنا فقط على العبادات والشّعائر ويدع المعاملات والأخلاقيّات والممارسات والأمانات في الحياة الدّنيا، فالمقاصد لا بدّ منها، فلا بدّ أن يكون الإنسان في كلّ حركةٍ يعيش منهج الله ﷿ على الأرض، وها هو سيّدنا عمر بن الخطّاب ﵁ كان يرفع هذا الشّعار، فكلّما فعل فعلاً أو قام بأمرٍ يقول: "ماذا ستقول غداً لربّك إذا لقيته يا عمر؟".

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: تتمّة مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، الحديث رقم (٢٢٠١٦).

(الآية ٩٤) - ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾:

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾: أي: افرغ لِمُهمّتك، والصّدع: أن تصنع شقّاً في متماسكٍ، كما نشقّ زجاجاً بالمشرط الخاصّ بذلك، أو نصنع شقّاً في حائط. والرّسول ﷺ قد جاء لِيشقَّ الكفر، ويهدم الفساد القويّ المتماسك الّذي يَقْوى بقوّة صناديد قريش، وقد شاع ذلك المصطلح (الصّدع) في الزّجاج؛ لأنّ أيَّ شقٍّ في أيّ شيءٍ من الممكن أنْ يلتئمَ إلّا في الزّجاج؛ لأنّه يصعب أن يجمع الإنسان الفتافيت والقطع الصّغيرة الّتي تنتج من صدعه، وقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: أي: أَعْطِهم عرض كتفيك، ولا تسأل عنهم، فَهُم لن يُسلِموا لك، ذلك أنّهم مستفيدون من الفساد الّذي جِئْتَ يا محمّد لتهدمه، ولكنّهم سيأتون لك تباعاً بعد أن تتثبّت دعوتُك، وتصل قلوبهم إلى تيقُّن أنّ ما جئتَ به هو الحقّ، والمثَل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ فقد قالا: "لقد استقرّ الأمر لمحمّد، ولم تَعُدْ معارضتنا له تفيد أحداً"، ودخلَا الإسلام، وهكذا دخل النّاس في دين الله سبحانه وتعالى أفواجاً.

(الآية ٩٥) - ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾:

لقد ثبت لكلّ مَنْ عاش تلك الفترة أنّ كلّ مُستهزئٍ بمحمّد ﷺ قد ناله عقابٌ من السّماء، فها هو ذا الوليد بن المغيرة الّذي يتبختر في ثيابه، فيسير على قطعةٍ من الحديد، فيأنَفُ أن ينحنيَ لِيُخلّص ثوبه الّذي اشتبك بقطعة الحديد، فتُجرح قدمه وتُصاب بالغرغرينا ويقطعونها له، ثمّ تنتشر الغرغرينا في كُلِّ جسده إلى أنْ يموتَ، وها هو الثّاني الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض في

عينيه فيعمى، وكذلك الحارث بن الطّلاطلة، والعاص بن وائل.

وكلّ مستهزئٍ برسول الله ﷺ قد ناله عقابٌ ما، ومَنْ لم تُصِبْه عاهة أو آفة صرعتْه سيوف المسلمين في بدر.

ورسول الله ﷺ لا يضرّه من استهزء به سابقاً ولا لاحقاً ولا اليوم ولا في أيّ وقتٍ من الأوقات؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكم بذلك بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

(الآية ٩٦) - ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾: إنّ هؤلاء المشركين جعلوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلهاً آخر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يحدّد ما هو الإله الآخر، فقد يكون شهوات أو مال، وقد يكون من النّاس، أو يكون هوى نفس، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان]، وليس بالضّرورة أن يكون صنماً أو عجلاً أو شمساً أو قمراً أو أيّ شيء، وكلّ من يستهزئ برسول الله ﷺ فهو ينكر وجود الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: في هذا القول استيعاب للأزمنة كلّها؛ أي: سيعلمون الآن ومن بعد الآن، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يأخذهم جميعاً في مرحلةٍ واحدة، بل أخذهم على فترات.

(الآية ٩٧) - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

وفي هذا القول الكريم يتجلّى تقدير الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمشاعر النّبيّ الكريم ﷺ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلّفه بأوامر، وطلب منه أن ينفّذها، ويقول له جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ

يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، وفي آيةٍ أخرى قال له: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ۝٣٣﴾ [الأنعام]، هذه هي الحقيقة، فمشكلتهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس معك يا رسول الله، المشكلة بالنّسبة إليهم أنّك رسولٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ، فهم يكذّبون بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأنت يا رسول الله أكرم من أن تُكَذَّب، فقد شهدوا لك بالصّدق عبر معايشتهم لك من قبل الرّسالة .

﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾: ضيق الصّدر بالمعنى الحسّيّ: أنْ يقِلّ الهواء الدّاخل عَبْر عمليّة التّنفُّس إلى الرّئتين، فمن هذا الهواء تستخلص الرّئتان الأوكسجين وتطرد ثاني أوكسيد الكربون، ويعمل الأوكسجين على أكسدة الغذاء لِينتجَ الطّاقة، فإنْ ضاق الصَّدْر صارت الطّاقة قليلة، والمثَل يتّضح لِمَنْ يصعدون السُّلَّم العالي لأيّ منزلٍ أو أيّ مكان، ويجدون أنفسهم يلهجون، والسّبب في هذا اللّهج هو أنّ الرّئة تريد أنْ تُسرِع بالتقاط كمّيّة هواء أكبر من تلك الّتي تصل إليها، فيعمل القلب بشدّة أكثر كي يُتيح للرّئةِ أن تسحبَ كمّيّةً أكبر من الهواء، أمّا مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الّذي يُتيح للرّئة أن تأخذَ الكمّيّة الّتي تحتاجها من الهواء، فكأنّ رسول الله ﷺ حين كان يُكذِّبه أحد، أو يستهزئ به أحد كان يضيق صَدْره فتضيق كمّيّة الهواء اللّازمة للحركة؛ ولذلك يُطمئِنه الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّ مَدَده له لا ينتهي، وأنت تلحظ عمليّة ضيق الصّدر في نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه، فيقول لك: لماذا يضيق صدرك؟ وَسِّع صدرك قليلاً، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في موضعٍ آخر: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢٥]؛ أي: يُوسّع صدره، وتزداد

قدرته على فَهْم المعاني الّتي جاء بها الدّين الحنيف، ويقول أيضاً: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢٥]، وهنا نجد أنّ الله ﷻ يشرح عمليّة الصّعود وكأنّ فيها مجاهدةً ومكابدةً، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنّك إذا صعدتَ إلى أعلى وجدتَ الهواء أكثرَ نقاءً، وقد ثبت أنّ الإنسان كلّما صعد إلى أعلى في الفضاء فلن يجد هواء.

ويدلُّ الحقّ ﷻ رسوله ﷺ على علاج لمسألة ضيق الصّدر حين يُحزنه أو يؤلمه مُكذّب، أو مُستهزئ؛ وهي للمؤمنين كلّهم، فيقول ﷻ:

(الآية ٩٨) - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: يمكن أن تُذْهب عنك أيَّ ضيق بتسبيح الله جل جلاله، وإذا ما جافاكَ البِشْر أو ضايقك الخَلْق، فاعلم أنّك قادرٌ على الأُنْس بالله عز وجل عن طريق التّسبيح، ولن تجد أرحم منه ﷻ، وأنت حين تُسبّح ربّك عز وجل فأنت تُنزّهه عن كُلِّ شيءٍ وتحمده؛ لتعيش في كَنَف رحمته، ولذلك نجد أنّ الله ﷻ يقول في موقعٍ آخر: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصّافّات]، ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المُسبِّب، ونحن دائماً نقرن التّسبيح بالحمد، فالتّنزيه يكون عن النّقائص في الذّات أو الصّفات أو الأفعال، وسبحانه كاملٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، فذاتُه لا تُشْبِه أيَّ ذات، وصفاته أزليّة مُطْلقة، أمّا صفات الخَلْق فهي موهبةٌ منه ﷻ وحادثة، وأفعال الحقّ ﷻ لا حاكمَ لها إلّا مشيئته جل جلاله، ولذلك نجده عز وجل يقول في مسألة التّسبيح: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: من الآية ٣٦]، وهو القائل جل جلاله:

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم]، وكُلٌّ من المساء والصّباح آية منه ﷻ، فحين تغيب الشّمس، فهذا إذْنٌ بالرّاحة، وحين تصبح الشّمس فهذا إِذْنٌ بالانطلاق إلى العمل، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الّذي لا يشارك اللهَ ﷻ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً، فكأنّ سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزَع إلى ربّه ﷻ من قسوة الخَلْق؛ ليجد الرّاحة النّفسيّة؛ لأنّه يَأْوي إلى رُكْنٍ شديد، ونجد بعضاً من العارفين بالله ﷻ وهم يشرحون هذه القضيّة يقولون: "إذا أوحشك من خَلْقه فاعلم أنّه يريد أن يُؤنسك به"، وأنت حين تُسبّح الله ﷻ فأنت تُقِرّ بأنّ ذاته ليستْ كذاتِك، وصفاته ليست كصفاتك، وأفعاله ليست كأفعالك؛ وذلك كلّه لمصلحتك، فقدرتك وقدرة غيرك من البشر هي قدرة عَجْزٍ وأغيار، أمّا قدرته ﷻ فهي ذاتيّة فيه ومُطْلقة وأَزليّة، وهو الّذي يأتيك بالنِّعم كُلّها، ولهذا فعليك أنْ تصحبَ التّنزيه بالحمد، فأنت تحمد ربّك؛ لأنّه مُنزَّهٌ عن أنْ يكونَ مثلك، والحمد لله ﷻ واجب في كلّ وقت، فسبحانه الّذي خلق المواهب كلّها لِتخدُمَك، وحين نرى هذا العطاء كلّه من الله ﷻ فيجب أن نسبّحه ونحمده ﷻ، وهو ﷻ المعطي والمانع.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: فالسّجود هو المَظْهر الواسع للخضوع، وأقرب ما يكون العبد من الرّبّ عند السّجود، كما قال النّبيّ ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(١)، وعندما يضع الإنسان وجهه على الأرض فهو لا يتذلّل لبشر، وإنّما يرتقي فوق البشر، ومَنْ يسجد بأرقى ما

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّلاة، باب ما يُقال في الرّكوع والسّجود، الحديث رقم (٤٨٢).

فيه، فهذا خضوعٌ يُعطي عِزّة، ومَنْ يخضع لله ﷻ شكراً له على نعمه، فسبحانه يعطيه من العزّة ما يكفيه، فالسّجود هو قمّة الخضوع لله ﷻ، وليس عبوديّة البشر للبشر، وإنّما هو عطاءٌ:

حسبُ نفسي عزّاً بأنّي عبدُ   يحتفي بي بلا مواعيد ربُّ
هو في قُدْسِه الأعزّ ولكن   أنا ألقاه متى وأين أحبّ

(الآية ٩٩) - ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾:

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾: العبادة هي إطاعة العابد لأوامر المعبود إيجاباً أو سَلْباً، وهي تطبيق (افعل) و(لا تفعل)، وتطبيق لوظائف الإيمان، فكلّ آيةٍ في القرآن الكريم تأتي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فما بعدها هو أمرٌ واجب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: من الآية ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحجرات: من الآية ١٢]... إلخ، وكثيرٌ من النّاس يظنّون أنّ العبادة هي الأمور الظّاهريّة في الأركان الخمسة من شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً، ونقول لهم: لا، هذه هي أركان العبادة؛ لأنّ النّبيّ ﷺ قال: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ

الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[١]، فهذه الخمس بُنِيَ عليها الإسلام؛ أي: أنّها البنْية الّتي تقوم عليها بقيّة العبادات، وكُلّ ما لا يقوم الواجب إلّا به فهو واجب؛ أي: أنّ حركة الحياة كلّها حتّى كَنْس الشّوارع، وإماطة الأذى عن الطّريق هي عبادة، يقول النّبيّ ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**»[٢]، فكلّ ما يُقصد به نَفْع العباد هو عبادة، فهذا هو المفهوم الحقيقيّ.

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾: أمّا اليقين بالغيبيّات فهو من خُصوصيّات المؤمن، فمن آمن بالقرآن الكريم وصَدَّق بما جاء به، فهو يؤمن بما أخبر عنه القرآن الكريم، والمثَلُ الواضح في ذلك هو سيّدنا أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه حينما كانوا يُحدِّثونه بالأمر الغريب من رسول الله ﷺ، فكان يقول: "ما دام قد قال فقد صدق"، أمّا المشكّك والكافر -والعياذ بالله- فهو يشكُّ في كلّ شيءٍ غيبيٍّ أو حتّى مادّيّ ما لم يكن محسوساً لديه، ولكن ما إنْ يأتيه الموت حتّى يعلمَ أنّه اليقين الوحيد، ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: "ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشّكِّ من يقين النّاس بالموت"، وكلّنا على يقين أنّنا سوف نموت، ونرى الميّت يؤخذ من بيته وأهله وأحبابه ويُدفَن أمام أعيننا، لكِنَّنا نُزحزِح مسألة اليقين هذه

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**»، الحديث رقم (٨).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

بعيداً عَنَّا مع أنّها واقعةٌ لا محالةَ، فإذا ما جاء الموت، نقول: ها هي اللّحظة الّتي لا ينفع فيها شيءٌ إلّا عمل الإنسان إذا كان مؤمناً مُؤدِّياً لحقوق الله ﷻ، ولذلك إنّ اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكّداً، بحيث لا يطفو إلى الذّهن لِيُناقَش من جديد، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تُبَلِّغك به، أمّا عَيْن اليقين، فهي الّتي ترى الحدث فتتيقّنه، أو هو أمرٌ حقيقيٌّ يدخل إلى قلبك فَتُصدِّقه، وهكذا يكون لليقين مراحل: أمرٌ تُصدِّقه تَصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذّهن لِيُناقَش من جديد، وله مصادر عِلْم مِمَّنْ تثق بصدقه، أو: إجماعٌ من أناس لا يجتمعون على الكذب أبداً، وهذا هو (علم اليقين)، قال ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⑧﴾ [التكاثر]، فإذا رأيتَ الأمر بعينيك فهذا هو حقّ اليقين، والمؤمن يُرتِّب تصديقه وتيقّنه على ما بلغه من رسول الله ﷺ، وها هو الإمام عليّ كرّم الله وجهه وأرضاه يقول: "ولو أنّ الحجاب قد انكشف عن الأمور الّتي حدّثنا بها رسول الله ﷺ غيباً ما ازددتُ يقيناً"، وها هو سيّدنا حارثة رضي الله عنه يقول: "عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، قَالَ ﷺ: «**يَا حَارِثَةُ، عَرفْتَ فَالْزَمْ**» -قَالَهَا ثَلَاثًا-(١)، وذلك هو اليقين كما آمنَ به صحابة رسول الله ﷺ.

وهنا نتوقّف لحظات عند موضوع اليقين، فالإيمان حقيقةً هو يقينٌ بما

---

(١) شُعَب الإيمان للبيهقيّ: باب الزّهد وقصر الأمل، الحديث رقم (١٠١٠٧).

أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به في القرآن الكريم، وهناك أمورٌ تتعلّق بالحياة الدّنيا، وهناك أمورٌ غيبيّة، والإيمان لا يكون إلّا بما هو غيب، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنّسبة إلينا موجودٌ، وهو بالنّسبة إلينا غيبٌ؛ لأنّنا لا نراه؛ أي: لا يمكن أن يُدرَك بالحواسّ جَلَّ جَلَالُهُ، وكذلك الإيمان بالملائكة -عليهم السّلام-، والكتب والرّسل -عليهم السّلام- واليوم الآخر، هذه كلّها من عناصر وأركان الإيمان، كلّها تكون بالغيبيّات، ويجب أن تكون في مقام اليقين بالنّسبة إلى الإنسان؛ لأنّ الموضوع الّذي يُناقش تجريبيّاً وعقليّاً هو الموضوع المتعلّق أوّلاً بوجود الله عَزَّ وَجَلَّ، هل هو موجود؟ هل هو خالق؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]، فأنت عندما تؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تؤمن به من خلال العلم، ومن خلال معطيات المخلوقات، ومن خلال ما أوجده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن خلال هذه المعطيات العلميّة والعقليّة يجب أن يكون الإيمان هو إيمان يقين بما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، فتؤمن بالرّسول الكريم، وتؤمن بالقرآن الكريم، فأنت عندما آمنت بالله عَزَّ وَجَلَّ وتيقّنت بالقرآن الكريم، وتيقّنت برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقليّاً وعلميّاً ووجدانيّاً وأخلاقيّاً، فبعد ذلك كلّ ما يخبر عنه القرآن الكريم أصبح في مناط اليقين بالنّسبة إلى المؤمن، فإذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لك: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر]، فلا نشكّ للحظةٍ واحدة بأنّ السّاعة آتية، وإذا قال المولى جلّ وعَلا: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزّخرف: من الآية ٤٤]، فلا نشكّ في السّؤال للحظةٍ واحدة، وإذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ

﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر]، فلا نشكّ للحظةٍ واحدة أنّ الإنسان في قبره إمّا أن يكون منعّماً وإمّا أن يكون معذّباً، ولا نشكّ للحظةٍ واحدة عندما تحدّث المولى ﷻ عن وجود الملائكة أنّ الملائكة -عليهم السّلام- خَلْقٌ من مخلوقاته ﷻ، وعندما يقول ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات]، فلا نشكّ للحظةٍ واحدة أنّ الجنّ من مخلوقاته ﷻ، فمرحلة اليقين تأتي عندما يصبح الإنسان مؤمناً بالله ﷻ وبرسول الله ﷺ، وبالقرآن الكريم، فهذه الأمور نعيدها إلى هذا المصدر الأوّل.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (النّحل)

الآيات: (١-١٢٨)

سورة (النحل)

سورة النّحل هي السّورة السّادسة عشرة من سور القرآن الكريم، وهي مكّيّة، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هي مكّيّة إلّا ثلاث آيات نزلت في المدينة بعد استشهاد سيّدنا حمزة رضي الله عنه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل]، فهذه الآيات نزلت في المدينة المنوّرة بعد معركة أحد، وباقي السّورة مكّيّ.

تُسمَّى سورة النّحل سورة (النِّعَم)؛ لكثرة ما عدّد الله سبحانه وتعالى فيها من نِعَمِه على الإنسان، وسُمّيت سورة (النّحل)؛ لقوله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النّحل].

(الآية ١) - ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾:

﴿أَتَىٰ﴾: فعلٌ ماضٍ، يدلّ على زمنٍ مضى ووقع.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: يشير إلى أمرٍ سابقٍ سيقع، لكنّ القائل هو الله عزّ وجلّ، فأمره عزّ وجلّ واقعٌ لا محالة، فالله سبحانه وتعالى خارج دائرة الزّمن.

وهكذا تبدأ هذه السّورة الجليلة مُوضِّحةً أنّ قضاءَ الله جلّ جلاله وحُكمه بنصر الرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين واقعٌ لا شَكَّ فيه ولا محَالة، وأنّ هزيمة أهل الشّرك قادمة، ولا مَفرَّ منها إنْ هُم استمرُّوا على الكفر، وقد سبق أنْ أنذرهم الرّسول صلى الله عليه وسلم بما نَزل عليه من آيات الكتاب الكريم في السّورة السّابقة، وبيّن أنّه نذيرٌ مبينٌ، وقد

قال ﷻ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: من الآية ٧٧]، وكذلك قال جَلَّ جَلالُه: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر]، وهكذا وعد الله ﷻ هو وعدٌ محقّقٌ، وهو وعدٌ من قادرٍ على إنجاز وعده، وعندما قال ﷻ: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر]، فهو يُطَمْئِن النّبيّ ﷺ والمؤمنين.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذَرون به، كما قال مرّةً: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر]، وساعة سَمِع الكُلُّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فَزِعوا، بمن فيهم من المسلمين، وجاء من بعد ذلك:

﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾: أي: أنّ الأمر الّذي يُعلنه محمّد ﷺ لا يَعْلَم ميعادَه إلّا الله ﷻ، واطمأنَّ المسلمون، وكُلُّ حَدَثٍ من الأحداث كما نعلم يحتاج إلى ظرفَيْن؛ ظرْفِ زمانٍ وظرْفِ مكانٍ، والأفعال الّتي تدلُّ على هذه الظّروف إمّا فِعْلٌ مَاض؛ فظرْفُه كان قبل أن نتكلَّم، أو فعلٌ مضارع؛ أي: أنّه حَلَّ، إلّا إنْ كان مقروناً بـ (س) أو بـ (سوف)؛ أي: أنّ الفعل سيقع في مستقبلٍ قريبٍ إنْ كان مقروناً بـ (س)، أو في المستقبل غير المحدّد والبعيد إن كان مسبوقاً بـ (سوف)، وهكذا تكون الأفعال ماضياً، وحاضراً، ومستقبلاً.

وكلمة: ﴿أَتَىٰٓ﴾ تدلُّ على أنّ الّذي يُخبرك، وهو الله ﷻ، إنّما يُخبِرك بشيءٍ قد حدث قبل الكلام، بينما البشر يتكلّمون عن أشياءَ وقعتْ، ويُخبِرون بها بعضَهم بعضاً، والله ﷻ حين يتكلَّم بالقرآن الكريم لا ينقص عِلْمه أبداً، فهو علمٌ أَزَليٌّ، وهو ﷻ قادرٌ على أن يأتِيَ المستقبل وَفْق ما قال، وقد أعدَّ توقيت ومكان كُلّ شيءٍ من قبل أنْ يخلقَ، وهو ﷻ خالقٌ من قبل أن يخلق أيّ شيءٍ، فالخَلْق صفةٌ ذاتيّةٌ فيه، وهو مُنزَّه في كلّ شيءٍ؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ

﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾؛ أي: نزِّهوا الله جَلَّجَلَالُهُ فليس له مثيلٌ لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله، وهو العليمُ بزمن وقوع كُلِّ حَدَث، وقد ثبت التّسبيح له ذاتاً من قَبْل أن يوجد الخَلْق، فهو القائل: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء]، ثمّ خلق السّموات والأرض وغيرهما؛ أي: أنّه مُسبّح به من قَبْل خَلْق السّموات والأرض، وهو القائل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحشر: من الآية ١]، ولكن هل انتهى التّسبيح؟ بالتّأكيد لا، بل التّسبيح مُستمِرٌّ أبداً، فهو القائل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: من الآية ١]، فقد ثبتتْ له (السُّبْحَانيّة) في ذاته، ثمّ وُجِد الملائكة يُسبِّحون اللّيلَ والنّهارَ ولا يفترُون، ثمّ خلق السّماء والأرض، فسبَّح ما فيهما وما بينهما، وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً، فيا مَنْ آمنتَ بالله عَزَّوَجَلَّ إلهاً سَبِّح كما سَبَّحَ الكون كُلُّه، ولقائلٍ أنْ يسألَ: وما علاقة قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ بما يُشرِكون؟ ونعلم أنّهم أشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ آلهةً لا تُكلِّفهم بتكليفٍ تعبُّديٍّ، ولم تُنزِل منهجاً، بل تُحلِّل لهم كُلَّ مُحرَّمٍ، وتخلوْ بذلك عن اتّباع ما جاء به الرُّسل -عليهم السّلام-، وهؤلاء هم مَنْ سيلقوْنَ الله عَزَّوَجَلَّ وتسألهم الملائكة: أين هم الشّركاء الّذين عبدتموهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ ولن يدفَع عنهم أحدٌ هَوْلَ ما يلاقونه من العذاب، وهكذا تعرَّفْنا على أنّ تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمرٌ ثابتٌ له قَبْل أنْ يُوجَد شيءٌ، وأمرٌ قد ثبت له بعد الملائكة، وبعد وجود السّموات والأرض، وهو أمرٌ طلب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من العبد المُخيَّر أن يفعله، وانقسم العبادُ قسمين: قِسْمٌ آمن وسبَّح، وقِسْمٌ لا يُسبِّح، فتعالى عنهم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنّهم مُشْركون.

(الآية ٢) - ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾:

﴿يُنَزِّلُ﴾: فالكلمة تُوحِي وتُوضِّح أنّ هناك عُلوّاً يمكن أن ينزِلَ منه شيءٌ إلى أسفل، ونضرب مثلاً قَوْل الله ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]؛ أي: أقبلوا لتسمعوا مِنّي التّكليفَ الّذي نزل لكم مِمَّنْ هو أعلى منكم، ولا تظلُّوا في حضيض الأرض، بل تَساموا وخُذوا الأمر مِمَّنْ لا هَوى لَه في أموركم، وهو الحقّ الأعلى ﷻ، أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة، ونعلم أنّ الملائكة خَلْقٌ غيبيٌّ آمنّا به؛ لأنّ الله ﷻ قد أخبرنا بوجودهم، وكُلّ ما غاب عن الذِّهْن دليله السّماع مِمَّنْ نثق بصدقه، وقد أبلغنا النّبيّ ﷺ ما نزلَ به القرآن الكريم وأنبأنا بوجود الملائكة، وأنّ الحقّ ﷻ قد خلقهم، ومع أنّنا لا نراهم إلّا أنّنا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الله ﷻ من الصّادق الصَّدُوق نبيّنا محمّد ﷺ، وحين يقول الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، فنحن نعلم أنّه لا يمكن أنْ ينزلَ شيءٌ من أعلى إلى الأدْنى إلّا بواسطة المُقرّبات، وقد اختار الله ﷻ مَلَكاً من الملائكة لِيُبلّغ رُسُلَه -عليهم السّلام- بالوحي من الله ﷻ، والملائكة كما أخبرنا الله ﷻ: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء: من الآية ٢٦ - الآية ٢٧]، ويقول في آيةٍ أخرى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، وهم خُلِقوا من نور، ولا تصيبهم الأغيار، ولا شهوةَ لهم فلا يتناكحون ولا يتناسلون، وهم أقربُ إلى الصَّفَاء، وهم مَنْ يُمكِنهم التّلقِّي من الأعلى ويبلّغون الأَدْنى، ولذلك نجد الله ﷻ يقول

عن القرآن الكريم: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشّعراء]، وهنا يقول ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، والآية الإجماليّة الّتي تشرح ذلك هي قَوْلُ الحقّ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجّ]؛ أي: أنّه ﷻ يختار ملائكةً قادرين على التّلقّي منه لِيُعْطوا المصطفَين من النّاس؛ لِيُبلّغ هؤلاء المُصْطفَين عن الله ﷻ بقيّة النّاس، ذلك أنّه لا يملك الكائن الأَدْنى طاقة من العُلْويّات العالية أن يتحمَّل ما تتنزَّل به الأمور العُلْويّة مباشرةً من الحقّ ﷻ.

﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: وكلمة الرّوح وردتْ في القرآن الكريم بمعَانٍ متعدّدة، فهي مرَّة الرّوح الّتي بها الحياة في المادّة ليحدث بها الحسّ والحركة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر]، وهذا النّفْخ في المادّة يحدثُ للمؤمن والكافر، وهناك رُوحٌ أُخْرى تُعطي حياةً أعلى من الحياة الموقوتة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٤]، فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله ﷻ بما فيه حياة أَرْقى من الحياة الّتي نعيش بها على الأرض، وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة؛ رُوحٌ للحِسِّ والحركة، وروحٌ تُعطي القِيم الّتي تقودنا إلى حياةٍ أخرى أَرْقى من الحياة الّتي نحياها، حياةٌ لا فناءَ فيها، ولذلك يُسمّي الحقّ ﷻ القرآنَ الكريم روحاً، فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، ويُسمّي الله ﷻ المَلَكَ الّذي ينزل بالقرآن الكريم روحاً، فيقول: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشّعراء]، ويشرح الله ﷻ أنّ القرآن الكريم روحٌ تعطينا حياةً أَرْقى، فيقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

[الأنفال: من الآية ٢٤]؛ أي: يدخل بكم إلى الحياة الأبديّة الّتي لا موْتَ فيها ولا خَوْف أن تفقد النّعمة أو تذهب عنك النّعمةُ، وهنا يُبلِّغنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّ القرآن الكريم ينزل مع الملائكة: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: تنزيلاً صادراً بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في موقعٍ آخر: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: من الآية ١١]، والسَّطْحيّون لا يلتفتون إلى أنَّ معنى: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: من الآية ١١] هنا تعني أنّهم يحفظُونه بأمرٍ من الله عَزَّ وَجَلَّ، والأمر هنا في الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها هو ما جاء في الآية الأولى منها: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النّحل: من الآية ١]، وهذا الأمر هو نتيجة لِمَا يشاؤه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حياةٍ للنّاس على الأرض، ونعلم أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له أوامر مُتعدِّدة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النّحل]، فإذا شاء أمراً جزئيّاً فهو يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وإذا أراد منهجاً فهو يُنزّله، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعةً فهو القائل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وهكذا نفهم أنّ معنى: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ هو: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود، سواء أكان معدوماً جزئيّاً، أم معدوماً كلّيّاً، أم معدوماً أزليّاً، وكُلّ ذلك اسمه أمرٌ، ولحظةَ أنْ يأمرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فنحن نَثِقُ أنّ مأمور الله عَزَّ وَجَلَّ يبرز، ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق]؛ أي: أنّها لم تسمع الأمر فقط، بل نفّذتْه فَوْر صدوره، دون أَدْنى ذرّة من تخلُّف، فأمْر الله عَزَّ وَجَلَّ يُنفَّذ فَوْر صدوره من الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمّا أَمْر البشر فهو عُرْضَةً أنْ يُطَاع أو يُعصَى.

﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾: وسبحانه يُنزِّل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء لِيُنذِروا، ولم يَأْتِ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالبشارة هنا؛ لأنّ الحديث مُوجّهٌ إلى الكفّار في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ

﴿ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١]، ونزّه ذاته قائلاً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾ [النّحل: من الآية ١]، أو أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنبّه رسوله، إذا دخلتَ عليهم ففسِّر لهم مُبْهَم ما لا يعرفون، وهم لا يعرفون كيفيّة الاصطفاء والاجتباء والاختيار، وهو الحقّ الأعلم بمَنْ يصطفي، ومشيئته الاصطفاء إنّما تتِمّ بمواصفات الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو القائل: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢٤].

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: وعُلِم أنّ الكافرين قد قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في رَدِّه عليهم: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢]، فهي ليست أماني واختيارات للبشر.

أو: أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوضِّح لرسوله ﷺ: بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحي، فعليك أنْ تُبلِّغهم كلمة الله جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾: وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرّسول أن يُسْدِي لهم النّصيحة؛ بأن يَقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إلهٍ، ويُوضِّح لهم أنّه لا إله إلّا هو، وعليهم أنْ يتّقوه؛ أي: أن يجعلوا بينهم وبين عذابه وقايةً، وفي هذا حنانٌ من الحقّ جَلَّ جَلَالُهُ على الخَلْق.

وقَوْل الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ هو جماعُ عقائدِ السّماء للأرض، وجماعُ العباداتِ الّتي طلبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من خَلْقه لِيُنظِّم لهم حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً، فكأنّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ تفسيرٌ لِمَا أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ على الملائكة من الرُّوح الّتي قُلْنا من قبل: إنّها الرّوح الثّانية الّتي يَجِيء بها الوَحْي، وتحمِلُ منهجَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليضمن لِلْمُعتَنِق حياةً لا يزول نَعيمها أبداً وهي الجنّة، وهي غَيْر الرّوح الأولى الّتي إذا نفخها

الحقّ جَلَّالَهُ في الإنسان، فالحياة تدبُّ فيه حركةً وحِسّاً، وكأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته بخَلْقه أن أنزلَ لهم المنهج الّذي يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أَسْرى الحياة الفانية وحدها، ومن رحمته أيضاً أن حذّرهم من المصير السّيّئ الّذي ينتظر مَنْ يكفر به، ومثل هذا التّحذير لا يصدر إلّا مِنْ مُحبٍّ، فسبحانه يُحِبّ خَلْقه، ويُحِبّ أنْ يكونوا مُخلِصين له مؤمنين، وأنْ ينعموا في آخرة لا أسبابَ فيها؛ لأنّهم سيعيشون فيها بكلمة: ﴿كُن﴾ من المُسبّب، فإذا قال لهم: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فهو يُوضِّح أنّه لا إله غيره، فلا تشركوا بي شيئاً، ولا تكذّبوا الرّسل، وعليكم تطبيق المنهج الّذي يُنظِّم حياتكم وسيُجازى عليه الإنسان في الآخرة، وإيّاكم أنْ تغترُّوا بأنِّي خلقتُ الأسباب مُسخّرةً لكم، فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب، وقد أردتُ الحياة بلاءً واختباراً، وفي الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: من الآية ١٦].

﴿فَٱتَّقُونِ﴾: التّقوى كما قلنا: أن تجعل بينك وبين عذاب الله عَزَّوَجَلَّ وبين صفات جلال الله جَلَّالَهُ شديد العقاب حاجزاً.

(الآية ٣) - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾:

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: الحقّ هو الأمر الثّابت الّذي لا يتغيّر.

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: أي: تنزّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يشركون معه من آلهة، فلا أحدَ قد ساعده في خَلْق الكون وإعداده، فكيف تجعلون أنتم معه آلهةً غيره؟! سبحانه قد خلق لنَا من قبل أن يخلقنا السّموات والأرض وقدّر الأرزاق، ولو نظرنا إلى خَلْقِنا لوجدنا العَالَمَ الكبير قد انطوى فينا، وهو القائل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات]، ونحن مخلوقات من مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

(الآية ٤) - ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾: النّطفة الّتي نجيء منها، هي الحيوان المَنَويّ الّذي يتزاوج مع البويضة الموجودة في رَحم المرأة فتنتج العلقة، وسبحانه القائل: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة]، ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوان المنويّ الواحد نظراً لِدقَّته المتناهية، ومطمورٌ في هذا الحيوان المنويّ الخصائص كُلّها الّتي تتّحد مع الخصائص المَطْمورة في بُويْضة المرأة ليتكوَّن الإنسان، وقد شاء الله سبحانه وتعالى ألّا ينفُذَ إلى البويضة إلّا الحيوانُ المنويّ القويّ؛ لِيُؤكِّد لنا أنّه لا بقاء إلّا للأصلح، ونحن نرى مِثْل ذلك في النّبات، فأوَّل حبَّة قمح كانت مثل آدم عليه السلام كأوّل إنسان بالطّريقة الّتي نعرفها، وفي تلك الحبَّة الأولى أوجد الله سبحانه وتعالى مضمون حبوب القمح كلّها من بعد ذلك، وإلى أنْ تقومَ السّاعة، وتلك عظمةُ الحقّ سبحانه وتعالى في الخَلْق، وقد أوضح لنا الحقّ سبحانه وتعالى في أكثر من موضعٍ بالقرآن الكريم مراحل خَلْق الإنسان، فهو: ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السّجدة: من الآية ٨]، وهو من نطفة، ومن علقة، ثمّ مضغة مُخلّقة وغير مُخلَّقة، والحيوان المنويّ المُسمَّى (نُطْفة) هو الّذي يحمل خصائص الأنوثة أو الذّكورة كما أثبت العلم الحديث، وليس للمرأة شَأْنٌ بهذا التّحديد، وكأنّ في ذلك إشارةً إلى مهمّة المرأة كسكَنٍ؛ لأنّ البُويْضة تتلقّى الحيوان المنويّ وتحتضنه؛ ليكتمل النّمو إلى أنْ يصير كائناً بشريّاً: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ

﴿يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨﴾ [القيامة]، والعلقة جاء اسمها من مهمّتها، حيث تتعلّق بجدار الرَّحمِ كما أثبت العِلْم المعاصر، يقول ﷻ: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، والمُضغْة هي الشّيء المَمْضُوغ، ثمّ يَصِف ﷻ المضغة بأنّها: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحجّ: من الآية ٥]، ولقائلٍ أن يتساءل: نحن نفهم أنّ المُضْغة المُخَلَّقة فيها ما يمكن أن يصير عيناً أو ذراعاً، ولكن ماذا عن غير المُخَلّقة؟ والجواب: إنّها رصيدٌ احتياطيٌّ لصيانة الجسم، فإذا كنتَ أيّها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْتٍ تشتري بعضاً من الأشياء الزّائدة تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداثٍ تحتاج فيها إلى قطع غيار، فما بالنا بالحقّ الّذي خلق الإنسان؟ لقد جعل الله ﷻ تلك المُضْغة غير المُخلَّقة رصيداً للصّيانة، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروفٍ، وتكون زائدة في الجسم وكأنّها مخزنٌ لقطع الغيار، والمثال هو الجروح الّتي تُصيب الإنسان، نجدها تلتئم دون أنْ تتركَ نَدْبةً أو علامةً، ذلك أنّه قد تَمَّ علاجها من الصّيدليّة الدّاخليّة الّتي أودعها الله ﷻ في الجسم ذاته، والمفاجأة هي أنّ هذا الإنسانَ المخلوق لله ﷿:

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾: يتمرَّد على خالقه، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أنّ هناك إلهاً، متجاهلين أنّهم بقوّة الله ﷻ فيهم يتجادلون، والخصيم هو الّذي يُجادل ويُنكِر الحقائق، فإذا حُدِّث بشيءٍ غيبيٍّ، يحاول أنْ يدحضَ معقوليّته، ويقول ﷻ في سورة يس: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾ [يس]، وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك، ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاكَ فَعَدلك، وفي أيِّ صورةٍ ما شاء رَكَّبك.

(الآية ٥) - ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾:

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾: جاء تفصيل الأنعام في موقعٍ آخر حين قال الحقّ تبارك وتعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: ١٤٣- من الآية ١٤٤]، وهي الضَّأن والمَعْز والإبل والبقر.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى الأنعام وتحدّث فيها أوّلاً عن الدّفء، والدِّفْءُ هو الحرارة للمبرود، وفي الأنعام منافع كثيرة؛ فنحن نشرب لبنها، ونصنع منه الجُبْن والسّمن، ونجزّ الصّوف لنغزل وننسج منه ملابس صوفيّة، وتحمل الأثقال، ونستفيد من ذرّيّتها، وكذلك نأكل لحومها.

ونعلم أنّ الدِّفْءَ يأتي من الصُّوف والوَبَر والشَّعْر، ومَنْ يلاحظ شعر المَعْز يجد كلّ شَعْرة بمفردها، لكنّ الوبر الّذي نجزّه من الجمل يكون مُلبّداً، وهذا دليلٌ على دِقّة فَتْلته، أمّا الصّوف فكلّ شعرةٍ منه أنبوبة أسطوانيّة.

(الآية ٦) - ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾:

وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى التّرف أيضاً بجانب الضّروريّات، فالدِّفْء والمنافع والأكل ضروريّات للحياة، أمّا الجَمال فهو من تَرَف الحياة، والجمال هو ما تراه العين، فيتحقّق السّرور في النّفس، والدِّفْء والمنافع والأكل هي أمورٌ خاصّة لِمَنْ يملك الأنعام، أمّا الجمال فمشاعٌ عَامٌّ للنّاس، فحين ترى حصاناً جميلاً، أو بقرةً مَزْهُوّةً بالصّحّة، فأنت ترى نعمة الله سبحانه وتعالى الّتي خلقها لِتسُرّ النّاظر إليها،

والله ﷻ قد قدَّم الرَّواح؛ أي: العودة إلى الحظائر عن السُّروح؛ لأنّ البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أنْ ترعى تكون بطونُها ممتلئةً وضُروعها رابِية حافلة باللّبن، فيسعد مَنْ يراها.

(الآية ٧) - ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾:

نعلم أنّ الإنسانَ في حياته بين أمرين، إمّا مقيم وإمّا مسافر، والمسافر يحتاج إلى وسيلة للتّنقّل، ووسائل النّقل سابقاً كانت الدّوابّ الّتي سخّرها الله ﷻ لتنقل النّاس وتحمل أثقالهم، ومَنْ كانت لديه إبلٌ صحيحة أو خيولٌ قويّة، فلا يفكّر بالمسافات مهما بعدت، ولذلك نجد القرآن الكريم حين تكلّم عن أهل سبأ يقول: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [سبأ: من الآية ١٩]، وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خَيْل ووسائل سفر من دوابّ سليمة وقويّة.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾: يعني وضع ما يَثْقل على ما يُثَقّل؛ ولذلك فنحن لا نجد إنساناً يحمل دابّته، بل نجد مَنْ يحمل أثقاله على الدّابّة ليُخفِّف عن نفسه حَمْل أوزانٍ لا يقدر عليها، وهذه من النّعم الّتي تحدّث عنها المولى ﷻ.

﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾: وكلمة: ﴿بِشِقِّ﴾ مصدرها شَقّ، وهو الصِّدْع بين شيئين، ويعني عَزْل متّصلين، قال ﷻ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: من الآية ٩٤]، وهناك (شَقّ) وهو الجهد.

﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾: والصّفتان هنا هما الرّأفة والرّحمة، وصفة الرّحمة هي أشمل وأعمّ من صفة الرّأفة، وممّا جاء في التّفاسير القديمة عن الفارق

بين الرّأفة والرّحمة: بأنّ الرّحمة تمنع وقوع الدّاء والمصيبة على الإنسان، أمّا الرّأفة فتشفي وتخفّف عن الإنسان ما وقع به، لذلك نجد بعض النّاس لا يفرّق بين الصّفتين: الرّأفة والرّحمة.

(الآية ٨) - ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾:

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾: بعد أن ذكر لنا الله ﷻ الأنعام الّتي نأخذ منها المأكولات، يذكر لنا في هذه الآية الأنعام الّتي نستخدمها للتّنقّل أو للزّينة ولا نأكل لحومها، وهي: الخَيْل والبِغَال والحمير، ويُذكِّرنا بأنّها للرّكوب والمنفعة مع الزّينة؛ ذلك أنّ النّاس تتزيَّن بما تَرْكب، تماماً كما يفخر أبناءُ عصرِنا بالتّزيُّن بالسّيّارات الفارهة.

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت النّاس في المراتب، فكلُّ مرتبةٍ من النّاس لها ما يُناسبها لِتركبه، فالخَيْل للسّادة والفرسان والأغنياء، ومَنْ هم أقلُّ يركبون البغال، ومَنْ لا يملك ما يكفي لشراء الحصان أو البغل، فيمكنه أنْ يشتريَ لنفسه حماراً، وهناك مَنْ يقتني الخَيْل ويُربّيها ويُروِّضها لجمال منظرها.

﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: عندما نزل القرآن الكريم كانت الخيل والبغال والحمير هي وسائل المواصلات، لكنّ الله ﷻ أعطى إشارةً لما سيأتي بعد ذلك، فقد طوّر العلم من وسائل المواصلات: من درّاجة إلى درّاجة ناريّة إلى سيّارة إلى طيّارة إلى صاروخ إلى مركبة فضائيّة.. وهكذا، وليست هذه هي نهاية المطاف، ولكنّ الله ﷻ ترك المجال مفتوحاً لوسائل المواصلات ولمخترعات الإنسان.

(الآية ٩) - ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾:

عندما يتحدّث المولى ﷻ عن أمور الحياة فإنّه يربطها بالهدف الأسمى من الحياة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: السّبيل هو الطّريق، والقَصْد هو الغاية، وهو مصدر يأخذون منه القول: (طريقٌ قاصد)؛ أي: طريقٌ لا دورانَ فيه ولا التفاف، وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْده، وهو عبادة الله ﷻ وُصولاً إلى الغاية، وهي الجنّة، جزاءً على الإيمان وحُسْن العمل في الدّنيا، وقد علّمنا ﷻ في سورة الفاتحة أن ندعو: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة]، والمستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين، وقول الحقّ ﷻ هنا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يجعلنا نعود بالذّاكرة إلى ما قاله إبليس -لعنه الله- في حواره مع الله ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: الآية ٨٢ - ٨٣]، وردَّ الله ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر]، فالله ﷻ صراطه هو الصّراط المستقيم، وقوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يدلُّ على أنّ الطّريق المرسوم غايتُه موضوعة من الله ﷻ، والطّريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الله ﷻ الّذي لا هَوىً له، وسبيل الإيمان يكون قاصداً للغاية الّتي وضعها ﷻ، ذلك أنّ من السُّبل ما هو جائرٌ؛ ولذلك قال:

﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾: الجائر: هو المائل عن الحقّ، المنحرف عنه، وحين يكون قَصْد السّبيل على الله ﷻ، فالله لا هَوىً له ولا صاحبَ، ولا ولدَ له، ولا يحابي

أحداً، والخَلْق بالنّسبة إليه سواء؛ ولذلك فهو حين يضع طريقاً فهو يضعُه مستقيماً لا عِوجَ فيه، ولكي يمنع الجَوْر جعل سبيلَ الإيمان قاصداً.

(الآية ١٠) - ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ﴾: وقول الله ﷻ هذا قد يبدو قولاً بسيطاً بالنّسبة إلينا، ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل الّتي تُقطِّر المياه وتُخلِّصها من الشّوائب لوجدنا أنّ العمليّة معقّدة حتّى نصل إلى الماء الصّافي الّذي يمكن أن يُشرَب. ونحن نرى السّحاب الّذي يأتي نتيجة تبخير الشّمس للمياه من المحيطات والبحار، فيتكوَّن البخار الّذي يتصاعد، ثمّ يتكثَّف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك، وينزل المطر على الأرض، ونعلم أنّ الكرة الأرضيّة مُكوَّنة من محيطات وبحار تُغطِّي ثلاثة أرباع مساحتها، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبْع الكرة الأرضيّة، فكأنّه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضيّة المائيّة قد خُصِّصَت لخدمة رُبْع الكرة الأرضيّة اليابس.

ومن العجيب أنّ المطر يسقط في مواقع قد لا ننتفع به، مثل بعض الهضاب فالله ﷻ يسوق المطر لتكون هناك مخازن للمياه.

﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾: ولولا عمليّة البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً، لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يشربَ الماء المالح الموجود في البحار، ومن حكمة الله ﷻ أن جعل مياه البحار والمحيطات مالحةً، فالمِلْح يحفظ المياه من الفساد.

﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: وكلمة: ﴿شَجَرٞ﴾ تدلُّ على النّبات الّذي يلتفُّ مع بعضه، ومنها كلمة: (مشاجرة) الّتي تعني التّداخل من الّذين يتشاجرون معاً.

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: من سَام الدّابّة الّتي تَرْعى في المِلْك العامّ، وساعة ترعى الدّابّة في المِلْك العامّ فهي تترك آثارها من مَسَارب وعلامات.

(الآية ١١) - ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾:

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾: وهكذا يُعلِّمنا الله سبحانه وتعالى أنّ النّبات لا ينبت وحده، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبِته، وهنا يَخصُّ الحقّ سبحانه وتعالى ألواناً من الزّراعة لها أَثَر في الحياة، ويذكر الزّيتون والنّخيل والأعناب وغيرها من الثّمرات كلّها. والزّيتون كما نعلم يحتوي على مواد دُهْنيّة، والعنب يحتوي على مواد سُكّريّة، وكذلك النّخيل الّذي يُعطي البلح، يحتوي على مواد سُكّريّة، وغذاء الإنسان يأتي من النّشويات والبروتينات.

وما ذكره الله سبحانه وتعالى أوّلاً عن الأنعام، وما ذكره عن النّباتات يُوضِّح لنا أنّه قد أعطى الإنسان مُكوِّنات الغذاء، فهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التّين]؛ أي: أنّه جعل للإنسان في قُوته البروتينات والدُّهنيّات والنّشويّات والفيتامينات الّتي تصون حياته.

وعلينا أنْ نستقبلَ قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ في ضَوْء قَوْل الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ

﴿ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة]، ذلك أنّك تحرثُ الأرض فقط، أمّا الزّارع الحقيقيّ فهو قدرة الله ﷻ، لذلك قال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾؛ لأنّه لولا قدرة الله ﷻ ونِعَمه ما كان لنا أن ننبت هذه النّباتات.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾: أي: أنّ ما تأخذه هو جزءٌ من الثّمرات؛ ذلك أنّ الثّمرات كثيرة، وهي أكثر من أن تُعَدّ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾: هذه الآية هي عجيبةٌ من العجائب الّتي تدلّ على وجوده وقدرته، فطلب من الإنسان إعمال العقل، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: أنّ مهمّة التّفكير يجب ألّا تنحصر في شخصٍ واحدٍ فقط أو بأشخاص، بل إنّ على المجتمع كلّه أن يُعمل عقله وفكره حتّى يستطيع أن يصل إلى مرادات الله ﷻ من خلقه.

ونجد في القرآن الكريم آيات تنتهي بالتّذكُّر والتّفكُّر والتّدبُّر والتّفقُّه، وكُلٌّ منها تؤدّي إلى العلم اليقينيّ، فحين يقول: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، فالمعنى أنّه يجب أن يتذكّر من هذه النّعم الموجودة وجود الله ﷻ، ولذلك يقول الحقّ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمّد]، فالتّدبّر هو أن تعلم المآلات والنّهايات، وأن تُعمِل العقل والفكر في كلّ أمرٍ من هذه الأمور.

(الآية ١٢) - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾: نعلم أنّ اللّيل والنّهار آيتان واضحتان، واللّيل يناسبه القمر، والنّهار تناسبه الشّمس، وهم جميعاً

متعلّقون بفعلٍ واحدٍ، وهم نسق واحد، والتّسخير يعني قَهْر مخلوق لمخلوق؛ لِيُؤدِّي كُلٌّ مهمّته، وتسخير اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، كُلٌّ له مهمّة، فاللّيل مُهمّته الرّاحة والسّكون، قال ﷻ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٣﴾ [القصص]، والنّهار مهمّته أنْ تكدحَ في الأرض لتبتغي رِزْقاً من الله ﷻ وفَضْلاً، والشّمس جعلها مصدراً للطّاقة والدِّفْء، وفيها عطاءات لا تُعَدّ ولا تُحصَى، وقد أثبت العلم ذلك، وهي تُعطِيك دون أنْ تسألَ، ولا تستطيع هي أن تمتنعَ عن العطاء؛ لأنّها مسخّرة للإنسان، وهي ليست مِلْكاً لأحدٍ غير الله ﷻ، بل هي من نظام الكون الّذي أعدّه الله ﷻ ولم يجعل ﷻ لأحدٍ قدرةً عليه، حتّى لا يتحكَّم أحدٌ في أحدٍ، وليس هناك تعارضٌ بين اللّيل والنّهار، بدليل قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [اللّيل]؛ أي: أنّ اللّيل والنّهار وإنْ تقابلا فليسَا متعارضين بل متكاملين؛ كما أنّ الذّكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمّة كلٍّ منهما بل لتتكامل.

ويقول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ١١﴾ [النّبأ]، وهذا من عطاءات الله ﷻ.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: وهذه جملةٌ جديدة، ونلحظ أنّه لم يَأْتِ بالنّجوم معطوفةً على ما قبلها، بل خَصَّها الحقّ ﷻ بجملةٍ جديدة مع أنّها أقلُّ الأجرام، وقد لا نتبيَّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها، ولكِنّا نجد الحقّ ﷻ يُقسِم بها، فهو القائل: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة]، فكلُّ نجمٍ من تلك النّجوم البعيدة له مُهمّة في الخلق، وهو ﷻ القائل:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل]، وقد خصَّها الله ﷻ هنا بجملةٍ جديدة مستقلّة أعاد فيها خبر التّسخير، ذلك أنّ لكلٍّ منها منازلَ، وهي كثيرة على العَدِّ والإحصاء، وبعضها بعيدٌ لا يصلنا ضوؤه إلّا بعد ملايين السّنين، وقد خصَّها الحقّ ﷻ بهذا الخبر من التّسخير حتّى نتبيّنَ أنّ لله ﷻ أسراراً في كلّ ما خلق بين السّماء والأرض.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾: نعلم أنّ الآيات هي الأمورُ العجيبة الّتي يجب ألّا يمرَّ عليها الإنسان مروراً مُعرِضاً، بل عليه أنْ يتأمّلَها، ففي هذا التّأمّل فائدة له.

وكلمة: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: تعني إعمالَ العقل، ونعلم أنّ للعقل تركيبةً خاصّةً، وهو يستنبط من المُحسّات الأمورَ المعنويّة، وبهذا يأخذ من المعلوم نتيجةً كانت مجهولةً بالنّسبة إليه، فيَسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله، وهذه هي الاكتشافات الّتي يصل إليها الإنسان من خلال إعمال عقله، وهكذا يكتشف الإنسان من أسرار الكون ويستنبط من أسراره ما شاء الله ﷻ له أنْ يستنبطَ.

(الآية ١٣) - ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: كلمة: ﴿ذَرَأَ﴾ تعني أنّه خلق خَلْقاً يتكاثر بذاته، إمّا بالحَمْل للأنثى من الذَّكَر، في الإنسان أو الحيوان والنّبات، وإمّا بواسطة تفريخ البيض كما في الطّيور، وهكذا نفهم الذَّرْءَ بمعنى أنّه ليس مطلقَ خَلْق، بل خلق بذاته في التّكاثر بذاته، والحقّ ﷻ قد خلق آدم ؏ أوّلاً، ثمّ

أخرج منه النّسل ليتكاثر النّسلُ بذاته حين يجتمع زوجان وينتجان مثيلاً لهما، ولذلك قال الحقّ ﷻ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، وهكذا شاء الحقّ ﷻ أن يفيض على عباده بأن يُعطِيهم صفة أنّهم يخلقون، ولكنّهم لا يخلقون كخَلْقه، فهو قد خلق آدم عليه السلام من عدمٍ ثمّ أوجدهم من نسله، والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعِدّات وأدوات حياتهم، لكنّهم لا يخلقون كخَلْق الله ﷻ، فهم لا يخلقون من معدوم، بل من موجود، والحقّ ﷻ يخلق من المعدوم مَنْ لا وجود له، وهو بذلك أحسَنُ الخالقين.

وهنا يقول الحقّ ﷻ:

﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾: أي: ما خلق لنا من خَلْق متكاثر بذاته تختلف ألوانه، واختلاف الألوان وتعدُّدها دليلٌ على طلاقة قدرة الله ﷻ في أنّ الكائنات لا تُخلَق على نَمَطٍ واحد، ويعطينا الله ﷻ الصّورة على هذا الأمر في قوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر]، وأنت تمشي بين الجبال، فتجدها من ألوانٍ مختلفة، وعلى الجبل الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقاتٍ مُتعدّدة، وهكذا تختلف الألوان بين الجمادات وبعضها، وبين النّباتات وبعضها بعضاً، وبين البشر أيضاً، وإذا ما قال الحقّ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، فلَنا أن نعرفَ أنّ العلماء هنا مقصودٌ بهم كُلّ عالِم يقف على قضيّة كونيّة مَرْكوزة في الكون أو نزلتْ من المُكوِّن مباشرة، ولم يقصد الحقّ ﷻ بهذا القول علماء الدّين فقط، فالمقصود هو كلّ

عالمٍ يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: يتذكّرون شيئاً مجهولاً بشيءٍ معلوم، لذلك لاحظنا نهاية الآيات على التّتالي، آية: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، هذه كلّها تدلّ دلالةً قاطعة على أنّ الإنسان مطلوبٌ منه أن يُعمل عقله وذهنه وفكره وأن يتدبّر، وألّا يأخذ الأمور بأنّها تلقين، وإنّما بالبحث والاستقراء والتّجريب والنّتائج، وأن يكون الإنسان عالماً بأسرار الكون كلّها؛ لأنّه من خلال هذه الأسرار يصل إلى عظمة وقدرة الله سبحانه وتعالى.

(الآية ١٤) - ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾: التّسخير كما علمنا: هو إيجاد الكائن لمهمّة لا يستطيع الكائن أنْ يتخلَّف عنها، ولا اختيارَ له في أنْ يؤدِّيها أو لا يُؤدِّيها، ونعلم أنّ الكون كلّه مُسخَّرٌ للإنسان قبل أنْ يُوجدَ، ثمّ خلق الله عز وجل الإنسان مُخْتاراً، وقد يظنّ بعض النّاس أنّ الكائنات المُسخَّرة ليس لها اختيارٌ، وهذا خطأ؛ لأنّ تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْه في بداية وجودها، ولنقرأْ قول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، وهكذا نفهم أنّ الحقّ سبحانه وتعالى خيَّر خلقه بين التّسخير وبين الاختيار، إلّا أنّ الكائنات الّتي هي دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرّةً

واحدةً، لذلك لا يجب أنْ يُقال: إنّ الحقّ ﷻ هو الّذي قهرها، بل هي الّتي اختارتْ من أوّل الأمر؛ لأنّها قدرتْ وقت الأداء، ولم تقدر فقط وقت التّحمّل كما فعل الإنسان، ونجد الله ﷻ يصف الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، فقد ظلم الإنسانُ نفسَه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة؛ لأنّه قدر وقت التّحمُّل ولم يقدر وقت الأداء، وهو جَهُولٌ؛ لأنّه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتّحمُّل، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسؤوليّة الأمانة، فلم تظلم نفسها بذلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾: فهذا يعني أنّه هو الّذي خلق البحر؛ لأنّه هو الّذي خلق السّموات والأرض، وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض، بينما البحار والمحيطات تحتلّ ثلاثة أرباع مساحة الأرض؛ أي: أنّه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضاً من الطّعام فيقول:

﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: ومن بعض عطاءات الحقّ ﷻ أن يأتي المَدُّ أحياناً ثمّ يَعْقبه الجَزْر، فيبقى بعض من السّمك على الشّاطئ، أو قد تحمل موجةٌ بعضاً من السّمك وتُلْقِيه على الشّاطئ.. وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان، بل إنّ وجودَ بعض من الأسماك على الشّاطئ هو الّذي نبَّه الإنسان إلى أهميّة أنْ يصنع السِّنارة، ويغزل الشّبكة، ثمّ ينتقل من تلك الوسائل البدائيّة إلى التّقنيّات الحديثة في صيد الأسماك، لكنّ الحلية الّتي يتمّ استخراجها من البحر وهي اللّؤلؤ، تقتضي أن يغوصَ الإنسان في القاع ليلتقطها، ويلفتنا الحقّ ﷻ إلى أسرار كنوزه، فيقول: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا

﴿تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾ [طه]، وكنوز الأمم كلّها توجد تحت الثّرى، وتسخير الحقّ ﷻ للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة الّتي هو عليها، بل قد نجد له أشياء أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى ﵇، حيث صار كلّ فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم، ومن قبل ذلك حين حمل اليَمّ موسى ﵇ بعد أن ألقتْه أمّه فيه بإلهامٍ من الله تعالى: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: من الآية ٣٩]، وهكذا نجد أنّ الله ﷻ أمر البحر أن يحملَ موسى ﵇ إلى الشّاطئ فَوْر أنْ تُلقيَه أمّه فيه، وهكذا يتّضح لنا معنى التّسخير للبحر في مهامٍّ أخرى، ونعلم أنّ ماءَ البحر مالح، عكس ماء النّهر وماء المطر، فالمائيّة تنقسم إلى قِسْمين؛ مائيّة عَذْبة، ومائيّة مِلْحيّة، ويقول الحقّ ﷻ عن ذلك: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ [فاطر: من الآية ١٢]، ويسمُّونهم الاثنين على التّغليب في قوله الحقّ: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩﴾ [الرّحمن]، والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح، ولكنّ الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض، ولو حفرنا في قاع البحر لوجدنا ماءً عَذْباً، فالحقّ ﷻ هو الّذي شاء ذلك وبيَّنه في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزّمر: من الآية ٢١]، وهنا يقول ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾، واللّحم إذا أُطلِق يكون المقصود به اللّحم المأخوذ من الأنعام، أمّا إذا قُيِّد بـ (لحم طريّ) فالمقصود هو السّمك، وهذه مسألة من إعجازيّة التّعبير القرآنيّ؛ لأنّ السّمك الصّالح للأكل يكون طَريّاً دائماً، ونجد مَنْ يشتري السّمك وهو يَثْني السّمكة، فإنْ كانت طريَّة فتلك علامةٌ على أنّها صالحةٌ للأكل، وإنْ كانت لا تنثني فهذا يعني أنّها فاسدة، وأنت إنْ أخرجتَ سمكةً من البحر تجد لحمها طَرِيّاً، فإنْ

ألقيتَها في الماء تعود إلى السّباحة والحركة تحت الماء، أمّا إن كانت ميتة فهي تنتفخ وتطفو، لذلك نهى النّبيّ ﷺ عن أكل السّمك الطّافي؛ لأنّه المَيْتة، وتقييد اللّحم هنا بأنّه طريّ كي يخرجَ عن اللّحم العاديّ وهو لَحْم الأنعام، ولذلك نجد العلماء يقولون: مَنْ حلفَ ألّا يأكل لَحْماً، ثمّ أكل سمكاً فهو لا يحنث؛ لأنّ العُرْف جرى على أنّ اللّحم هو لَحْم الأنعام.

﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾: نجد أنّ هذه المسألة تأخذ جهداً؛ لأنّ فيها رفاهية، أمّا السّمك فقال عنه مباشرة: ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾، والأكْل أمرٌ ضروريٌّ، لذلك تكفّله الله سبحانه وتعالى وأعطى التّسهيلات في صَيْده، أمّا الزّينة فلكَ أنْ تتعبَ لتستخرجها، فهو من تَرَف الحياة، فيقتضي منك أنْ تغطسَ في الماء وتتعبَ من أجله، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ مَنْ يريد أنْ يرتقيَ في معيشته فَعليه أن يتعب أكثر.

﴿حِلۡيَةٗ﴾: والحِلْية كما نعلم تلبسها المرأة.

﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾: ولم تكُن هناك بواخر كبيرة كالّتي في عصرنا هذا، بل فُلُك صغيرة، ونعلم أنّ نوحاً عليه السلام هو أوّل مَنْ صنع الفُلْك، وسَخِر منه قومه، ولو كان ما يصنعه أمراً عاديّاً لَمَا سَخِروا منه، وبطبيعة الحال لم يَكُنْ هناك مسامير لذلك ربطها بالحبال، ولذلك قال الحقّ سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر]، وجرى مركب نوح عليه السلام بإرادة الله عز وجل، ولم يكُنْ العلْم قد تقدَّم ليصنع البشر المراكب الضّخمة الّتي تنبّأ بها القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤﴾ [الرّحمن].

﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾: المَاخِر: هو الّذي يشقّ حلزومه الماء، والحُلْزوم: هو

الصّدر، ونجد مَنْ يصنعون المراكب يجعلون المقدّمة حادّةً لتكون رأس الحربة الّتي تشقّ المياه بخرير، وفي هذه الآية امتنَّ الله سبحانه وتعالى على عباده بثلاثة أمور: صيد السّمك، واستخراج الحُليّ، وسَيْر الفلْك في البحر، ثمّ يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ؛ فيقول:

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾: عندما يرى الإنسان الماءَ وهو يحمل الجسم الصَّلْب للباخرة يجد متعة، فضلاً عن أنّ هذه البواخر تحمل الإنسانَ والبضائع من مكانٍ إلى مكانٍ.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: ولا يُقال ذلك إلّا في سَرْد نعمةٍ آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشّكر من العقل العاديّ والفطرة العاديّة، وشاء سبحانه وتعالى أنْ يترك الشُّكر للبشر على تلك النّعم، ولم يُسخّرهم شاكرين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: من الآية ٣].

(الآية ١٥) - ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾:

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾: وهكذا يدلُّنا الله سبحانه وتعالى على أنّ الأرض قد خُلِقت على مراحل، ويشرح ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ [فصِّلت]، فجِرْم الأرض العامّ قد خُلِق أوّلاً، وهو مخلوقٌ على هيئة الحركة؛ ولأنّ الحركة هي الّتي تأتي بالتّأرجُح يميناً وشمالاً؛ لذلك جعل في الأرض الرّواسي لتجعلها تبدو

ثابتة غير مُقلقة، والرَّاسي: هو الّذي يَثبت، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله سُبحانه وتعالى الجبال، ولكنّه خلقَ الأرض على هيئة الحركة، فالأرض تتحرّك وتدور، وهذا بنصّ القرآن الكريم قبل أن يكتشف العلم ذلك، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض، وفي آيةٍ أخرى يقول سُبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النّمل: من الآية ٨٨]، وكلمة: ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾ تدلُّ على أنّ الجبال شيءٌ متماسكٌ وُضِع ليستقرّ، ثمّ يعطف سُبحانه وتعالى على الجبال:

﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾: ولم يَأْتِ الحقّ سُبحانه وتعالى بفعل يناسب الأنهار، ومن العجيب أنّ الأسلوب يجمع جماداً في الجبال، وسيولةً في الأنهار، وسبلاً؛ أي: طرقاً، وكُلُّ ذلك:

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾: أي: أنّ الجعْل كلَّه لعلّنا نهتدي، ونعلم أنّ العرب كانوا يهتدون بالجبال، ويجعلون منها علامات، أو:

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ باتّعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم، كي تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم.

(الآية ١٦) - ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾:

﴿وَعَلَٰمَٰتٖ﴾: أي: أنّ ما تقدّم من خَلْق الله سُبحانه وتعالى هو علاماتٌ تدلُّ على ضرورة أنْ تروا المنافع الّتي أودعها الله سُبحانه وتعالى فيما خلق لكم، وتهتدوا إلى الإيمان بإلهٍ مُوجِد لهذه الأشياء لمصلحتكم.

وما سبق من علامات مَقرُّه الأرض، سواء الجبال أم الأنهار أم السُّبل، وأضاف الله سُبحانه وتعالى إليها في هذه الآية علامةً توجد في السّماء، وهي النّجوم،

ونعلم أنّ كلَّ مَنْ يسير في البحر إنّما يهتدي بالنّجم، وتكلّم عنها الله ﷻ هنا كتسخير مُخْتصّ، ولم يُدخِلها في التّسخيرات المتعدّدة؛ لأنّ نجماً يقود لنجم آخر، وهناك نجوم لم يصلنا ضوؤها بعد، وننتفع بآثارها من خلال غيرها.

ونعلم أنّ قريشاً كانت لها رحلتان في العام: رحلة الشّتاء، ورحلة الصّيف، وكانت تسلك سبلاً متعدّدة، فتهتدي بالنّجوم في طريقها، ولذلك لا بدّ أن يكون عندها خبرة بمواقع النّجوم.

ويقول الحقّ ﷻ: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، قد فضَّل الحقّ ﷻ هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أنْ تُؤدّي المعنى؛ هي: (يهتدون بالنّجم)، و(بالنّجم يهتدون)، والثّالث: هو الّذي استخدمه الله ﷻ فقال:

﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾: وذلك تأكيدٌ على خبرة قريش بمواقع النّجوم؛ لأنّها تسافر كلّ عام رحلتين، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة.

والضّمير ﴿هُمۡ﴾ جاء ليعطي خصوصيّتين؛ الأولى: أنّهم يهتدون بالنّجم لا بغيره، والثّانية: أنّ قريشاً تهتدي بالنّجم، بينما غيرُها من القبائل لا تستطيع أن تهتدي به.

(الآية ١٧) - ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾:

وهنا في هذه الآية لم يَقُل الله ﷻ: (أتجعلون مَنْ لا يخلق مِثْل من يخلق)، بل قال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ووراء ذلك حكمة، فهؤلاء الّذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنّها إله، وتوهّموا أنّ الله ﷻ مخلوقٌ مثل تلك الأصنام؛ ولذلك جاء القول الّذي يناسب هذا التّصوُّر، والله

تبارك وتعالى يريد أنْ يُبطِل هذا التّصوُّر من الأساس، فأوضح أنّ مَنْ تعبدونهم هم أصنامٌ من الحجارة وهي مادّة ولها صورة، وأنتم صنعتموها على حَسْب تصوُّركم وقدراتكم، وفي هذه الحالة يكون المعبود أقلَّ درجةً من العابد وأدنى منه، فضلاً عن أنّ تلك الأصنام لا تملك لِمَنْ يعبدها ضرّاً ولا نفعاً، ثمّ: لماذا تدعون الله سُبحانه وتعالى إنْ مسَّكُم ضُرٌّ؟ إنّ الإنسان يدعو الله جلّ جلاله في موقف الضّرّ؛ لأنّه لحظتها لا يجرؤ على خداع نفسه، أمّا الآلهة الّتي صنعوها وعبدوها لا تسمع الدّعاء: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر]، فكيف تساوون بين مَنْ لا يخلق، ومن يخلق؟ إنّ عليكم أنْ تتذكَّروا، وأنْ تتفكَّروا، وأن تُعْمِلوا عقولكم فيما ينفعكم.

(الآية ١٨) - ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾: هذه الآية سبقتْ في سورة إبراهيم، فقال الحقّ سُبحانه وتعالى هناك: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم]، واختلفت نهاية الآية.

وهنا الحديث عن النِّعَم، قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، والنّعمة الواحدة لا تُعَدّ، المفرد لا يُعَدّ، لكن أيّ نعمةٍ من نِعَم الله عزّ وجلّ تُعَدّ؛ لأنّها مجموعةٌ كبيرةٌ من النِّعَم، نضرب مثالاً الماء، فهو نعمةٌ تشتمل على نِعَمٍ لا تُحصَى ولا تُعَدّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: أي: أنّكم مع كُفْركم سيزيدكم من النّعم، ويعطيكم من مناط الرّحمة، فمنكم الظّلم، ومن الله ﷻ الرّحمة والمغفرة.

وكأنَّ تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية الّتي في سورة إبراهيم، حيث قال هناك: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، فهو ﷻ غفورٌ لجحودكم ونُكْرانكم لجميل الله ﷻ، وهو رحيمٌ، فيوالي عليكم النِّعَم مع أنّكم ظالمون وكافرون.

(الآية ١٩) - ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾: السِّر كما نعلم هو ما يحبسه الإنسان في نفسه، أو ما أسرّ به لغيره، وطلب منه ألّا يُعلِمه لأحد، والله ﷻ يعلم السِّرّ، بل يعلم ما هو أَخْفى من السّرّ، فهو القائل: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: من الآية ٧]، فهو يعلم ما تسرّون وما تعلنون من إنكاركم وجحودكم بالنّعم، أو من شكركم للنّعم.

(الآية ٢٠) - ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾:

أي: أنّهم لا يستطيعون أنْ يخلقوا شيئاً؛ أي: الأصنام، بل هم يُخْلقون، والإنسان هو الّذي خلق الأصنام وصنعها، فكيف يستوي أنْ يكونَ المعبود أَدْنى من العابد؟ وذلك تسفيهٌ لعبادتهم، فهذه الآلهة لا تَخلق بل تُخلَق، والله ﷻ هو الخالق لكلّ شيءٍ، وسبحانه القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ

شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحجّ].

ويذكر الحقّ ﷻ من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام:

(الآية ٢١) - ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾:

﴿أَمۡوَٰتٌ﴾: وهم بالفعل أموات؛ لأنّهم بلا حِسٍّ ولا حركة.

﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾: قوله هذا يُفيد أنّه لم تكُنْ لهم حياة من قَبْل، ولم تثبت لهم الحياة في دورةٍ من دورات الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام، فهم لا يخلقون شيئاً، بل هم مخلوقون بواسطةِ مَنْ نَحتُوهم، وتلك الأصنام والأوثان لن تكون لها حياة في الآخرة، بل ستكون وَقُوداً للنّار، والحقّ ﷻ هو القائل: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافّات]، وبطبيعة الحال لن تشعرَ تلك الحجارةُ ببعْث مَنْ عبدوها.

(الآية ٢٢) - ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾:

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾: وقَوْله ﷻ هذا يمنع أنْ يكونَ هناك أفرادٌ غيره مثله، وقد يتصوَّر بعضهم أنّها تُساوي كلمة: (أحد)، وأقول: إنّ كلمة (أحد) هي منع أن يكونَ له أجزاء، فهو مُنزَّهٌ عن التَّكْرار أو التّجزيء. وفي هذا القول طَمْأنةٌ للمؤمنين بأنّهم قد وصلوا إلى قِمَّة الفهم والاعتقاد بأنّ الله ﷻ واحد.

أو: هو يُوضِّح للكافرين أنّ الله ﷻ واحدٌ، وستعودون إليه غَصْباً، وبهذا القول يكشف الله ﷻ عن الفطرة الموجودة في النّفس البشريّة الّتي شهدتْ في

عالم الذَّرِ أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحدٌ لا شريك له، وأنّ القيامة والبعث حَقٌّ، ولكنّ الّذين لا يؤمنون بالله عَزَّ وَجَلَّ وبالآخرة هم مَنْ ستروا عن أنفسهم فطرتهم، فكلمة الكفر كما سبق أنْ قلنا هي سترٌ يقتضي مستوراً، والكفر يستر إيمانَ الفطرة الأولى، والّذين يُنكرون الآخرة إنّما يَحْرِمون أنفسهم من تصوُّر ما سوف يحدث حَتْماً، وهو الحساب الّذي سيجازي بالثّواب والحسنات على الأفعال الطّيّبة، وبالنّار على السّيّئات، ويَصِفُهم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: أنّهم لا يكتفُون بإنكار الآخرة فقط، بل يتعاظمون من غير وجهٍ للعظمة.

و(استكبر)؛ أي: نصَّب من نفسه كبيراً من غير أنْ يملكَ مُقوِّمات الكِبر، ذلك أنّ (الكبير) يجب أن يستندَ إلى مُقوِّمات الكِبَر، ويضمن لنفسه أنْ تظلَّ تلك المُقوِّمات ذاتيّةً فيه، ولكِنَّا نحن البشر أبناءُ أغيارٍ، فالصّغير يكبر، والصّحيح يمرض، والحيّ يموت، لذلك لا يصِحُّ لنا أنْ نتكَبَّر أبداً، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده هو صاحب الحقّ في التّكبُّر، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الّذي تبلغ صفاته ومُقوِّماته منتهى الكمال، وهي لا تزول عنه أبداً.

(الآية ٢٣) - ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: ساعة نرى ﴿لَا جَرَمَ﴾ فمعناها أنَّ ما يأتي بعدها هو حَقٌّ ثابت، فـ ﴿لَا﴾ نافية، و﴿جَرَمَ﴾ مأخوذةٌ من (الجريمة)، وهي كَسْر شيءٍ مُؤْمَن به لسلامة المجموع، وحين نقول: ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: أنّ ما بعدها حَقٌّ ثابت، وما

بعد ﴿لَا جَرَمَ﴾ هنا هو: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾، وكُلُّ آيات القرآن الكريم الّتي ورد فيها قوله الحقّ ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ تُؤدِّي هذا المعنى، مثل قوله الحقّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾ [النّحل: من الآية ٦٢]، وكذلك قوله الحقّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النّحل]، وقد قال بعض العلماء: إنّ قول الحقّ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يحمل معنى (لا بُدَّ)، وهذا يعني أنّ قول الحقّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾؛ أي: لا بُدَّ أن يعلم الله ﷻ ما يُسِرّون وما يُعلِنون، ولا مناصَ من أنّ الّذين كفروا هم الخاسرون. وقد حَلَّلَ العلماء اللّفظ لِيصِلوا إلى أدقِّ أسراره، وعِلْم الله ﷻ لا ينطبق على الجَهْر فقط، بل على السِّرّ أيضاً؛ ذلك أنّه سيحاسبهم على الأعمال.

ويُنهِي الحقّ ﷻ الآية بقوله:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾: وإذا سألنا: ما علاقةُ عِلْم الله ﷻ بالعقوبة؟ نقول: ألم يقولوا في أنفسهم: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٨]؟ فهو يعلم ما في نفوسهم، وهذا دليلٌ على أنّ مَنْ يُبلِّغهم صادقٌ في البلاغ عن الله ﷻ، ومع ذلك فقد استكبروا وتأبَّوْا وعاندوا، وأخذتهم العزّة بالإثم، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الّذي جاءهم به رسول الله ﷺ.

(الآية ٢٤) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾:

وقوله الحقّ: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ يُوضِّح الاستدراك الّذي أجراه الله ﷻ على لسان الـمُتكلِّم؛ ليعرفوا أنّ لهم ربّاً، ولو لم يكونوا مؤمنين بِربٍّ، لأعلنوا

ذلك، ولكنّهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال، ولم يعترضوا على أنّ لهم ربّاً، وهذا دليلٌ على إيمانهم بربٍّ خالقٍ، ولكنّهم يعترضون على محمّد ﷺ وما أُنزِل إليه من الله سبحانه وتعالى.

﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: الأساطير: الأكاذيب، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أقرُّوا بالألوهيّة، ورفضوا أيضاً القول المُنْزل إليهم، ومنهم من قال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: من الآية ٥].

(الآية ٢٥) - ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾:

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ﴾: يُوضّح الله سبحانه وتعالى أنّ النّفس البشريّة لها أحوالٌ متعدّدة، وإذا أسرفتْ على نفسها في تلك الجوانب، فقد تُسرف في الجانب الأخلاقيّ، والجانب الاجتماعيّ، وغير ذلك، فتأخذ وِزْر كُلّ ما تفعل.

ويُوضِّح هنا المولى سبحانه وتعالى أيضاً أنّ تلك النّفس الّتي ترتكب الأوزار حين تُضِلّ نفساً غيرها فهي لا تتحمّل من أوزار النّفس الّتي أضلَّتها إلّا ما نتجَ عن الإضلال، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾، ذلك أنّ النّفس الّتي تمّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالاتٍ أخرى ما لا يرتبط بعمليّة الإضلال، والحقّ سبحانه وتعالى أعدل من أنْ يُحمّل حتّى المُضِلّ أوزاراً لم يكُنْ هو السّبب فيها؛ ولذلك قال الحقّ سبحانه وتعالى هنا:

﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾: أي: أنّ المُضِلّ يحمل أوزار نفسه، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الّذين أضلّهم، تلك الأوزار النّاتجة عن الإضلال،

وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، إنّما يلفتنا إلى ضرورة ألّا تُلهينا الدّنيا عن أهمِّ قضيّةٍ تشغل بال الخليقة، وهي البحث عن الخالق الّذي أكرم الخَلْق، وأعدَّ الكون لاستقبالهم.

ويَصِف الحقّ سبحانه وتعالى مَنْ يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار مَنْ أضلوهم: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: أي: ساء ما يحملون من آثام، فهم لَمْ يكتفوا بأوزارهم، بل صَدُّوا عن سبيل الله عزّ وجلّ، ومنعُوا غيرهم أنْ يستمعَ إلى قضيّة الإيمان، ومن نتيجة ذلك أنْ يُبيح مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً مِمَّا حرّم الله عزّ وجلّ، فيتحمّل مَنْ صدَّهم عن السّبيل وِزْر هذا الإضلال، ولذلك يقولون: شَرُّكم مَنْ باع دينه بِدُنْياه، وشَرٌّ منه مَنْ باع دينه بِدُنْيا غيره، فمَنْ باع الدّين ليتمتّع قليلاً، يستحقّ العقاب، أمّا مَنْ باع دينه ليتمتّعَ غيرُه فهو الّذي سيجد العقاب الأشدَّ من الله عزّ وجلّ.

(الآية ٢٦) - ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ويأتي الله سبحانه وتعالى هنا بسيرة الأوّلين والسُّنن الّتي أجراها سبحانه وتعالى عليهم، ليسلّي رسوله ﷺ، ويُوضِّح له أنّ ما حدث معه ليس بدْعاً، بل سبق أنْ حدث مع مَنْ سبق من الرّسل والأنبياء -عليهم السّلام-، ويُبلّغه أنّه لم يبعث أيَّ رسولٍ إلّا بعد أن تَعُمّ البَلْوى ويَطمّ الفساد، ويفقد البشر المناعة الإيمانيّة، نتيجة افتقاد مَنْ يؤمنون ويعملون الصّالحات، ويتواصون

بالحقِّ وبالصّبر، لذلك قال ﷻ: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والمكر: تبييتٌ خفيٌّ يُبيِّته الماكر بما يستر عن المَمْكُور به، ولكن حين يمكر أحدٌ بالرّسل -عليهم السّلام-، فهو يمكر بمَنْ يُؤيِّده الله ﷻ العليم الخبير، وهؤلاء الّذين يمكرون بالرّسل -عليهم السّلام- لم يتركهم الحقّ ﷻ من غير عقاب:

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾: أي: أنّهم إنْ جعلوا مكرهم كالبناء العالي، فالحقُّ ﷻ يتركهم لإحساس الأمن المُزيّف، ويحفر لهم مِنْ تحتهم، فيخِرّ عليهم السّقف الّذي من فوقهم، وهكذا يضرب الله ﷻ المثَل المعنويّ بأمرٍ مُحَسٍّ، وقوله الحقّ:

﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾: كأنّهم موجودون داخل بيت، وأنّ الفوقيّة هنا للسّقف، وهي فوقيّة شاءها الله ﷻ ليأتيهم:

﴿ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: وهكذا يأتي عذاب الله ﷻ بَغْتة، ذلك أنّهم قد بيّتوا، وظنّوا أنّ هذا التّبييت بخفاءٍ يَخْفَى عن الحَيِّ القيّوم، ولَيْتَ الأمرَ يقتصر على ذلك، لا بل يُعذِّبهم الله ﷻ في الآخرة:

(الآية ٢٧) - ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾:

﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾: هكذا يكون العذاب في الدّنيا وفي الآخرة، ويَلْقوْن الخِزْي يوم القيامة، والخِزْي: هو الهوان والمَذلّة، وهو أقوى من الضّرب والإيذاء، ولا يتجلّد أمامه أحدٌ، فالخِزْي قشعريرة تَغْشَى البدن، فلا يُفلت منها

مَنْ تُصيبه، وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام، فالخِزْي معنى نفسيّ، والمعاني النّفسيّة تنضح على البشرة، ولا يقدر أحدٌ أنْ يكتم أثرها؛ لأنّه يقتل خميرة الاستكبار الّتي عاش بها الّذي بيَّت ومكر.

ويتابع ﷻ متحدّياً:

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾: أي: أين الشّركاء الّذين كنتم تعبدونهم؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة، وجعلتم من المؤمنين شُقَّة أخرى، وكلمة: ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ مأخوذةٌ من: (الشّقّ)، ويُقال: (شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب)، والمقصود هنا: لقد جعلتم المؤمنين، ومَنْ مع الرّسول ﷺ في شُقَّة تُعادونها، وأخذتُم جانب الباطل، وتركتُم جانب الحقّ.

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله ﷻ العلم:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: وكأنّ هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحقّ ﷻ بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ، وسيحضره الّذين آتاهم الله ﷻ العلم، والعلم كما نعلم يأتي من الله ﷻ مباشرةً، ثمّ يُنقَل إلى الملائكة، ثمّ من الملائكة الكرام إلى الرُّسل -عليهم السّلام-، ثمّ يُنقل من الرُّسُل -عليهم السّلام- إلى الأُمم الّتي كلَّفَ الحقّ ﷻ رسله أنْ يُبلِّغوهم منهجه، ونعلم أنّ الرّسول ﷺ قد قال: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[1].

ويقول الحقّ ﷻ من بعد ذلك:

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الحجّ، باب الخطبة أيّام منى، الحديث رقم (١٧٤١).

(الآية ٢٨) - ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أي: تتوفّاهم في حالة كَوْنهم ظالمين لأنفسهم، وفي آيةٍ أخرى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النّحل: من الآية ١١٨]، ومعلومٌ أنّ الإنسان قد يظلم غيره، فكيف يظلم نفسه؟ هذا يسمّونه الظّلم الأحمق، حين يظلم الإنسان نفسه الّتي بين جنبيه؛ لأنّه يقدّم شهوةً عاجلةً على نعيمٍ دائمٍ.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أثبتت هذه الآية التّوفِّي للملائكة -عليهم السّلام-، والتّوفّي حقيقة لله سبحانه وتعالى، كما جاء في قوله جل جلاله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٤٢]، لكن لمّا كان الملائكة -عليهم السّلام- مأمورين، فكأنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يتوفّى الأنفُسَ مع أنّه سبحانه وتعالى قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزّمر: من الآية ٤٢]، وقال جل جلاله: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السّجدة]، وقال عز وجل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: من الآية ٦١]، فجاء الحَدثُ من الله سبحانه وتعالى مرّةً، ومن ملك الموت مرّةً، ومن مُسَاعديه من الملائكة مرّةً أُخرَى، فالأمر إمّا للمزاولة مباشرةً، وإمّا للواسطة، وإمّا للأصل الآمر وهو الله سبحانه وتعالى، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾: معنى التّوفيّ من وفّاه حقّه؛ أي: وفّاه أجله، ولم ينقص منه شيئاً، كما تقول للرّجل: وَفَّيتُك دَيْنك؛ أي: أخذتَ ما لك عندي.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع، و﴿ظَالِمِىٓ﴾ يعني ظالمين، و﴿أَنفُسِهِمْ﴾ جمع، وحين يُقَابَل الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً؛ أي: أنّ

كلّاً منهم يظلم نفسه.

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾: أي: خضعوا واستسلموا، ولم يَعُدْ ينفعهم تكبّرهم وعجرفتهم في الدّنيا، ذهب عنهم كلّ هذا بذَهاب الدّنيا الّتي راحتْ من بين أيديهم، وما داموا ألقوا السّلم فقد كانوا في حربٍ قبل ذلك، كانوا في حربٍ مع أنفسهم ومع المؤمنين، وهم أصحاب الشِّقاق في قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ [النّحل: من الآية ٢٧]؛ أي: يجعلون أهل الحقّ في شِقٍّ، وهم في شِقٍّ، وكأنّهم رفعوا الرّاية البيضاء، وقالوا: لا جَلَد لنا على هذه الحرب.

﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾: هذا كقوله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام]، والواقع أنّهم بعد أنْ ألقَوا السّلم ورفعوا الرّاية البيضاء واستسلموا، أخذهم موقف العذاب، فقالوا محاولين الدّفاعَ عن أنفسهم: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾، وتعجَب من كَذِب هؤلاء على الله سبحانه وتعالى في مثل هذا الموقف، على مَنْ تكذبون الآن؟! فيردّ عليهم الحقّ سبحانه وتعالى:

﴿بَلَىٰٓۚ﴾: وهي أداةُ نفي للنّفي السّابق عليها، ومعلومٌ أنّ نَفْي النّفي إثباتٌ، فـ: ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ تنفي: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾، فمعناها: لا، بل عملتم السّوء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنّه لم يكتَفِ بالعلم فقط، بل دوَّن ذلك عليهم وسَجَّله في كتابٍ سَيُعرض عليهم يوم القيامة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: من الآية ٤٧]، وقال جل جلاله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء].

(الآية ٢٩) - ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: سبق أنْ قُلْنا في شرح قوله ﷻ في وصف جهنّم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر]؛ أي: أنّ لكلّ جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً، فبابٌ لأهل الرّبا، وبابٌ لأهل الرِّشوة، وبابٌ لأهل النّفاق.. وهكذا، ولنا أن نتصوّر ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصي، إنّه يدخل هذا الباب ثمّ يخرج منه ليدخل باباً آخر، فهم في تعاسةٍ كبيرة.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾: جاءت أيضاً بصورة الجمع، فكلّ واحدٍ منكم يدخل من بابه الّذي خُصِّص له.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: المثوى: هو مكان الإقامة، وقال ﷻ في موضعٍ آخر: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النّحل]، فتكبَّر على وزن (تفعَّل) يدلّ على أنّ كِبْرهم هذا غير ذاتيّ؛ لأنّ الّذي يتكبّر حقّاً يتكبّر بما فيه ذاتيّاً لا يسْلُبه منه أحد، إنّما مَنْ يتكبّر بشيءٍ لا يملكه فتكبّره غيرُ حقيقيّ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبَّروا به في الدّنيا، وبذلك لا يكون لأحدٍ أنْ يتكبّر؛ لأنّ الكبرياءَ الحقيقيّ لله ﷻ.

(الآية ٣٠) - ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾: قد سبق أنْ تحدّثنا عن قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النّحل]، فهذه لقطاتٌ تُبيّن الموقف الّذي انتهى بإقرارهم على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين، أمّا هنا فعن المؤمنين، وهذه الآياتُ نزلتْ في جماعةٍ كانوا داخلين مكّة، فقد قسَّم الكافرون أنفسهم على مداخل مكّة ليصدّوا الدّاخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنّبيّ الجديد ﷺ، وكان أهل الإيمان يتحيَّنون الفرصة ويخرجون على مشارف مكّة بحجّة رَعْي الغنم؛ ليقابلوا هؤلاء السّائلين؛ ليخبروهم خبر النّبيّ ﷺ وخبر دعوته، ممّا يدلُّ على أنّ الّذي يسأل عن شيءٍ لا يكتفي بأوّل عابرٍ يسأله، بل يُكرّر السّؤال، فحين سألوا الكافرين قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النّحل: من الآية ٢٤]، فلم يكتفوا بذلك، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم:

﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾: هذا لنفهم أنّ الإنسانَ إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادّتان فلا يكتفي بوجهةٍ واحدةٍ، بل يجب عليه أن يستمع للثّانية، ثمّ بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل، فحينما سأل الدّاخلون مكّة أهل الكفر: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النّحل: من الآية ٢٤]، وحينما سألوا أهلَ الإيمان والتّقوى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾، ونلاحظ هنا في قوله ﷻ: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، أنّ الحقّ ﷻ لم يوضّح لنا مَنْ هم، ولم يُبيّن هُويَّتهم، وهذا يدلُّنا على أنّهم يُدارون أنفسهم؛ لأنّهم ما زالوا ضِعَافاً لا يقدرون على المواجهة، وقد تكرّر هذا الموقف، موقف السّؤال إلى أنْ نصل إلى الوجهة الصّواب: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾، ما هو الخير؟ الخير كُلُّ ما تستطيبه النّفس بكلّ مَلكَاتها، لكنّ الاستطابة قد تكون موقوتة بزمنٍ، ثمّ تُورث حَسْرةً وندامةً، فهذا ليس خيراً؛ لأنّه لا خيرَ في خيرٍ بعده النّارُ، وكذلك لا شَرَّ في شرٍّ بعده

الجنّة، فيجب أن نعرف أنّ الخير يظلّ خيْراً دائماً في الدّنيا والآخرة، فلو أخذنا مثلاً متعاطي المخدّرات نجده يأخذ متعةً وقتيّةً ونشوةً زائفةً سرعان ما تزول، ثمّ سرعان ما ينقلب هذا الخير في نظره إلى شرٍّ عاجلٍ في الدّنيا وآجلٍ في الآخرة، فانظر إلى عمل الخير في نفسك وكيفيّته وعاقبته، وهذا هو الخير في قوله ﷻ: ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾، فهو خيرٌ تستطيبه النّفس، ويظلّ خيراً في الدّنيا، ويترتّب عليه خيرٌ في الآخرة، أو هو موصولٌ بخير الآخرة، ثمّ فسّره الله ﷻ في قوله:

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾: ونفهم من هذه الآية أنّه على المؤمن ألّا يترك الدّنيا وأسبابها، ويقول: ليس لي إلّا الآخرة، فربّما أخذها غيره، بل عليه أن يعمل ويتعلّم ويجدّ ويأخذ بالأسباب ويبحث في أسرار الله ﷻ في الكون، ولا ينبغي أن يترك الأخذ بأسباب الدّنيا، فعليك أيّها المؤمن أن تجتهد في أسباب الدّنيا، ولا يجوز أبداً أن يكون المؤمن متخلّفاً علميّاً ولا حضاريّاً، لذلك يقول ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾؛ أي: يأخذون حسناتهم، وتكون لهم اليَدُ العليا بما اجتهدوا، وبما عَمِلوا في دنياهم، فلا يقعد الإنسان ويرفع يديه إلى السّماء ويقول: يا ربّ أعطني، بل يرفع يديه بعد أن يعمل ويتعلّم، وبعد أن يبذل، وبذلك ينفع الإنسانُ نفسَه وغيره، وكلّما اتّسعت دائرة النّفع منك للنّاس كانت يدك هي العليا، وكان ثوابك وخَيْرك موصولاً بخير الآخرة، لذلك يقول النّبيّ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»(١)،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المزارعة، باب فضل الزّرع والغرس إذا أُكِلَ منه، الحديث رقم (٢٣٢٠).

ومن هذه الآية أيضاً يتّضح لنا جانبٌ آخر، هو ثمرة من ثمرات الإحسان في الدّنيا، وهو الأمن، فمَنْ كان في الدّنيا مستقيماً ومتعلّماً وعاملاً ومثقّفاً، ويبذل كلّ ما بجهده، يعيش آمناً مطمئنّاً، حتّى إذا داهمه شرٌّ أو مكروهٌ تجده آمناً لا يخاف.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾: والخير في الآخرة من الله ﷻ، والنّعيم فيها على قَدْر المُنعِم ﷻ، من غير تعبٍ ولا كَدٍّ ولا عملٍ، ومعلومٌ أنّ عبارة: ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ الّتي فسّرها الله ﷻ بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾، تقابلها كلمة: (شرّ)، هذا الشّرّ هو ما جاء في قول الكافرين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النّحل: من الآية ٢٤]، فهؤلاء قالوا: خيراً، وأولئك قالوا: شرّاً، ولكن إذا قيل: ذلك خيرٌ من ذلك، فقد توفّر الخير في الاثنين، إلّا أنّ أحدهما زاد في الخيريّة عن الآخر، وهذا معنى قول النّبيّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»(١)، لذلك لمّا قال الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾، قال: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾؛ أي: خيرٌ من حسنة الدّنيا، فحسنة الدّنيا خير، وأخير منها حسنة الآخرة.

ويُنهي الحقّ ﷻ الآية بقوله:

﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: أي: دار الآخرة، نِعْم هذه الدّار، الّتي هي نعيمٌ مقيمٌ، ثمّ أراد الله ﷻ أن يعطينا صورةً موجزةً عن دار المتّقين كأنّها برقيّة، فقال ﷻ:

---

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوّة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، الحديث رقم (٢٦٦٤).

(الآية ٣١) - ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾:

﴿جَنَّٰتُ﴾: الجنّات: تعني البساتين الّتي بها الأشجار والأزهار والثّمار والخضرة، ممّا لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أذُنٌ سَمِعَت، ولا خطر على قلب بشر، ليس هذا فقط، فهذه الجنّة الّتي أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يمكن أن يتصوّرها بشرٌ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الصّفّ: من الآية ١٢].

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: جنّات إقامة دائمة؛ لأنّ فيها كلّ ما يحتاجه الإنسان، فلا حاجة له إلى غيرها.

ويصف الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الجنّات فيقول:

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾: وفي آيةٍ أخرى يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التّوبة: من الآية ١٠٠]، ومعنى: ﴿تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ أي: أنّها تجري تحتها، وربّما تأتي من مكانٍ آخر.

﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾: ما يريدون وما يتمنّون، والمشيئة هنا ليست بإرادة الدّنيا ومشيئتها، وإنّما مشيئة بالمزاج الّذي يتناسب مع الآخرة ونعيمها.

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: هذه العطاءات والنّعم ودار النّعيم المقيم هي جزاء للمتّقين الّذين يجعلون بينهم وبين عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حاجزاً بالتّقوى وبالالتزام بما أمر به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزّخرف: من الآية ٧١]، وقال ﷺ: «**فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ**

رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]، هكذا الجزاء الّذي يستحقّونه بما قدّموا في الدّنيا، وبما حرَمُوا منه أنفسهم من مُتَعٍ حرام، وقد جاء الآن وقتُ الجزاء، وهو جزاءٌ أطول وأَدْوم؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقّة].

(الآية ٣٢) - ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾: المتّقون هم الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين، ومعنى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾؛ أي: تأتي لقبْض أرواحهم، وهنا نَسَب المولى سبحانه وتعالى التّوفّي إلى جملة الملائكة، كأنّهم جنود مَلَك الموت، وقد سبق أنْ قُلْنا: إنّ الله سبحانه وتعالى ينسب التّوفّي مرّةً إلى الملائكة، ومرّةً إلى مَلك الموت، قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السّجدة: من الآية ١١]، ومرّةً ينسبه إلى ذاته العليّة جلّ جلاله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٤٢]؛ ذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الآمر الأعلى، وعزرائيل مَلكُ الموت الأصيل، والملائكة هم جنوده الّذين يُنفّذون أوامره.

وقوله: ﴿طَيِّبِينَ﴾، تُقابل الآية السّابقة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النّحل: من الآية ٢٨]، والطّيّب هو الشّيء الّذي يوجد له خيرٌ دائمٌ لا ينقطع ولا ينقلب شرّاً، وهو الشّيء الّذي تستريح له النّفس، بشرط أن يكون مستمرّاً إلى خَيْرٍ منه، ولا يستمرّ إلى خَيْرٍ منه وأحسن إلّا طَيِّب القيم وطَيِّب

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، الحديث رقم (٢٨٢٥).

الدّين، أمّا غير ذلك فهو طيّب موقوتٌ سرعان ما يُهجر، وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشّقاوة، وما هُمْ عليه ساعةَ الغرغرة من سواد الوجه، وسُوء الخاتمة -والعياذ بالله-.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾: أي: حينما تتوفّاهم الملائكة -عليهم السّلام- يقولون لهم: سلام؛ لأنّكم خرجتم من الدّنيا بسلام، وستُقبِلون على الآخرة بسلام، فسلام الطّيّبين سلامٌ موصول من الدّنيا إلى الآخرة، سلامٌ مُترتِّب على سلامة دينكم في الدّنيا، وسلامة إقبالكم على الله عَزَّ وَجَلَّ، من غير خوفٍ من العذاب في الآخرة.

وهنا سلامٌ آخر جاء في قول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزّمر]، ثمّ يأتي السّلام الأعلى عليهم من الله جَلَّ جَلَالُهُ؛ لأنّ هذه السّلامات لهؤلاء الطّيّبين مأخوذةٌ من السّلام الأعلى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٥٨﴾ [يس]، وهل هناك أفضل وأطيب من هذا السّلام الّذي جاء من الحقّ تبارك وتعالى مباشرةً؟! ولا بدّ أن نذكر هنا سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطّيّبين وهم في الجنّة، ونحن نعلم أنّ أهل الأعراف هم قومٌ تساوتْ حسناتهم وسيّئاتهم فحُجِزوا على الأعراف، وهو مكانٌ بين الجنّة والنّار، والقسمة الطّبيعيّة تقتضي أنّ للميزان كفّتين ذكرهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ [القارعة]، هاتان حالتان للميزان، فأين حالة التّساوي بين الكفّتين؟! لقد جاءت في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ [الأعراف: من الآية ٤٦]؛ أي: يعرفون أهل الجنّة

وأهل النّار: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: من الآية ٤٦]، فلأهل الجنّة سلامٌ من الملائكة -عليهم السّلام- عند الوفاة، وسلامٌ عندما يدخلون الجنّة، وسلامٌ أعلى من الله جلّ جلاله، وسلامٌ حتّى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم.

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: لأنّكم دفعتم الثّمن، والثّمن هو عملكم الصّالح في الدّنيا، واتّباعكم لمنهج الله سبحانه وتعالى، وقد يرى بعض النّاس تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشّريف: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(1)، والحقيقة أنّه لا يوجد تعارضٌ بينهما، ولكن كيف نُوفِّق بين الآية والحديث؟ نوفّق في الأمر بأنّ الله سبحانه وتعالى يُوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم الحديث كما يُوحي له الآية، فكلاهما يصدر عن مِشْكاةٍ واحدةٍ ومصدرٍ واحدٍ، فعندما يُدخل الله سبحانه وتعالى النّاسَ الجنّة، هل يدخل الإنسان الجنّة بعمله إلّا من رحمة ربّه عزّ وجلّ؟ فلو أنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل جزاء العمل الجنّة، فهل يستطيع أحدٌ أن يجبره على ذلك؟! فبمجرّد أن جعل الجنّة جزاءً فهذا برحمته، وعندما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا هو العدل، أمّا الفضل فهو أنّه جعل جزاء هذا العمل هو الجنّة، فتدخل الجنّة بفضل الله سبحانه وتعالى، وتدخلها بعملك الّذي جعل لك الجنّة جزاءً على هذا العمل برحمته، فهذا هو المعنى، وهذا هو التّوافق الّذي يجمع بين الآية وبين الحديث النّبويّ الشّريف.

---

(1) صحيح البخاريّ: كتاب المرضى، باب تمنّي المريض الموت، الحديث رقم (٥٦٧٣).

(الآية ٣٣) - ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾:

بعد أن عرضتْ الآيات جزاء المتّقين الّذين قالوا: خيراً، عادتْ لهؤلاء الّذين قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الّذين يُصادمون الإيمان بالله ﷻ، ويقفون موقف العداء والكَيْد والتّربُّص والإيذاء.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾: هذا استفهامٌ من الله جلّ وعلا لهؤلاء: ماذا تنتظرون بعد ما فعلتم بأمر الإيمان والدّعوة بعد أن صَدْدتُم النّاس عنها، ماذا تنتظرون؟ أتنتظرون أنْ تَرَوْا بأعينكم، أمامكم أمران سيَحُلّان بكم لا محالة: إمّا أنْ تأتيكم الملائكة فتتوفّاكم، أو يأتي أمرُ ربّك، وهو يوم القيامة، ولا ينجيكم إلّا أنْ تؤمنوا، أو أنّكم تنتظرون خيْراً؟ فلن يأتيكم خيرٌ أبداً، كما قال ﷻ في آياتٍ أخرى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١]، وقال ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: من الآية ١]، وقال ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: من الآية ١]، إنّما ينتظرون أحداثاً تأتي لهم بشَرٍّ: تأتيهم الملائكة لقبْض أرواحهم في حالةٍ هم بها ظالمون لأنفسهم، ثمّ يُلْقون السَّلَم رَغْماً عنهم، أو: تأتيهم الطّامّة الكبرى، وهي القيامة.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾: أي: ممَّن كذَّب الرّسل -عليهم السّلام- قبلهم، يعني هذه مسألة معروفة عنهم من قبل.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: وما ظلمهم الله ﷻ حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا

وكذا، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب؛ لأنّ العذاب لم يحُلّ بهم بعد.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: فهم الّذين ظلموا أنفسهم بأنّهم قدّموا متعةً عاجلةً على نعيمٍ دائمٍ.

(الآية ٣٤) - ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٤﴾:

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾: أي: أنّهم لـمّا ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك، وسُمِّي ما يُفعل بهم سيئة؛ لأنّ الحقّ ﷻ يُسمّي جزاء السّيئة سيئة في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: من الآية ٤٠]، ويقول ﷻ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٦]، وهذه تُسمّى: (المشاكلة)؛ أي: أنّ هذه من جنس هذه.

وقوله ﷻ: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾: العمل هو مُزاولة أيِّ جارحة من الإنسان لمهمّتها، فكُلُّ جارحة لها مهمّة، الرِّجْل واليد والعَيْن والأُذن.. إلخ، فاللّسان مهمّته أن يقول، وبقيّة الجوارح مهمّتها أنْ تفعل، فاللّسان وحده أخذ النّصف، وباقي الجوارح أخذتْ النّصف الآخر؛ ذلك لأنّ حصائد الألسنة عليها المعوّل الأساسيّ، كما قال النّبيّ ﷺ: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»، أَوْ قَالَ: «**عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**»(١).

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: بماذا استهزأ الكافرون؟ استهزؤوا بالبعث

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: تتمّة مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، الحديث رقم (٢٢٠١٦).

والحساب وما ينتظرهم من العذاب، فقالوا كما حكى القرآن الكريم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ١٧﴾ [الصّافّات]، فقال لهم الله ﷻ: إنّكم لن تقدروا على هذا العذاب الّذي تستهزئون به.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: أحاط ونزل بهم، فلا يستطيعون منه فراراً، ولا يجدون عنه انفكاكاً، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ٢٠﴾ [البروج].

(الآية ٣٥) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٣٥﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾: نلاحظ أنّه ساعة أنْ يأتِيَ الفعل نصّاً في مطلوبه لا يُذكر المتعلَّق به، فلم يَقُلْ: أشركوا بالله ﷻ؛ لأنّ ذلك معلومٌ، والإشراك معناه الإشراك بالله ﷻ، لذلك قال ﷻ هنا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾.

ثمّ يورد الحقّ ﷻ قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾: إنّهم هنا يدافعون عن أنفسهم، وهذه هي الشّمّاعة الّتي يُعلّق عليها الكفّار خطاياهم، ويقولون: إنّ الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا، فيقول المسرف على نفسه: لو شاء الله لم أعصه، ربُّنا هو الّذي أراد لي كذا، وهو الّذي يهدي، وهو الّذي يُضلّ، وهو الّذي جعلني أرتكب الذّنوب.. إلى آخر هذه المقولات الفارغة، فلماذا يعذّبني؟ وتعالوا نناقش صاحب هذه المقولات؛ لأنّ عنده تناقضاً عقليّاً، والقضيّة غير واضحة أمامه، ولكي نزيل عنه هذا الغموض نقول له: لماذا لم تقُل: إذا كان الله ﷻ قد أراد لي الطّاعة وكتبها عليَّ، فلماذا يُثيبني عليها؟

هكذا المقابل، فلماذا قُلْت بالأولى ولم تقُلْ بالثّانية؟! واضح أنّ الأولى تجرُّ عليك الشّرّ والعذاب، فوقفتْ في عقلك، أمّا الثّانية فتجرُّ عليك الخير، لذلك تغاضيت عن ذِكْرها، ونقول له: أنت حينما تعمل أعمالك، هل كلّها خير؟ أو كلّها شَرّ؟ أَمَا منها ما هو خير، ومنها ما هو شرّ؟ والإجابة هنا واضحة، فالإنسان فيه خيرٌ وفيه شرٌّ، لا أنت مطبوعٌ على الخير دائماً، ولا أنت مطبوعٌ على الشّرِّ دائماً، فأنت صالحٌ للخير، كما أنّك صالحٌ للشّرّ، فهناك فَرْقٌ بين أن يخلقك الله ﷻ صالحاً للفعل وضِدّه، وبين أنْ يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضدّه، ولـمّا خلقك الله ﷻ صالحاً للخير وصالحاً للشّرّ أوضح لك منهجه وبيَّنَ لك الجزاء، فقال: اعمل الخير، والجزاء كذا، وإذا عملت الشّرّ، فالجزاء كذا، وهذا هو المنهج، فكيف يقول بعد ذلك: إنّ الله كتبه عليَّ؟!! هذا عجيبٌ، كأنّه قد اطَّلع على اللّوح المحفوظ، فوجد أنّ الله ﷻ كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً أو أن يسرق فسرق؛ لأنّ الله ﷻ كتبها عليه، ولو أنّ الأمر هكذا لكنتَ طائعاً بالسّرقة، لكنّ الأمر خلاف ما تتصوّر، فأنت لا تعرف أنّها كُتِبت عليك إلّا بعد أنْ تفعلها، والفعل منك مسبوقٌ بالعزم على أنْ تفعلَ، فهل اطّلعتَ على اللّوح المحفوظ كي تعرف ما كتبه الله ﷻ عليك؟ يجب أن ننتبه هنا ونعلم أنّ الله ﷻ كتب أزلاً؛ لأنّه عَلِم أنّك تفعل أجلاً، وعِلْمُ الله ﷻ مُطْلَقٌ لا حدودَ له، ونضرب مثلاً -ولله المثل الأعلى- الوالد الّذي يلاحظ ولده في دراسته، فيجده مُهملاً غير مُجدٍّ، يتوقّع فشله في الامتحان، هل دخل الوالد مع ولده وجعله يكتب خطأً في الامتحان؟ لا، بل توقّع له الفشل لعلمه بحال ولده، وعدم استحقاقه للنّجاح، فالله ﷻ كتب مُسبْقاً وأزلاً؛ لأنّه يعلم ما

يفعله العبد أصلاً، وهناك صورةٌ أخرى، فعندما قال ﷻ: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٤]، ثمّ قال ﷻ: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٢]، مع أنّهم لم يكونوا قد قالوا بعد، فقد علم ﷻ أزلاً، فهل أجبرهم على أن يقولوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٢]؟ بالتّأكيد لا، فالإنسان يُحاسَب على اختياره وليس على علم الله ﷻ المسبق الأزليّ، وهذه الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾، تشرح وتُفسِّر قول الله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٤٨]، فهنا: ﴿وَقَالَ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿سَيَقُولُ﴾؛ لنعلم أنّه لا يستطيع أحد معارضة قَوْل الله ﷻ، أو تغيير حكمه.

﴿نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾: لماذا لم يتحدّث هؤلاء عن أنفسهم فقط؟ ما الحكمة من دفاعهم عن آبائهم هنا؟ الحكمة أنّهم سيحتاجون لهذه القضيّة فيما بعد، وسوف يجعلونها حُجَّة حينما يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٢]، فلا حُجَّة لهؤلاء الّذين يُعلِّقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر، وأنّ الله ﷻ كتب عليهم المعصية، ونرى بعضهم حتّى من المسلمين مَنْ يتكلّم بهذا الكلام، ويميل إلى هذه الأباطيل، ومنهم مَنْ تأخذه الجرْأة على الله ﷻ فيُشبِّه هذه القضيّة بقول الشّاعر:

أَلْقَاهُ في اليَمِّ مَكتُوفاً وَقَالَ لَهُ: إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تبتلَّ بالماءِ

وما يفعل هذا إلّا ظالم!! تعالى الله وتنزّه عن قَوْل الجُهَّال والكافرين، وأيضاً هناك مَنْ يقول: إنّ الإنسان هو الّذي خلق الفعل، ويعارضهم آخرون

ويقولون: لا، بل رَبّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الّذي يخلق الفِعْل.. ونقول لهم جميعاً: ليس هناك في الحقيقة خلافٌ، ونسأل: ما هو الفعل؟ الفعل توجيه جارحة لحدثٍ، فأنت حينما تُوجِّه جارحة لحدثٍ، ما الّذي فعلته أنت؟ هل أعطيتَ لليد مثلاً قوّة الحركة بذاتها؟ أم أنّ إرادتك هي الّتي وجَّهَتْ حركتها؟ والجارحة مخلوقةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك الإرادة الّتي حكمتْ على الجارحة مخلوقةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ أيضاً، فما فعلته أنت ما هو إلّا أن وجَّهْتَ المخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى مَا لا يحبّ الله عَزَّ وَجَلَّ في حالة المعصية، وإلى ما يحبّه الله جَلَّ جَلَالُهُ في حالة الطّاعة، كذلك لا بُدَّ أن نلاحظ أنّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرادات كونيّة ومرادات شرعيّة، فالمراد الكونيّ هو ما يكون فِعلاً، فكُلُّ ما تراه في الكون أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون، والمراد الشّرعيّ: هو طَلَبُ الشّيء وفرضه على الإنسان الّذي له حرّيّة الاختيار أن يفعل أو لا يفعل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، خلقك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مختاراً تستطيع أن تتوجّه إلى الإيمان، أو تتوجّه إلى الكفر، فإذا كفرت، هل كفرتَ غَصْباً عنه وعلى غير مُراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ حاشا لله، فلأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاك خياراً ومشيئة تختار فيها، لكن لا يحدث شيءٌ من غير إرادة الله عَزَّ وَجَلَّ، وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُراداً كونيّاً ومُراداً شرعيّاً، المراد الكونيّ أن خلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الاختيار، والمراد الشّرعيّ أن يختار، فلا بُدَّ أن نُفرِّق بين المراد الكونيّ والمراد الشّرعيّ، ولذلك لمّا حدثت ضجّة في الحرم المكّيّ منذ سنوات، وحدث فيه إطلاقٌ للنّار وترويع للآمنين، قال بعضهم: كيف يحدث هذا وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، وها هو الحال قَتْل وإزعاج للآمنين فيه؟! والحقيقة أنّ هؤلاء خلطوا بين مراد كونيّ ومراد شرعيّ، فالمقصود بالآية: فَمْن دخله

فأمِّنوه؛ أي: اجعلوه آمناً، فهذا مطلَب من الله ﷻ، وهو مرادٌ شرعيٌّ قد يحدث وقد لا يحدث، أمّا المراد الكونيّ فلا يمكن إلّا أن يحدث.

ثمّ يقول ﷻ على لسانهم:

﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾: وقد ورد توضيح هذه الآية في قوله ﷻ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة].

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾: أي: هذه سُنَّة السّابقين المعاندين.

﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: البلاغ: هو ما بين عباد الله ﷻ وبين الله ﷻ، وهو بلاغ الرّسل -عليهم السّلام-، والمراد به المنهج: (افعل أو لا تفعل)، ولا يقول الله ﷻ لك ذلك إلّا وأنت قادرٌ على الفِعْل وقادرٌ على التّرْك، لذلك نرى أنّ الله ﷻ يرفع التّكليف عن المُكْره فلا يتعلّق به حكمٌ؛ لأنّه في حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبّه، وكذلك المجنون والصّغير الّذي لم يبلغ التّعقّل، هؤلاء كُلُّهم لا يتعلّق بهم حكْمٌ؛ لأنّ الله ﷻ يريد أن يضمن السّلامة لآلة التّرجيح في الاختيار، وهي العقل، وحينما يكون الإنسان محلَّ تكليفٍ عليه أنْ يجعلَ الفيصل في: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، بلاغ المنهج بـ (افعل ولا تفعل)؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الّذين جاؤوا بقولٍ من عند أنفسهم دون رصيدٍ من المُبَلّغ ﷺ، فقال ﷻ في حَقِّ هؤلاء: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾ [الزّخرف]، فأنكر عليهم ﷻ ذلك، وسألهم: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ

﴿مُّسۡتَمۡسِكُونَ ٢١﴾ [الزّخرف]، وخاطبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيةٍ أخرى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧﴾ [القلم].

﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: أي: لا بُدَّ أن يُبَلِّغ المكَلَّف، فإنْ حصل تقصيرٌ في ألَّا يُبَلَّغ المكلَّف يُنسَب التّقصير إلى أهل الدّين الحقّ، المنتسبين إليه، والمُنَاط بهم تبليغ هذا المنهج لمنْ لَمْ يصله، وقد وردت الأحاديث الكثيرة في الحَثِّ على تبليغ دين الله عَزَّ وَجَلَّ لمن لم يصِلْه الدّين، قال النّبيّ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[1]، وقال ﷺ: «نَضَرَّ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[2]، فعلى الإنسان أن يكون مصدر خيرٍ وناقل للخير والبيان عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعن رسول الله ﷺ.

(الآية ٣٦) - ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾:

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾: يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٖ﴾، وفي آيةٍ أخرى يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ﴾ [النّحل: من الآية ٨٤]، فهذه لها معنى، وهذه لها معنى، فقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ﴾؛ أي: من أنفسهم، منهم خرج،

(١) صحيح البخاريّ: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكِر عن بني إسرائيل، الحديث رقم (٣٤٦١).

(٢) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، من اسمه محمّد، الحديث رقم (٥٢٩٢).

وبينهم تربَّى ودَرَج، يعرفون خِصَاله وصِدْقه ومكانته في قومه، أمّا قوله ﷻ: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾، فـ ﴿فِي﴾ هنا تُفيد الظّرفيّة؛ أي: في الأمّة كلّها، وهذه تفيد التّغلغل في جميع الأمّة، فلا يصل البلاغ منه إلى جماعةٍ دون أخرى، بل لا بُدَّ من عموم البلاغ للأمّة جميعها، وكذلك يقول ﷻ مرّةً: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ [الحديد: من الآية ٢٥]، ومرّةً أخرى يقول: ﴿بَعَثۡنَا﴾ [النّحل: من الآية ٣٦]، وهناك فرقٌ بين المعنيين فـ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ تُفيد الإرسال، وهو: أن يتوسّط مُرْسَلٌ إلى مُرْسَل إليه، أمّا ﴿بَعَثۡنَا﴾ فتُفيد وجود شيءٍ سابقٍ اندثر، ونريد بعثه من جديد، ولتوضيح هذه القضيّة نرجع إلى قصّة آدم عليه السلام، حيث علّمه الله ﷻ الأسماء كلّها، ثمّ أهبطه من الجنّة إلى الأرض، وقال ﷻ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: من الآية ٣٨]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: من الآية ١٢٣]، فهذا منهجٌ من الله ﷻ لآدم عليه السلام، والمفروض أن يُبلّغ آدم عليه السلام هذا المنهج لأبنائه، والمفروض في أبنائه أن يُبلِّغوا هذا المنهج لأبنائهم.. وهكذا، إلّا أنّ الغفلة قد تستحوذ على المبلِّغ للمنهج، أو عدم رعاية المبلِّغ للمنهج، فتنطمس المناهج، ومن هنا يبعثها الله ﷻ من جديد، فمسألة الرّسالات لا تأتي هكذا فجأة، بل هي موجودة منذ أوّل الخلق، فالرّسالات بَعْثٌ لمنهجٍ إلهيّ، كان يجب أنْ يظلَّ موجوداً في النّاس، يتناقله الأبناء عن الآباء، إلّا أنّ الغفلة قد تُصيب المبلِّغ فلا يُبلِّغ؛ لذلك يجدّد الله ﷻ بعث الرّسل -عليهم السّلام-، وقد وردت آياتٌ كثيرة في هذا المعنى، مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: من

الآية ٢٤]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: من الآية ١٥]، ومن هنا تأتي أهمّيّة وَضْع القوانين ونشرها في الصّحف والجرائد العامّة ليعلمها الجميع، فلا يصحّ أنْ نُعاقِبَ إنساناً على جريمةٍ هو لا يعلم أنّها جريمة، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أوّلاً؛ ليعلم أنّ هذا العمل عقوبته كذا وكذا، ومن هنا تُقام عليه الحُجّة، وهذا من عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ونلاحظ أنّه قد يتعاصر الرّسولان، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط عَلَيْهِمَا السَّلَامُ متعاصريْن؟ ألم يكُنْ شعيب وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ متعاصريْن؟ فما عِلَّة ذلك؟ نقول: لأنّ العالَم كان قديماً على هيئة الانعزال، فكُلّ جماعة منعزلة في مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات والاتّصالات، فكانت كلّ جماعة في أرض لا تدري بالأخرى، ولا تعلم عنها شيئاً، ولكُلِّ جماعة بيئتُها الخاصّة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرات، فهؤلاء يعبدون الأصنام، وهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان، وهؤلاء يأتون الذّكْران دون النّساء.. فلكلّ بيئةٍ جريمة، ولا بُدَّ أن يرسل المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرّسل -عليهم السّلام- لمعالجة هذه الجرائم، كُلٌّ في بلدٍ على حِدَة، لكنّ رسالة سيّدنا محمّد ﷺ كانت على موعدٍ مع التقاء الأمكنة ووجود وسائل المواصلات، لدرجة أنّ المعصية تحدث مثلاً في أمريكا فنعلم بها في اليوم نفسه، فأصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة، ومن هنا كان منطقيّاً أن يُرْسلَ ﷺ للنّاس كافّة، وللأزمنة كافّة، وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الشّموليّة بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: من الآية ٢٨]؛ أي: للجميع لم يترك أحداً.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: العبادة معناها التزامٌ بأمرٍ فيُفعل،

ويُنهي عن أمرٍ فلا يُفعَل، هنا أقف قليلاً عند موضوع العبادة، فبعض النّاس يريد من العبادة أن تكون صلاةً وصياماً وحجّاً وزكاةً.. يريد أن تكون العبادة شعائر فقط، والحقيقة أنّ العبادة ليست شعائر فقط، بل هي طاعة لكلّ ما أمر الله سبحانه وتعالى به، ونهيٌ عن كلّ ما نهى الله عز وجل عنه، فلا يمكن أن تنحصر العبادة في ركيعات يؤدّيها الإنسان، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات]، فهي ليست أداء الشّعائر فقط بدليل قول النّبيّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»(١)، ولم يقل: إنّ الإسلام هو الخمس.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: أطيعوا الله سبحانه وتعالى.

﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: فهنا أَمْرٌ بالعبادة ونَهْيٌ عن الطّاغوت، وهذا يُسمُّونه تَحْلِية وتَخْلِيةً، التّحلية في أنْ تعبدَ الله عز وجل، والتّخلية في أنْ تبتعدَ عن الشّيطان، وعلى هذين العنصرين تُبنَى قضيّة الإيمان، حيث نَفْي في: (أشهد أن لا إله)، وإثباتٌ في: (إلّا الله)، وكأنّ النّاطق بالشّهادة ينفي التّعدُّد، ويُثبت الوحدانيّة لله سبحانه وتعالى، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشّرك، وحَلَّيْتَ نفسك بالوحدانيّة، ولذلك سيكون الجزاء عليها في الآخرة من جنس هذه التّخلية والتّحلية؛ ولذلك نجد في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: من الآية

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، الحديث رقم (٨).

١٨٥]؛ أي: خُلِّي عن العذاب، ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨٥]؛ أي: حُلِّي بالنّعيم، وقوله ﷻ: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: ابتعدوا عن الطّاغوت، فيكون المقابل لها: تقرّبوا إلى الله ﷻ، و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فيها مبالغةٌ تدلّ على مَنْ وصل الذِّرْوة في الطّغيان وزادَ فيه، وفَرْقٌ بين الحدث المجرَّد مثل: (طغى)، وبين المبالغة فيه مثل: (طاغوت)، وهو الّذي يَزيده الخضوعُ لباطله طُغْياناً على باطل أعلى، ونلاحظ في هذا اللّفظ: ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أنّه لمّا جمعَ كلَّ مبالغةٍ في الفعل يتأبَّى على المطاوعة، وكأنّه طاغوت في لفظه ومعناه، يدخل على المفرد والمثنّى والجمع، وعلى المذكّر والمؤنّث، فنقول: رجلٌ طاغوت، وامرأةٌ طاغوت، ورجلان طاغوت، وامرأتان طاغوت، ورجالٌ طاغوت، ونساءٌ طاغوت، وكأنّه طغى بلفظه على الصِّيَغ جميعها، فالطّاغوت هو الّذي إذا ما خضع النّاس لِظُلمه ازداد ظلماً، ومنه قوله ﷻ عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزّخرف: من الآية ٥٤]، فقد وصل به الحال إلى أن ادّعى الألوهيّة، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: من الآية ٣٨]، وقد وردت هذه الكلمة: ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ في القرآن الكريم ثماني مرّات، منها ستٌّ تصلح للتّذكير والتّأنيث، ومرّة وردتْ للمؤنّث في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزّمر: من الآية ١٧]، ومرّة وردتْ للمذكّر في قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النّساء: من الآية ٦٠]، وفي اللّغة كلمات يستوي فيها المذكّر والمؤنّث، مثل قَوْل الحقّ ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٦]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: من الآية ١٠٨]، فكلمة: (سبيل) جاءت مرَّةً للمذكَّر، ومرَّةً للمؤنَّث.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾: وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنّها حُجَّة يقول من خلالها: إنّ الهداية بيد الله ﷻ، وليس لنا دَخْل في أنّنا غير مهتدين.. إلى آخر هذه المقولات، نقول: تعالَوا نقرأ القرآن الكريم، يقول ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصّلت: من الآية ١٧]، ولو كانت الهداية بالمعنى الّذي تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضَّلوه، لكن (هديناهم) هنا بمعنى: دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط، ولهم حَقّ الاختيار، وهم صالحون لهذه ولهذه، والدّلالة تأتي للمؤمن وللكافر، دلَّ الله ﷻ الجميع، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: من الآية ٩]، فالّذي أقبل على الله ﷻ بإيمانٍ به زاده هُدىً وآتاه تقواه، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد]، ومن هذا ما يراه بعض النّاس تناقضاً بين قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: من الآية ٥٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، حيث نفى الله ﷻ عن الرّسول ﷺ الهداية في الأولى، وأثبتها له في الثّانية، ونلاحظ أنّ الحدث هنا واحدٌ وهو الهداية، والمتحدَّث عنه واحدٌ وهو الرّسول ﷺ، فكيف يُثبت حَدَثاً واحداً لمُحْدِثٍ واحدٍ مرّةً، وينفيه عنه مرّةً؟! لا بُدَّ أن تكون الجهة مُنفكّة، ففي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي﴾ [القصص: من الآية ٥٦]؛ أي: لا تستطيع أنْ تُدخِل الإيمان في قلب مَنْ تحبّ، ولكن تدلُّ وترشد فقط، أمّا هداية الإيمان فبيد الله ﷻ يهدي إليها مَنْ عنده استعدادٌ للإيمان، ويَصْرف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ، فالهداية تأتي بمعنيين: بمعنى الدّلالة والإرشاد كما في الآية السّابقة، وبمعنى المعونة وشَرْح الصّدر للإيمان، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: من الآية ٥٦].

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: حقَّتْ: أي: أصبحتْ حقّاً له، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال، لا يستحقّ معها إلّا الضّلالة، فما حقَّتْ عليهم، وما وجبتْ لهم إلّا بما عملوا، وهذه كقوله سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام: من الآية ١٤٤]، أيُّهما أسبق: عدم الهداية من الله عزّ وجلّ لهم، أم الظّلم منهم؟ واضح أنّ الظّلم حدث منهم أوّلاً، فسمَّاهم الله سُبحانه وتعالى ظالمين، ثمّ كانت النّتيجة أنْ حُرموا الهداية.

﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: مبالغة من الضّلال وكأنّها ضلالٌ كبير، ففيها تضخيمٌ للفعل، ومنها قوله سُبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ [مريم: من الآية ٧٥]، ثمّ يُقيم لنا الحقّ سُبحانه وتعالى الدّليلَ على بَعْثة الرّسل -عليهم السّلام- في الأمم السّابقة لنتأكّد من إخباره سُبحانه وتعالى:

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾: فهناك شواهدُ وأدلّة تدلّ على وجود أناس كانت لهم حضارة اندكّتْ واندثرتْ، كما قال سُبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧﴾ [الصّافّات]، فأمر الله سُبحانه وتعالى بالسّياحة في الأرض للنّظر والاعتبار بالأمم السّابقة، مثل: عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم، والحقّ سُبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وهل نحن نسير في الأرض، أم على الأرض؟ نحن نسير على الأرض، وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة، لكنّ المتكلّم بالقرآن الكريم هو ربُّنا سُبحانه وتعالى، وعطاؤه جلّ جلاله سيظلّ إلى أنْ تقومَ السّاعة، ومع الزّمن تتكشّف لنا الحقائق ويُثبت العلم صِدْق القرآن الكريم وإعجازه، فمنذ أعوام كنّا نظنُّ أنّ الأرض هي هذه اليابسة الّتي نعيش عليها، ثمّ أثبت لنا العلم أنّ الهواء

المحيط بالأرض (الغلاف الجوّيّ) هو إكسير الحياة على الأرض، وهو جزءٌ من الأرض، ومن غيره لا تقوم عليها حياة، وبذلك نحن نسير في الأرض، كما نطق بذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز، وهناك مَلْحظٌ آخر في هذه الآية: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾، وفي آيةٍ أخرى يقول: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ [الأنعام: من الآية ١١]، ليس هذا مجرّد تفنُّن في العبارة، بل لكلٍّ منهما مدلول خاصّ، فالعطف بالفاء يُفيد التّرتيب مع التّعقيب؛ أي: يأتي النّظر بعد السَّيْر مباشرةً، أمّا في العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ فإنّها تُفيد التّرتيب مع التّراخي؛ أي: مرور وقت بين الحدثَيْن، وذلك كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ [عبس]، وقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَٱنظُرُواْ﴾: فكأنّ الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتّعاظ، ولا بُدَّ إذاً من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السّابقين المكذّبين، أصحاب الحضارات الّتي أصبحتْ أثراً بعد عَيْنٍ.

(الآية ٣٧) - ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾:

﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾: يُسلِّي الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله ﷺ، ويثبت له حِرْصَه على أمّته ﷺ، وأنّه يُحمِّل نفسه في سبيل هدايتهم فوق ما حمّله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال له في آيةٍ أخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشّعراء]، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التّوبة].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾: الله ﷻ يقطع الأمل أمام المكذّبين المعاندين، فهو لا يضلّ إلّا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدعُه إلى كفره، ويطمس على قلبه غيْر مأسُوفٍ عليه، فهذه إرادته، ويحاسبه الله ﷻ على إرادته، وقد أجابه الله ﷻ إلى ما يريد.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: فالمسألة ليستْ مجرّد عدم الهداية، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلّصهم منها، كما قال ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١﴾ [الشّعراء]، فلا يهدي الله ﷻ مَن اختار لنفسه الضّلال، بل سيُعذّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصُره فيه.

(الآية ٣٨) - ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾:

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: سبحان الله! كيف يُقسِمون بالله ﷻ وهم لا يؤمنون به؟ وما مدلول كلمة الله ﷻ عندهم؟ هذه علامة تدلّ على أنّ الإيمان يسبق الكفر، فكلمة: (ٱللَّهُ) دليلٌ على الإيمان به ﷻ، ولا توجد الكلمة في اللّغة إلّا بعد وجود ما تدلّ عليه أوّلاً، فالتّلفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسمٌ، ثمّ بعد أن وُجِد أوجدوا له اسماً، فتوجد المعاني أوّلاً، ثمّ توضع للمعاني أسماء، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده؟ الجواب: يكون قبله، فإذا قالوا: الله ﷻ غير موجود، نقول لهم: كذبتم؛ لأنّ كلمة: (ٱللَّهُ) لفظٌ موجودٌ في اللّغة، ولا بُدَّ أنّ لها معنىً سبق وجودها، فالإيمان سابقٌ للكفر، وجاء الكفر ليستر الإيمان؛ لأنّ معنى الكفر: السَّتْر، والسّؤال إذاً: ماذا ستر؟ الجواب: ستر الإيمان، ولا

يستر إلّا موجوداً، وبذلك نقول: إنّ الكفر دليلٌ على الإيمان.

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: مبالغين في اليمين مُؤكّدينه، كما قالوا في آيةٍ أخرى: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢﴾ [الأنفال: من الآية ٣٢]، فليس هذا بكلام العقلاء، وكان ما أقسموا عليه بالله ﷻ أنّه:

﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾: وهذا إنكارٌ للبعث، كما سبق وأنْ قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: من الآية ٨٢]، فيردّ عليهم ﷻ:

﴿بَلَىٰ﴾: وهي أداةٌ لنفي السّابق عليها، وأهل اللّغة يقولون: نفي النّفي إثباتٌ، فـ ﴿بَلَىٰ﴾ تنفي النّفي قبلها، وهو قولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، فيكون المعنى: بل يبعث الله ﷻ مَنْ يموت.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: الوَعْد: هو الإخبار بشيءٍ لم يأْتِ زمنه بعد، فإذا جاء وَعْدٌ بحدَثٍ يأتي بَعْد، ننظر فيمَنْ وعد: أهو قادرٌ على إيجاد ما وعد به؟ أم غير قادرٍ؟ فإن كان غيرَ قادرٍ على إنفاذ ما وعد به؛ لأنّه لا يضمن الأسباب الّتي تُعينه على إنفاذ وعده، قُلْنا له: قُلْ: إنْ شاء الله، حتّى إذا جاء موعد التّنفيذ فلم تَفِ بوعدك التمسْنا لك عُذْراً، وحتّى لا تُوصف ساعتها بالكذب، فقد نسبتَ الأمر إلى مشيئة الله ﷻ، أمّا إذا كان الوعد من الله ﷻ فهو قادرٌ على إنفاذ ما يَعِد به؛ لأنّه لا قوّة تستطيع أن تقفَ أمام مُراده ﷻ، ولا شيءَ يُعجزه في الأرض ولا في السّماء، فكان الوعد منه ﷻ ﴿حَقًّا﴾ أنْ يُوفّيه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: لا يعلمون أنّ الله ﷻ قادرٌ

على البعث، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السّجدة: من الآية ١٠]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ [الإسراء]، فقد استبعد الكفّار أمر البعث؛ لأنّهم لا يتصوّرون كيف يبعث الله عزّ وجلّ الخلْق من لَدُن آدم عليه السلام حتّى تقوم السّاعة، ولكن لِمَ تستبعدون ذلك؟ وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: من الآية ٢٨]، فالأمر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه وتعالى بها جزئيّات البشر كلٌّ على حدة، لا، ليس في الأمر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ونقول: الحمد لله أنّ هناك قليلاً من النّاس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به.

وقضيّة البعث بعد الموت هي قضيّةٌ غيبيّةٌ، وكثيرٌ من النّاس ممّن يؤمن بالمادّة فقط، ولا يؤمن بالغيبيّات يُنكِر البعث، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس].

(الآية ٣٩) - ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾: أي: من أمر البعث؛ لأنّ القضيّة لا

تستقيم من غير البعث والجزاء، فعند البعث والجزاء يبيّن المولى سبحانه وتعالى هذا الأمر، ويبيّن لهم كيف أنّهم أنكروا ما سيرونه جميعاً وهو بأنّه يوجد بعث وحساب وعقاب، ولا يفلت منه هؤلاء الّذين سبقوا.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾: متى سيعلمون؟ يوم يبعثون؛ أي: يوم القيامة، فسيعلمون أنّهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النّحل: من الآية ٣٨]، وذلك علم يقينٍ ومعاينة، ولكن بعد فوات الأوان، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدي فيه التّصديق، فالآن يعترفون بأنّهم كانوا كاذبين في قَسَمهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ وبالغوا في الأَيمان وأكّدوها؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ [الواقعة].

(الآية ٤٠) - ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾:

فَأَمْرُ البعث ليس علاجاً لجزئيّات كلّ شخصٍ وضمِّ أجزائه وتسويته من آدم عليه السلام حتّى قيام السّاعة، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهيّ: ﴿كُن﴾، وبمجرّد صدوره، من غير حاجةٍ لوقتٍ ومُزاولةٍ يكون الجميع ماثلاً طائعاً، كلّ واحدٍ منتظرٌ دوره، منتظرٌ الإشارة؛ ولذلك جاء في الخبر: «شؤونٌ يُبديها ولا يَبتديها»، فالأمر يتوقّف على الإذن: (اظهر)، فيظهر، ومثال ذلك -ولله المثل الأعلى- من يعدّ القنبلة الزّمنيّة مثلاً، ويضبطها على وقتٍ معيّن، تظلّ القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الّذي وُضِع فيها، ثمّ تنفجر من غير تدخُّلٍ من صانعها، مجرّد الإذن لها بالانفجار تنفجر، وحتّى كلمة: ﴿كُن﴾ نفسها

تحتاج لزمنٍ، ولكن ليس هناك أقرب منها في الإذن، وإن كان الأمر في حقِّه ﷻ لا يحتاج إلى: ﴿كُن﴾ ولا غيره، ولكن تقريبٌ للبشر.

(الآية ٤١) - ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ ۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾: المهاجرون قومٌ آمنوا بالله ﷻ إيماناً صار إلى مرتبةٍ من مراتب اليقين، جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظّلم والاضطهاد في مكّة في سبيل إيمانهم من قِبَل مشركي قريش، فضحّوا بمالهم وأهلهم وأنفسهم في سبيل الدّعوة إلى الله ﷻ، وفي سبيل رسالة الإسلام الّتي جاء بها النّبيّ ﷺ.

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الّذي أنكره الكافرون، وألحُّوا في إنكاره وبالغوا فيه، بل وأقسموا على ذلك: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النّحل: من الآية ٣٨]، وهم يعلمون أنّ من الخلق مَنْ يُسيء، ومنهم من يُحسِن، فهل يعتقدون في عُرْف العقل أن يتركَ المولى ﷻ من أساء ليُعربد في خَلْق الله ﷻ من غير أن يُجازيه؟ ذلك يعني أنّهم خائفون من البعث، فلو أنّهم كانوا محسنين لَتمنَّوا البعث، وتمنّوا أن يُحاسبوا، أمّا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفِقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء، فمن الطّبيعيّ أنْ يُنكروا البعث، ويلجؤوا إلى الأماني الكاذبة، ليطمئنّوا على أنّ ما أخذوه من مظالم النّاس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه، وهم قد أنكروا البعث، وأنكروا الرّسول ﷺ، وأنكروا الإيمان باليوم الآخر، أمّا من آمن ومن هاجر وترك مكّة والأهل والبلد وذهب فارّاً بإيمانه ودينه فهو يعلم بأنّ هناك

معركةً بين الحقّ والباطل، بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ومن حكمة الله ﷻ أن ينشر الإسلام في بدايته بين الضّعفاء، وألّا يكون في حضن بني عبد المطّلب وبني هاشم وبني عبد مناف وقريش، حتّى لا يظنّ ظَانٌّ بأنّ العصبيّة القبليّة هي الّتي أدّت إلى الإيمان بالنّبيّ ﷺ، بل على العكس، فقبيلة النّبيّ ﷺ قريش وأهل النّبيّ ﷺ هم الّذين أنكروا وخالفوا وعاندوا، فكانت النّصرة من قومٍ غيرهم في المدينة المنوّرة، فأراد الله ﷻ أن تكون الصّيحةُ الإيمانيّة أوّلاً في مكّة؛ لأنّها مركز السّيادة في جزيرة العرب، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النّفوذ والسّلطان، وألّا تكون القوّة إلّا في المدينة المنوّرة، وأن تكون النّصرة من قومٍ آخرين ليسوا من أهل النّبيّ ﷺ أو العشيرة الّتي عاش في ظلّها.

وقد كانت الهجرة أبلغ الدّروس الإيمانيّة الّتي أثبتت صحّة الإيمان بالله ﷻ، فقد وقف هؤلاء في وجه الباطل والعصبيّات في مكّة، وتركوا ديارهم وأهاليهم وأموالهم، وذهبوا فارّين بدينهم إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نشر هذا الدّين، وإلى دار أمنٍ وأمان في المدينة المنوّرة، وقد استعرض رسول الله ﷺ البلاد كلّها لينظر أيَّ الأماكن تصلح دار أَمْنٍ يُهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد، فلم يجد في البدء إلّا الحبشة؛ ولذلك قال عنها: «**إِنَّ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ مَلِكاً لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً وَمَخْرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»(١)، وتكفي هذه الصّفة في مَلِك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون، ثمّ يسَّر الله ﷻ لدينه أتباعاً وأنصاراً التقَوْا برسول الله ﷺ وبايعوه

(١) السّنن الكبرى للبيهقيّ: كتاب السّير، باب الإذن بالهجرة، الحديث رقم (١٧٧٣٤).

على النُّصْرة والتّأييد، هؤلاء هم الأنصار من أهل المدينة المنوّرة الّذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثّانية إلى المدينة المنوّرة، وهذه المرّة هي هجرةٌ إلى دار أَمْنٍ وإيمان، يأمن فيها المسلمون على دينهم، ويجدون الفرصة لنشره في رُبُوع المعمورة، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾، نلاحظ في الحديث الشّريف الّذي يوضّح معنى هذه الآية: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(١)، فما الفرق هنا بين: هاجر في الله سبحانه وتعالى، وهاجر إلى الله سبحانه وتعالى؟ (هاجر إلى مكان) تدلّ على أنّ المكان الّذي هاجر إليه أفضل من الّذي تركه، وكأنّ الّذي هاجر منه ليس مناسباً له، أمّا (هاجر في الله سبحانه وتعالى) فتدلّ على أنّ الإقامة السّابقة كانت أيضاً في الله سبحانه وتعالى، إقامتهم نفسها في مكّة وتحمُّلهم الأذى والظّلم والاضطهاد كانت أيضاً في الله عزّ وجلّ، أمّا لو قالت الآية: (هاجروا إلى الله) لدلَّ ذلك على أنّ إقامتهم الأولى لم تكن لله سبحانه وتعالى، فمعنى الآية: ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنّ إقامتهم كانت لله سبحانه وتعالى، وهجرتهم كانت لله عزّ وجلّ، ومثل هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٣]؛ أي: إذا لم تكونوا في مغفرةٍ فسارعوا إلى المغفرة، وفي الآية الأخرى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: من الآية ٦١]؛ ذلك لأنّهم كانوا في خيرٍ سابق، وسوف يسارعون إلى خيرٍ آخر، وهناك ملمحٌ آخر في قوله سبحانه وتعالى:

(١) صحيح البخاريّ: كتاب النّكاح، باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأةٍ فله ما نوى، الحديث رقم (٥٠٧٠).

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ نلاحظ أنّ كلمة (الّذين) جمع، لكن هل هي خاصّة بمَنْ نزلت فيهم الآية؟ أو عامّة في كُلِّ مَنْ ظُلِم في أيِّ مكانٍ في الله ﷻ ثمّ هاجر منه؟ الحقيقة أنّ العبرة هنا بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، فهي عامّة في كلّ مَنْ انطبقت عليه هذه الظّروف.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: مادّة هذا الفعل: هجر، وهناك فَرْقٌ بين (هجر) وبين (هاجر):

هجر: أن يَكره الإنسانُ الإقامةَ في مكان، فيتركه إلى مكانٍ آخر يرى أنّه خَيْرٌ منه، أمّا هاجر: تدلّ على المفاعلة من الجانبين، فالفاعل هنا ليس كارهاً للمكان، ولكنّ المفاعلة الّتي حدثتْ من القوم هي الّتي اضطرّتْه للهجرة، وهذا ما حدث في هجرة المؤمنين من مكّة؛ لأنّهم لم يتركوها إلى غيرها إلَّا بعد أن تعرّضوا للاضطهاد والظُّلْم، فكأنّهم بذلك شاركوا في الفعل، فلو لم يتعرَّضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا، ولذلك قال الحقّ ﷻ:

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾: وينطبق هذا المعنى على قول المتنبّي:

إِذَا ترحَّلْتَ عن قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا　　　أَلَّا تُفارِقهم فَالرَّاحِلُون هُمُوا

يعني: إذا كنت في جماعةٍ وأردْتَ الرّحيل عنهم، وفي إمكانهم أن يقدّموا لك من المساعدة ما يُيسِّر لك الإقامة بينهم ولكنّهم لم يفعلوا، وتركوك ترحل مع مقدرتهم، فالرّاحلون في الحقيقة هم؛ لأنّهم لم يساعدوك على الإقامة، كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكّة؛ لأنّه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكّة وفيها البيت الحرام الّذي يتمنّى كلّ مسلمٍ الإقامة في جواره، فلم يترك المهاجرون مكّة، بل اضطرّوا إلى تركها وأُجبِروا على ذلك، وطبيعيّ أن يلجؤوا

إلى دارٍ أخرى حتّى تقوى شوكتهم، ثمّ يعودون للإقامة ثانية في مكّة إقامةً طبيعيّةً صحيحةً.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: نُبوِّئ، مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحجّ: من الآية ٢٦]؛ أي: بيَّنا له مكانه، ونقول: باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه، فالإنسان يخرج للسّعي في مناكب الأرض في زراعة أو تجارة، ثمّ يأوي ويبوء إلى بيته، إذاً: باء بمعنى رجع، أو هو مسكن الإنسان، وما أعدَّه الله ﷻ له، فالمؤمنون خرجوا من مكّة مغلوبين مضطهدين وسوف نعطيهم ونُحِلّهم ونُنزِلهم منزلةً أحسن من الّتي كانوا فيها، فقد كانوا مُضطهدين في بلدهم، وسوف نُمهّد لهم الدّنيا كلّها ينتشرون فيها بمنهج الله ﷻ.

ما ذكرناه من حسنة الدّنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجِّلات للعمل، ولكن حسنات الدّنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال، إمّا أنْ تفارقها، وإمّا أن تُفارقك، وقد أنجز الله ﷻ وَعْده للمؤمنين في الدّنيا، فعادوا منتصرين إلى مكّة، ودانتْ لهم الجزيرة العربيّة كلّها بل العالم كلّه، وانساحوا في الشّرق في فارس، وفي الغرب في الرّومان، وفي نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع، هذه هي حسنة الدّنيا المعَجَّلة، لكن هناك حسنة الآخرة المؤجّلة:

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾: أي: أنّ ما أعدَّ الله ﷻ لهم من نعيم الآخرة أعظم ممّا وجدوه في الدّنيا، ولذلك كان سيّدنا عمر ؓ إذا أعطى أحد الصّحابة نصيب المهاجرين من العطاء يقول له: «خُذْ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهِ، هَذَا مَا وَعَدَكَ

اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا ادَّخَرَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلُ»[1]، فهذه حسنة الدّنيا.

وساعة أنْ تسمع كلمة: ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ فاعلم أنّ مقابلها ليس أصغر أو صغير، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدّنيا الّتي بوّأهم الله ﷻ إيّاها هي (كبيرة)، لكنّ ما ينتظرهم في الآخرة ﴿أَكۡبَرُۚ﴾، وكذلك قد تكون صيغةُ أفعل التّفضيل أقلَّ في المدح من غير أفعل التّفضيل، فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) في حين أنّ الأكبر صفةٌ من صفاته ﷻ، وليس اسماً من أسمائه ﷻ، وفي شعار ندائنا للصّلاة نقول: الله أكبر، ولا نقول: الله كبير؛ ذلك لأنّ (كبير) ما عداه يكون صغيراً، إنّما (أكبر)، ما عداه يكون كبيراً، فنقول في الأذان: الله أكبر؛ لأنّ أمور الدّنيا في حَقِّ المؤمن كبيرةٌ من حيث هي وسيلة للآخرة، فإيّاك أنْ تظنَّ أنّ حركةَ الدّنيا الّتي تتركها من أجل الصّلاة صغيرةٌ، بل هي كبيرةٌ بما فيها من وسائل تُعينك على هذه الحياة وعلى طاعة الله ﷻ، وعلى التّقوى، وعلى جمع المال.. ولكنّ الله ﷻ أكبر منها، ولذلك قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: من الآية ٩]، فأخرجنا بهذا النّداء من عمل الدّنيا وحركتها، ثمّ قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: من الآية ١٠]، فأمرنا بالعودة إلى الدّنيا وإلى العمل فيها.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾: الخطاب هنا يمكن أن يتّجه إلى ثلاثة أشياء:

١- يمكن أنْ يُراد به الكافرون، ويكون المعنى: لو كانوا يعلمون عاقبة

---

(١) الاعتقاد للبيهقيّ: ج١، ص٢٦٥.

الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر.

٢- ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون، ويكون المعنى: لو كانوا يعلمون لازدادوا في عمل الخير.

٣- وأخيراً قد يُرَاد به المؤمن الّذي لم يهاجر، ويكون المعنى: لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها.

وهذه الأوجه الّتي يحتملها التّعبير القرآنيّ دليلٌ على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم، وهذا ما يسمّونه تربيب الفوائد.

(الآية ٤٢) - ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: يريد الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعطينا تشريحاً لحال هؤلاء الّذين تركوا مكّة وظُلِموا واضْطهِدوا وأُوذُوا في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، ولم يفتنهم هذا كلّه عن دينهم، بل صبروا وتحمّلُوا، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم، وتركوا بلدهم وأرضهم في سبيل دينهم وعقيدتهم، حدث هذا منهم اتّكالاً على أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يُضيِّعهم، ولذلك جاء التّعبير القرآنيّ: ﴿صَبَرُواْ﴾ بصيغة الماضي، فقد حدث منهم الصّبر فعلاً، كأنّ الإيذاء الّذي صبروا عليه فترةً مضتْ وانتهت، والباقي لهم عِزّة ومنَعة وقوّة لا يستطيع أحدٌ أنْ يضطهدهم بعد ذلك، وهذه من البشارات في الأداء القرآنيّ، أمّا في التّوكّل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حقّهم:

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾: بصيغة المضارع؛ لأنّ التّوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حدث منهم في الماضي، ومستمرّون فيه في الحاضر والمستقبل، وهكذا يكون حال المؤمن.

وبعد ذلك تكلَّم القرآن الكريم عن قضيّة وقف منها الكافرون أيضاً موقف العناد والمكابرة والتّكذيب، وهي مسألة إرسال الرّسل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

(الآية ٤٣) - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: قد اعترض المعاندون من الكفّار على كون الرّسول ﷺ بشراً، وقالوا: إذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرسل رسولاً فينبغي أن يكون مَلَكاً، فقالوا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون: من الآية ٢٤]، وكأنّهم استقلُّوا الرّسالة عن طريق بشر، وهذا أيضاً من غباء الكافرين؛ لأنّ الرّسول ﷺ حين يُبلّغ رسالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تقع على عاتقه مسؤوليّتان: مسؤوليّة البلاغ بالعلم، ومسؤوليّة التّطبيق بالعمل ونموذجيّة السّلوك، فيأمر بالصّلاة ويُصلّي، وبالزّكاة ويُزكّي، وبالصّبر ويصبر، فليس البلاغ بالقول فقط، لا بل بالسّلوك العمليّ النّموذجيّ، ولذلك كانت السّيّدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول عن رسول الله ﷺ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»(١)، وكان قرآناً يمشي على الأرض، والمعنى: كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الّذي جاء به من الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب]، فكيف نتصوّر أن يكون الرّسول مَلَكاً؟ وكيف يقوم بهذه الرّسالة بين البشر؟ فلا بدّ أن يكون بشراً، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: من الآية ١١٠]،

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند النّساء، مسند الصّدّيقة عائشة بنت الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، الحديث رقم (٢٤٦٠١).

ففي هذا المعنى الرّسول الكريم هو الأسوة السّلوكيّة، لذلك ما كان ﷺ ينهى عن شيءٍ إلّا ويكون أوّل من ينتهي، ولا يأمر بشيءٍ إلّا ويكون أوّل من يأخذ به، وهكذا هو الإيمان، فهو ما وقر في القلب وصدّقه العمل، والأسوة السّلوكيّة برسول الله ﷺ:

تعصي الإله وأنت تُظهِر حبّـه هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبّك صـادقاً لأطعتـه إنّ المحـبّ لمـن يحبّ مطيعُ

فليست القضيّة أن أؤمن عقيدةً وأخالف سلوكاً، وعندما يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، يعني أنّه يجب أن يكون الرّسول بشراً يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويتعب كما يتعبون، ويغتمّ كما يغتمّون، ويتعرّض لكلّ ما تتعرّض له البشريّة من أمور، ومن هنا كان من امتنان الله سبحانه وتعالى على العرب ومن فضله عليهم أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التّوبة]، فهو من أنفسكم، هو من العرب وليس من أمّةٍ أعجميّة، بل من بيئتكم؛ لتكونوا على علمٍ كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه، تعرفون حركاته وسكناته، وقد كنتم تعترفون له بالصّدق والأمانة، وتأتمنونه على كلّ غالٍ ونفيسٍ لديكم قبل أن يأتيه الوحي، ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء]، فالّذي صدّهم عن الإيمان أنّه بشرٌ حسب ادّعائهم.

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: صحيحٌ أن الرّسل –عليهم السّلام– بشرٌ، لكنّهم يتّصلون بالوحي، فهم يأتمرون ويحملون رسالة، هذه الرّسالة هي رسالة أمانة التّبليغ عن

الله ﷻ، فهم مبلّغون عن الله ﷻ، فعندما يقول المولى ﷻ: بأنّه أرسل رسلاً رجالاً يوحي إليهم؛ أي: أنّهم يحملون كلام الله ﷻ إلى البشر، وإرادة المولى ﷻ من البشر، ويبلّغون عن الله ﷻ ما يريده من البشر.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾: أي: أنّك يا محمد لَسْتَ بِدْعاً في الرّسل، فَمْن سبقوك كانوا رجالاً طيلة القرون الماضية، وفي موكب الرّسالات جميعاً.

وجاءتْ هنا كلمة: ﴿رِجَالٗا﴾ لتفيد البشريّة أوّلاً كجنس، ثمّ لتفيد النّوع المذكّر ثانياً؛ ذلك لأنّ طبيعة الرّسول قائمة على المخالطة والمعاشرة والمكابدة لقومه، ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾؛ ليكونوا قدوةً سلوكيّةً للنّاس، فـ ﴿رِجَالٗا﴾ مقيّدة بقوله: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، فالرّسول رجل، ولكن إيّاك أنْ تقول: هو رجلٌ مثْلي وبشر مثْلي، لا، هناك مَيّزة أخرى أنّه يُوحَى إليه، وهذه منزلة عالية يجب أن نحفظها للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾: أي: إذا غابتْ عنكم هذه القضيّة، قضّية إرسال الرّسل من البشر، ولا أظنّها تغيب؛ لأنّها عامّة في الرّسالات كلّها، وما كانت لتخفَى عليكم، خصوصاً وعندكم أهل العلم بالأديان السّابقة، مثل ورقة بن نوفل وغيره، وعندكم أهل السِّيَر والتّاريخ، وعندكم اليهود والنّصارى.. فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشريّة الرّسل -عليهم السّلام-، فهذه قضيّةٌ واضحةٌ لا تُنكَر، ولا يمكن المخالفة فيها.

﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: إن كنتم تشكّون ولا تعلمون هذه الحقيقة، والقرآن الكريم يوجّه البشريّة دوماً إلى سؤال أهل الاختصاص.

(الآية ٤٤) - ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾:

استهل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآية بقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾، ويقول أهل اللّغة: إنّ الجار والمجرور لا بُدَّ لهما من متعلّق، فبماذا يتعلّق الجار والمجرور هنا؟ قالوا: يجوز أنْ يتعلّقا بالفعل: ﴿نُّوحِيٓ﴾، ويكون السّياق: (وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نُوحِي إليهم بالبيّنات والزّبر)، وقد يتعلّق الجار والمجرور بأهل الذّكر، فيكون المعنى: (فاسألوا أهل الذّكر بالبيّنات والزّبر)، فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: البيّنات: هي الأمر البيِّن الواضح الّذي لا يشكُّ فيه أحدٌ، وهو إمّا أن يكون أمارة ثُبوت صِدْق الرّسالة، كالمعجزة الّتي تتحدّى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها، أو: هي الآيات الكونيّة الّتي تلفِتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل آيات اللّيل والنّهارَ والشّمس والقمر والنّجوم.

﴿وَٱلزُّبُرِۗ﴾: الزُّبُر: معناها: الكتب المكتوبة، ولا يُكتَب عادةً إلّا الشّيء النّفيس مخافة أنْ يضيعَ، وليس هنا أنفسُ ممّا يأتينا من منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِيُنظِّم لَنا حركة الحياة.

ونعرف أنّ العرب قديماً كانوا يسألون عن كُلِّ شيءٍ مهما كان صغيراً، فكان عندهم عِلمٌ بالسّهم ومَنْ أوّل صانع لها، وعن القوس والرَّحْل، ومثل هذه الأشياء البسيطة، ألا يسألون عن آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خَلْقها تدلُّ على الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾: كلمة الذّكر وردتْ كثيراً في القرآن الكريم بمعانٍ متعدّدة، وأَصلُ الذّكر أنْ يظلَّ الشّيءُ على البال بحيث لا يغيب عن الخاطر، وبذلك يكون ضِدّه النّسيان، فعندنا ذِكْرٌ ونسيان، فكلمة: (ذكر) هنا معناها وجود شيءٍ لا ينبغي لنا نسيانه، فما هو؟ الحقّ سبحانه وتعالى حينما خلق آدم عليه السلام أخذ العهد على كُلِّ ذرّةٍ فيه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف]، وأخْذُ العهد على آدم عليه السلام هو عَهْدٌ على جميع ذرّيّته؛ ذلك لأنّ في كُلِّ واحدٍ من بني آدم ذَرَّةً من أبيه آدم عليه السلام، وجزءاً حيّاً منه نتيجة التّوالُد والتّناسُل من لَدُن آدم عليه السلام حتّى قيام السّاعة، وما دُمْنا كذلك فقد شهدنا أَخْذَ العهد: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، وكأنّ كلمة: (ذكر) جاءت لتُذكِّرنا بالعهد المطمور في تكويننا، تذكّرنا بالرّبّ، الّذي ما كان لنا أنْ ننساه، فلمّا حدث النّسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرّسل، وإنزالَ الكتب لتذكِّرنا بعهد الله عز وجل لنا: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، ومن هنا سُمّيت الكتب المنزلة ذكراً، لكنّ الذّكر يأتي تدريجيّاً وعلى مراحل، كلُّ رسولٍ يأتي ليُذكّر قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة، أمّا الرّسول الخاتم صلى الله عليه وسلم الّذي جاء للنّاس كافّة إلى قيام السّاعة، فقد جاء بالذّكر الحقيقيّ الّذي لا ذِكْر بعده، وهو القرآن الكريم.

وقد تأتي كلمة: (الذّكر) بمعنى الشّرَف والرِّفْعة كما في قوله سبحانه وتعالى للعرب: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: من الآية ١٠]، وقد أصبح للعرب مكانة الصّدارة بين الأمم بالقرآن الكريم، وكذلك عاشت لغتهم به.

وقد يأتي الذّكْر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبد، وقد يأتي من العبد لله عَزَّ وَجَلَّ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ١٥٢]، والمعنى: فاذكروني بالطّاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد والثّواب.

وإذا أُطلقت كلمة: (الذّكر) انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ؛ لأنّه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرّسُل السّابقين، ولكلّ ما تحتاج إليه البشريّة إلى أنْ تقومَ السّاعة، كما أنّ كلمة (كتاب) تُطلَق على أيّ كتاب، لكنّها إذا جاءت بالتّعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم حصراً، وهذا ما نسمّيه (عَلَم بالغلبة)، والذّكْر هو القرآن الكريم الّذي نزل على محمّد ﷺ، وهو معجزته الخالدة في الوقت ذاته، فهو منهج ومعجزة، وقد جاء الرّسُل السّابقون بمعجزات وكتب، فالكتاب منفصل عن المعجزة، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كتابه التّوراة ومعجزته العصا، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ، أمّا سيّدنا محمّد ﷺ فمعجزته هي المنهج ذاته، الكتاب ذاته، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام السّاعة، وهذا هو السِّر في أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكفّل بحفظ القرآن الكريم وحمايته، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، أيضاً تُطلَق كلمة: (ذكر) على الأذكار، حلقات الذّكر وغيرها، وهو ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالصّيغ المعلومة الّتي علّمنا إيّاها رسول الله ﷺ، ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرّسول ﷺ مع القرآن الكريم، وهو الحديث الشّريف، فللرّسول مُهِمّة أخرى، وهي منهجه الكلاميّ وحديثه الشّريف الّذي جاء من مِشْكاة

القرآن الكريم مبيّناً له، كما قال ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَاناً عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ**»(١).

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾: فجاء القرآن الكريم كتابَ معجزة، وجاء كتابَ منهج، وذكر هذه الأصول القرآن الكريم، وجاء الحديث النّبويّ ليبيّن للنّاس ما نزّل من القرآن الكريم، فجاء القرآن الكريم بالأصول الثّابتة، وترك للرّسول ﷺ مهمّة تبيينه للنّاس، وشرحه وتوضيح ما فيه، وقد يظنّ بعضهم أنّ كُلَّ ما جاءتْ به السُّنّة لا يلزمنا القيام به؛ لأنّه سنّة يُثَاب مَنْ فعلها ولا يُعاقَب مَنْ تركها، نقول: لا، لا نستطيع أن نأخذ الأحكام إلّا من خلال الفهم عن رسول الله ﷺ، فالدّليل والحكم كلّه من الحديث النّبويّ الشّريف، فالمولى سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: من الآية ٤٣]، ولم يحدّد الصّبح والظّهر والعصر والمغرب والعشاء، وعدد الرّكعات، فهذه ثابتةٌ بالسّنّة وهي فَرْضٌ، فمعظم الأمور واردة في السّنّة الشّريفة، لذلك هذه الآية هي حجّةٌ على الّذين يقولون: إنّ الرّسول ﷺ بلّغنا القرآن الكريم وانتهى الأمر، ويجب أن نعلم أنّ الرّسول ﷺ هو المكلّف ببيان ما نُزّل إلينا من القرآن الكريم، وأيّ فصلٍ بين ما جاء من رسول الله ﷺ عن القرآن الكريم فهو إنكارٌ لما جاء في القرآن الكريم،

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند الشّاميّين، حديث المِقْدَامِ بنِ مَعْدِي كَرِبَ الكِنْدِيِّ أبي كَرِيمَة، الحديث رقم (١٧١٧٣).

قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، فأخذ ميْزة التّشريع، فأصبحت سُنّته هي التّشريع الثّاني بعد القرآن الكريم.

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: يتفكّرون في حال الرّسول ﷺ قبل البعثة، حيث لم يُؤْثَر عنه أنّه كان خطيباً أو أديباً شاعراً، ولم يُؤْثَر عنه أنّه كان كاتباً مُتعلّماً، لم يُعرف عنه هذا طيلة أربعين عاماً من عمره الشّريف، لذلك أمرهم بالتّفكُّر والتّدبُّر في هذا الأمر، فرسول الله ﷺ هو رسولٌ مُوحَى إليه من الله سُبحانه وتعالى، فما جاء به هو وحيٌ من عند الله سُبحانه وتعالى، ولذلك أمَرَه ربُّه جلّ جلاله أن يقول لهم: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس].

(الآية ٤٥) - ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥﴾:

﴿أَفَأَمِنَ﴾: عبارةٌ عن همزة الاستفهام الّتي تستفهم عن مضمون الجملة بعدها، أمّا الفاء بعدها فهي حَرْف عَطْف يعطف جملة على جملة، إذاً: هنا جملةٌ قبل الفاء تقديرها: أجهلوا ما وقع لمخالفي الأنبياء السّابقين من العذاب، أفأمِنُوا مكر الله عزّ وجلّ؟ أي: أنّ أَمْنهم لمكر الله سُبحانه وتعالى ناشئٌ عن جهلهم بما وقع للمكَذِّبين من الأمم السّابقة.

﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: المكر: هو التّبييت الخفيّ للنّيل ممَّنْ لا يستطيع الإنسان مجابهته بالحقّ ومجاهرته به، فأنت لا تُبيّت لأحدٍ إلّا إذا كنت غير قادرٍ على مُصَارحته مباشرة، والمكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بني

الإنسان، فإذا ما تعرّضْتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حيطة، وأحكم منك مَكْراً، فربّما لا يُجدِي مكرُك به، بل ربّما غلبك هو بمكْره واحتياطه، فكيف الحال إذا كان من يمكرون به ويُحبط مكرهم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: من الآية ٤٣]، فمكْر العباد مكشوفٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، أمّا مكْرُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يُبطل مكرهم، ويدبّر لهم بالخفاء، فلا يقدر عليه أحدٌ، ولا يحتاط منه أحدٌ؛ لذلك كان الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَيْر الماكرين.

والمكْر السَّيء هو المكْر البطَّال الّذي لا يكون إلّا في الشّرّ، كما حدث من مَكْر المكذِّبين للرّسل -عليهم السّلام- على مَرِّ العصور، وهو أن تكيد للغير كيْداً يُبطل الحَقّ، وكلّ رسولٍ قابله قومُه المنكرون له بالمكر والخديعة، دليلٌ على أنّهم لا يستطيعون مواجهته مباشرةً، وقد تعرَّض الرّسول ﷺ لمراحل متعدّدة من الكَيْد والمكْر والخديعة، وذلك لحكمة أرادها الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد بيَّتوا ودَبَّروا لقتله ﷺ، وحَاكُوا في سبيل ذلك الخطط، وقد باءتْ خُطّتهم ليلة الهجرة بالفشل.

﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾: الخسْف: هو تغييب الأرض ما على ظهرها، فانخسفَ الشّيء؛ أي: غاب في باطن الأرض، ومنه خُسوف القمر؛ أي: غياب ضَوْئه، ومن ذلك أيضاً قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: من الآية ٨١]، وهذا نوعٌ من العذاب الّذي جاء على صُورٍ متعدّدةٍ كما ذكرها القرآن الكريم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾

[العنكبوت: من الآية ٤٠]، هذه ألوانٌ من العذاب الّذي حاقَ بالمكذّبين، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقيهم عبرةً وعظةً، وأنْ يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقيهم.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: والمراد أنّهم إذا احتاطوا لمكْر الله جلّ وعلا وللعذاب الواقع بهم، أتاهم الله ﷻ من وجهة لا يشعرون بها، ولم تخطُر لهم على بال، كما قال ﷻ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ [الحشر: من الآية ٢].

(الآية ٤٦) - ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾:

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾: التّقلّب: الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، أو من مكانٍ إلى مكانٍ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكانٍ آخر دليلُ القوّة والمقدرة، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه وعَتَاده وجميع ما يملك؛ لينشئ له حركةَ حياةٍ جديدة في مكانه الجديد، ولا شكَّ أنّ هذا مظهرٌ من مظاهر العزّة والجاه والثّراء لا يقوم به إلّا القويّ، ولذلك قال ﷻ عن أهل سبأ: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: الآية ١٨ – من الآية ١٩]، فهؤلاء قومٌ جمع الله ﷻ لهم ألواناً شتّى من النّعيم، وأمَّن أسفارهم، وجعل لهم محطّاتٍ للرّاحة أثناء سفرهم، ولكنّهم للعجب طلبوا من الله ﷻ أن يُباعد بين أسفارهم، كأنّهم أرادوا أنْ يتميّزوا عن الضّعفاء غير القادرين على مشقّة السّفر والتّرحال، فقالوا: ﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: من الآية ١٩]، حتّى لا يقدر الضّعفاء منهم على خَوْض هذه المسافات.. فالّذي يتقلَّب في الأرض دليلٌ على أنّ له من الحال

حال إقامة وحال قوّة وقدرة على أن ينتقل ليقيم به في مكانٍ آخر؛ ولذلك قالوا: المال في الغربة وطنٌ، ومَنْ كان قادراً يفعل ما يريد، والحقّ ﷻ يقول لرسوله ﷺ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران]، فلا يخيفنّك انتقالهم بين رحلتي الشّتاء والصَّيْف، فالله ﷻ قادرٌ على أن يأخذَهم في تقلُّبهم.

وقد يُراد تقلّبهم في الأفكار والمكْر السّيّء بالرّسول ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم أجمعين- كما في قوله ﷻ: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التّوبة: من الآية ٤٨]، فقد قعدوا يُخطّطون ويمكُرون ويُدبِّرون للقضاء على الدّعوة في مَهْدها.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: المعجز: هو الّذي لا يمكنك أنْ تغلبه، وهؤلاء لن يُعجِزوا الله ﷻ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه؛ لأنّهم مهما بَيَّتوا فتبييتهم وكَيْدهم عند الله ﷻ، أمّا كيْد الله ﷻ إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ١٧﴾ [الطّارق].

(الآية ٤٧) - ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٤٧﴾:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: التّخوُّف: هو الفزع من شيءٍ لم يحدث بعد، فيذهب فيه الخيال مذاهبَ شتَّى، ويتوقّع الإنسان ألواناً متعدّدة من الشّرّ، في حين أنّ الواقع يحدث على وجهٍ واحدٍ، لذلك يقولون في الأمثال: (نزول البلاء ولا انتظاره)؛ ذلك لأنّه إنْ نزل سينزل بلونٍ واحدٍ، أمّا انتظاره فيُشيع في النّفس ألواناً متعدّدة من الفزع والخوف، فالتّخوُّف أشدُّ وأعظم من وقوع الحَدث

نفسه، وكان هذا الفزع يعتري الكفّار إذا ما عَلِموا أنّ رسول الله ﷺ بعث سريّةً من السَّرايا، فيتوقّع كلّ جماعةٍ منهم أنّها تقصدهم، وبذلك يُشيع الله ﷻ الفزع في نفوسهم جميعاً، وبعض المفسّرين قال: التّخوُّف يعني التّنقُّص بأنْ ينقص الله ﷻ من رُقْعة الكفر بدخول القبائل في الإسلام قبيلةً بعد أخرى، فكلُّ واحدةٍ منها تنقص من رقعة الكفر، كما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٥٥].

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾: وهل هذا التّذييل مناسبٌ للآية وما قبلها من التّهديد والوعيد؟ فالعقل يقول: إنّ التّذييل المناسب لها: (إنّ ربّكم لشديد العقاب) مثلاً، لكن يجب هنا أنْ نعلمَ أنّ هذا القرآن من عند الله ﷻ، وهذا عطاء الرّبوبيّة الّذي يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالله ﷻ استدعى الجميع للدّنيا، وتكفَّل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمسٍ وهواءٍ وأرضٍ وسماء، لم تُخلَق هذه الأشياء للمؤمن دون الكافر، والمتدبِّر لهذه الآية يجد فيها نعمةً عظيمةً؛ لأنّ فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمرّوا على ما هم فيه من الكفر، ففي طيَّاتها تحذيرٌ وحِرْصٌ على نجاتهم، كما تتوعّد ولدك: إذا أهملتَ دروسك ستفشل وأفعل بك كذا وكذا، وأنت ما قلت ذلك إلّا لحِرصك على نجاحه وفلاحه، فتذييل الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسبٌ لما قبلها من التّهديد والوعيد؛ لأنّ الكلام كلام ربٍّ رحيمٍ، فيناسب التّهديد والوعيد، وفيها بيانٌ لرحمة الله جلّ وعَلا الّتي يدعو إليها كلّاً من المؤمن والكافر.

(الآية ٤٨) – ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: المعنى: أَعَمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا في خلق الله ﷻ؟!

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾: كلمة: (شيءٍ) يسمّونها جنس الأجناس، و﴿مِن﴾ تُفيد ابتداء ما يُقال له: (شيء)؛ أي: أتفه شيءٍ موجود، وهذا يسمّونه أدنى الأجناس، وتُفيد أيضاً العموم، فيكون: ﴿مِن شَيْءٍ﴾: أي: كلّ شيءٍ، فانظر إلى أيّ شيءٍ في الوجود مهما كان هذا الشّيء تافهاً ستجد له ظِلّاً:

﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾: يتفيّأ: من فاءَ؛ أي: رجع، والمراد عودة الظّلّ مرّةً أخرى إلى الشّمس، أو عودة الشّمس إلى الظّلّ، فلو نظرنا إلى الظّلّ نجده نوعين: ظلٌّ ثابتٌ مستمرٌّ، وظلٌّ مُتغيّرٌ، فالظّلّ الثّابت دائماً في الأماكن الّتي لا تصل إليها أشعّة الشّمس، كقاع البحار وباطن الأرض، فهذا ظِلٌّ ثابت لا تأتيه أشعّة الشّمس في أيّ وقتٍ من الأوقات، والظّلّ المتحرّك الّذي يُسمّى الفَيْء؛ لأنّه يعود من الظّلّ إلى الشّمس، أو من الشّمس إلى الظّلّ، فلا يُسمَّى الظّلّ فَيْئاً إلّا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه، ولكن كيف يتكوّن الظّلّ؟ يتكوّن الظّلّ إذا مَا استعرض الشّمسَ جسمٌ كثيفٌ يحجب شعاعها، فيكون ظِلّاً له في النّاحية المقابلة للشّمس، هذا الظّلّ له طُولان وله استواءٌ واحدٌ، طول عند الشّروق إلى أنْ يبلغَ المغرب، ثمّ يأخذ في التّناقص مع ارتفاع الشّمس، فإذا ما استوتْ الشّمس في السّماء يصبح ظِلّ الشّيء في نفسه، وهذه حالة الاستواء، ثمّ تميل

الشّمس إلى الغروب، وينعكس طول الظّلّ الأوّل من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق، ويلفتنا المولى ﷻ إلى هذه الآية الكونيّة في قوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾ [الفرقان]؛ ذلك لأنّك لو نظرتَ إلى الظّلِّ وكيف يمتدُّ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقّاً؛ ذلك لأنّك تلاحظ الظّلّ في الحالتين يسير سَيْراً انسيابيّاً، ما معنى: (انسيابيّ)؟ هو نوعٌ من أنواع الحركة، فالحركة إمّا حركة انسيابيّة، أو حركة عن توالي سكونات بين الحركات، وهذه الأخيرة نلاحظها في حركة عقارب السّاعة، وهي أوضح في عقرب الثّواني منها في عقرب الدّقائق، ولا نكاد نشعر بها في عقرب السّاعات، فلو لاحظت عقرب الثّواني لوجدتَه يسير عن طريق قفزات منتظمة، تكوّن حركةً فسكوناً فحركةً، وهكذا.. ومعنى ذلك أنّه يجمع الحركة في حال سكونه، ثمّ ينطلق بها، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحرّكاً فيها، وهذا ما نسمّيه بالحركة القفزيّة، هذه الحركة لا نستطيع رَصْدها في عقرب السّاعات؛ لأنّ القفزة فيه دقيقة لدرجة أنّ العين المجرّدة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها، هذه هي الحركة القفزيّة، أمّا الحركة الانسيابيّة، فتعني أنّ كلّ جزءٍ من الزّمن فيه جزءٌ من الحركة؛ أي: حركة مستمرّة ومُوزّعة بانتظام على الزّمن، ونضرب لذلك مثلاً بنموّ الطّفل، فالطّفل الوليد ينمو باستمرار، لكنّ أمّه لا تلاحظ هذا النّمو؛ لأنّ نظرها عليه دائماً، فكيف تكون حركة النّمو في الطّفل؟ هل حركة قفزيّة يتجمّع فيها نموّ الطّفل كلّ أسبوع أو كلّ شهر مثلاً، ثمّ ينمو طَفْرةً واحدةً؟ بالتّأكيد لا، لو كان نموّه هكذا لَلَاحظنا نموّ الطّفل، لكنّه ليس كذلك، بل ينمو بحركةٍ انسيابيّةٍ تُوزّع على طول الزّمن، فلا

نكاد نشعر بنموّه.. وهكذا حركة الشّمس حركة انسيابيّة، بحيث تُوزّع جزئيّات الحركة على جُزئيّات الزّمن، فالشّمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرّك عن التّروس كالسّاعة مثلاً، لا، بل مركونة إلى أمر الله ﷻ، موصولة بـ ﴿كُن﴾ الدّائمة، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفِتَ خَلْقه إلى ظاهرةٍ كونيّةٍ في الوجود مُحسّة، يدركها كلٌّ مِنّا في ذاته، وفيما يرى من المرائي، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظّلّ الّتي يعجز الإنسان عن إدراك حركته، وفي آيةٍ أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرّعد: من الآية ١٥]، فالحقّ سبحانه وتعالى يريد أن يُعمّم الفكرة التّسبيحيّة في الكون كلّه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، فكلّ ما يُطلَق عليه (شيء) فهو يُسبِّح مهما كان صغيراً.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: لنا هنا وقفة مع الأداء القرآنيّ العظيم المعجز، حيث أتى سبحانه وتعالى باليمين مُفْرداً، في حين أتى بالشّمائل على صورة الجمع؛ ذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى لمّا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾، أتى بأقلّ ما يُتصوَّر من مخلوقاته سبحانه وتعالى: ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ وهو مفرد، ثمّ قال سبحانه وتعالى: ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ بصيغة الجمع؛ أي: مجمع هذه الأشياء، فالإنسان لا يتفيّأ ظِلّ شيءٍ واحدٍ، لا، بل ظِلّ أشياء متعدّدة، و﴿مِن﴾ هنا أفادت العموم، ﴿مِن شَيۡءٍ﴾؛ أي: كلّ شيء، فليناسب المفرد جاء باليمين، وليناسب الجمع جاء بالشّمائل.

﴿سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾: فما العلاقة بين حركة الظّلّ وبين السّجود؟ معنى: ﴿سُجَّدٗا﴾؛ أي: خضوعاً لله ﷻ، وكأنّ حركة الظّلّ وامتداده على امتداد الزّمن دليلٌ على أنّه موصولٌ بالمحرّك الأعلى له، والقائل الأعلى لـ: ﴿كُن﴾، والظّلّ

آية من آياته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُسخّرة له ساجدة خاضعة لقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: من الآية ١١٧]، وقلنا: إنّ هناك فرقاً بين الشّيء تُعِدّه إعداداً كَوْنيّاً، والشّيء تُعِدّه إعداداً قدريّاً، فصانع القنبلة الزّمنيّة يُعِدُّها لتنفجرَ في الزّمن الّذي يريده، وليس الأمر كذلك في إعداد الكون، الكون أعدّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إعداداً قدريّاً قائماً على قوله: ﴿كُن﴾، وفي انتظار لهذا الأمر الإلهيّ باستمرار: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾، وهكذا.. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكيّاً، لا، بل مضبوطة قَدريّاً، لذلك يحلو لبعض النّاس أن يقول: باقٍ للشّمس كذا من السّنين ثمّ ينتهي ضوؤها، ويُرتّب على هذا الحكم أشياء أخرى، نقول: لا، ليس الأمر كذلك، فالشّمس خاضعةٌ للإعداد القدريّ منضبطةٌ به ومنتظرة لـ: ﴿كُن﴾ الّتي يُصغِي لها الكون كلّه؛ ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرّحمن: من الآية ٢٩].

هكذا بيّنت الآية الكريمة أنّ كلّ ما يُقال له: (شيء) يسجد لله عَزَّ وَجَلَّ، وكلمة: (شيء) جاءت مُفْردة دالّة على العموم، وقد عرفنا السّجود فيما كلّفنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به من ركن في الصّلاة، وهو مُنْتَهى الخضوع، خضوع الذّات من العابد للمعبود، فنحن نخضع واقفين، ونخضع راكعين، ونخضع قاعدين، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله عَزَّ وَجَلَّ، ولماذا كان أتمَّ الخضوع أن نسجدَ لله عَزَّ وَجَلَّ؟ نقول: لأنّ الإنسان له ذاتٌ عامّة، وفي هذه الذّات سيّدٌ لها، بحيث إذا أُطلِق انصرف إلى الذّات، والمراد به الوجه؛ لذلك حينما يعبّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن فَناء الوجود يقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، وكذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [اللّيل]، فيُطلَق الوجه ويُراد به

الذّات، فإذا ما سجد الوجه لله ﷻ دلَّ ذلك على خضوع الذّات كلّها؛ لأنّ أشرف ما في الإنسان وجهه، فإذا ما ألصقه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكلّ ذاته للمعبود ﷻ.

كما دَلَّتْ الآية على أنّ الظّلّ أيضاً يسجد لربّه وخالقه ﷻ، والظّلال قد تكون لجمادات كالأشجار أو الأبنية أو الجبال، وهذه الأشياء الثّابتة يكون ظِلّها أيضاً ثابتاً لا يتحرّك، أمّا ظِلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظلٌّ متحرّك، وقد ضرب لنا الحقّ ﷻ مثلاً في الخضوع التّامّ بالظّلال؛ لأنّ ظلّ كلّ شيءٍ لا يُفارق الأرض أبداً، وهذا مثال للخضوع الكامل.

ثمّ يرتفع الحقّ ﷻ بمسألة السّجود من الجمادات في الظّلال في قوله: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرّعد: من الآية ١٥]، يعني الذّوات تسجد، وكذلك الظّلال تسجد؛ ولذلك يتعجّب بعض العارفين من الكافر، يقول: أيّها الكافر، ظِلُّك ساجدٌ وأنت جاحدٌ، جاء هذا التّرقّي في قوله ﷻ:

(الآية ٤٩) - ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾:

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: ينقلُنا الحقّ ﷻ هنا نَقْلةً من الظّلال السّاجدة، للجمادات الثّابتة، إلى الشّيء الّذي يتحرّك، وهو وإنْ كان مُتحرّكاً إلّا أنّ ظلّه أيضاً على الأرض.

﴿مَا﴾: في الآية تُطلق على غير العالمين وغير العاقلين؛ ذلك لأنّ أغلبَ الأشياء الموجودة في الكون ليس لها عِلْمٌ أو معرفة؛ ولذلك قال ﷻ في آيةٍ

أخرى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، وإذا كان الحقّ ﷻ قد قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فقد فصَّل هذا الإجمال بقوله:

﴿مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي: من أقلّ الأشياء المتحرّكة وهي الدّابّة، إلى أعلى الأشياء وهي الملائكة، وقد يقول قائلٌ: وهل ما في السّموات وما في الأرض يسجد لله ﷻ؟ نقول له: نعم؛ لأنّك فسّرتَ السّجود فيك أنت بوضْع جبهتك على الأرض، ليدلّ على أنّ الذّات بعلُوِّها ودنُوِّها ساجدة لله ﷻ خاضعة تمام الخضوع، حيث جعلتَ الجبهة مع القدم، والحقّ ﷻ يريد منّا أن نعرف استطراق العبوديّة في الوجود كلّه؛ لأنّ الكافر وإنْ كانَ مُتمرِّداً على الله ﷿ فيما جعل الله ﷻ له فيه اختياراً، في أنْ يؤمن أو يكفر، في أن يطيع أو يعصي، ولكن الله ﷻ أعطاه هذا الاختيار، نقول: إنّ كثيراً من النّاس قد ألفْ التّمرّد على الله ﷿، فطلب منه أن يؤمن لكنّه كفر، وطلبَ منه أن يطيعَ فعصى، فأبى إلّا التّمرّد على الحقّ ﷻ، ولكن إيّاك أن تعتقد أنّك خرجتَ من السّجود والخضوع لله ﷿؛ لأنّ الله ﷻ يُجري عليك أشياء تكرهها، ولكنّها تقع عليك رغم أنفك وأنت خاضع، وهذا معنى قوله ﷻ في الآية السّابقة: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النّحل: من الآية ٤٨]؛ أي: صاغرون مُستذلِّون مُنقَادُونَ مع أنّهم أَلِفُوا التّمرُّد على الله ﷻ، وإلّا فهذا الّذي أَلِف الخروج عن مُرادات الله ﷻ فيما له فيه اختيار، هل يستطيع أنْ يتأبَّى على الله ﷿ إذا أراد أنْ يُمرضه، أو يُفقره، أو يميته؟ هل يستطيع أن يقول لملك الموت: تأخّر عنّي ثوانٍ؟ هل يستطيع أن يقول للمرض: اذهب عنّي لا أريدك؟ لا، لا يستطيع، بل هو داخرٌ

صاغرٌ في كلّ ما يُجريه الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من مقادير، وإنْ كان يأباها، وإنْ كان قد أَلِف الخروج عن مُرادات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في: افعل ولا تفعل، والحلال والحرام، فليس في كون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ يستطيع الخروج عن مرادات الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنّه ما خرج عن مرادات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشّرعيّة في التّكليف إلّا بما أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من اختيار، وسيحاسبه على هذا الاختيار، وإلّا لو لم يُعْطه الاختيار لما استطاع التّمرّد، لذلك نقول للكافر الّذي تمرّد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: تمرّد إذا أصابك مرضٌ، وقُلْ: لن أمرض، تمرَّد على الموت، وقُلْ: لن أموت.. وما دُمْتَ لا تقدر وسوف تخضع راغماً فلتخضعْ راضياً وتكسب الأمر، وتنتهي المشكلة، وتستقبل حياةً أخرى أنظف من هذه الحياة.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: هو كلّ ما يدبّ على الأرض، والدَّبُّ على الأرض معناه الحركة والمشي.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي: أنّ الملائكة لا يُقال لها: دابّة؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل سَعْيها في الأمور بأجنحة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: من الآية ١]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨]، فخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الطّائر يطير بجناحيه مقابلاً للدّابّة الّتي تدبّ على الأرض، فاستحوذ على الأمرين: الدّابّة والملائكة -عليهم السّلام-.

ويُنهي الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآية بقوله:

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: أي: أنّ الملائكة الّذين هم أعلى شيءٍ في خَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يستكبرون؛ لأنّ عُلُوَّهم في الخَلْق من نورانيّة وغيرها لا يعطيهم الحقّ في أن

يرفضوا أمر الله عزّ وجلّ بالسّجود؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى الّذي أعطاهم هذا التّكريم هو الّذي أمرهم بالسّجود، وما دام الله سبحانه وتعالى هو الّذي أعطاهم هذا التّكريم فقد أعطاهم بالشّيء الموهوب لهم بقدرته سبحانه وتعالى، لذلك بيّن لنا المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية بأنّ السّجود هو تكريمٌ ورفعٌ للإنسان.

(الآية ٥٠) - ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾: الخوف: هو الفزع والوجَل، والخوف والفزع والوجل لا يكون إلّا من ترقّب شيءٍ من أعلى منك لا تقدر على دفْعه، ولو أمكنك دفْعه لما كان هناك داعٍ للخوف؛ لذلك فالأمور الّتي تدخل في مقدورات الإنسان لا يخاف منها، وإذا كان الملائكة الكرام: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، فما داعي الخوف؟ نقول: إنّ الخوف قد يكون من تقصيرٍ حدث من الإنسان يخاف عاقبته، وقد يكون عن مهابة وإجلال الله عزّ وجلّ وتعظيمه دون ذنبٍ ودون تقصير، فمرَّة يأتي الخوف لتوقُّع أذى لتقصيرٍ منك، ومرَّة يأتي لمجرّد المهابة والإجلال والتّعظيم.

﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾: ما المراد بالفوْقيّة هنا؟ نحن نعرف أنّ الجهات ستّ: فوق، وتحت، ويمين، وشمال، وأمام، وخلف، بقيتْ جهة الفَوْقِيَّة لتكون هي المسيطرة؛ ولذلك حتّى في بناء الحصون يُشيّدونها على الأماكن العالية لتتحكّم بعلُوِّها في متابعة جميع الجهات، فالفوقيّة هي محلّ العُلوّ، وهذه الفوقيّة قد تكون فوقيّة مكان، أو فوقيّة مكانة، فالّذي يقول: إنّها فوقيّة مكان، يرى أنّ الله سبحانه وتعالى في السّماء، بدليل أنّ الجارية الّتي سُئِلت: أين الله؟ أشارتْ إلى السّماء، وقالت:

في السّماء[1]، فأشارت إلى جهة العُلُوّ؛ لأنّه لا يصحّ أن نقول: إنّ الله سبحانه وتعالى تحت، فالله سبحانه وتعالى مُنزَّهٌ عن المكان، وما نُزِّه عن المكان نُزِّه عن الزّمان، فالله عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن أنْ نُحيّزه، لا بمكانٍ ولا بزمانٍ؛ لأنّ المكان والزّمان مخلوقات من خلقه، وهم قالوا: بأنّ الفوقيّة هنا فوقيّة حقيقيّة؛ أي: أنّه سبحانه وتعالى فوق وأعلى مِن الجميع، ونقول لمن يقول بهذه الفوقيّة: الله سبحانه وتعالى أَعْلى مِنّا، من أيّ ناحية؟ من هذه أم من هذه؟ فالفوقيّة هنا فوقيّة مكانة، بدليل أنّنا نرى الحرس الّذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون، يكون الحارس أعلى من المحروس فوقه، فهو فوقه مكاناً، إنّما هل هو فوقه مكانةً؟ بالتّأكيد لا، بينما هنا الفوقيّة هي فوقيّة علوّ مكانة، والله سبحانه وتعالى لا يحدّه مكان، قال جلّ جلاله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: من الآية ٤]، فلا نحدّده بمكانٍ تعالى الله عن ذلك، وهو معنا في كلّ مكان.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: وهذه هي الطّاعة، وهي أن تفعلَ ما أُمِرتْ به، وأنْ تجتنبَ ما نُهيتَ عنه، ولكنّ الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطّاعة، وهو: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، ولم تقُلْ الآية مثلاً: (ويجتنبون ما ينهوْنَ عنه)،

(١) فقد جاء في حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَماً لِي فِي قِبَلِ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُهَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا»، فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟»، فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، وَقَالَ مَرَّةً: «هِيَ مُؤْمِنَةٌ، فَأَعْتِقْهَا». مسند الإمام أحمد بن حنبل: أَحَادِيثُ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ ابْنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ، الحديث رقم (٢٣٧٦٢).

لماذا؟ نقول: لأنّ في الآية ما يسمّونه بالتّلازم المنطقيّ، والمراد بالتّلازم المنطقيّ أنّ كلَّ نهيٍ عن شيءٍ فيه أمر بما يقابله، فكلّ نهي يؤول إلى أمرٍ بمقابله، فقوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩﴾، تستلزم منطقيّاً: (ويجتنبون ما يُنهَوْن عنه)، وكأنّ الآية جمعت الجانبين، والله سُبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلّا أنّهم يهيمون في ذات الله جلّ جلاله، ومنهم ملائكة مُوكّلون بأمر الخلق، وهم: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا٥﴾ [النّازعات]، ويقول سُبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: من الآية ١١]، ومنهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ١١﴾ [الانفطار]، فهناك ملائكة لها علاقة بِنَا، وهم الّذين أمرهم الحقّ سُبحانه وتعالى أن يسجدوا لآدم عليه السلام حينما خلقه الله عزّ وجلّ، وملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان، وكُلُّ مهمّتهم التّسبيح والذّكْر.

(الآية ٥١) - ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ٥١﴾:

﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾: جاء النّهي في الآية نتيجة خروج الإنسان عن مُراد ربّه سُبحانه وتعالى، فالعجيب أنّ البشر والجنّ؛ أي: الثّقلين، هم المختارون في الكون كلّه، اختيار في أشياء وقَهْر في أشياءٍ أخرى، فمن النّاس مَن يقول: لا إلهَ في الوجود.. العالم خُلِق هكذا بطبيعته، وقد يأتي إنسانٌ آخر ويقول: بل هناك آلهة متعدّدة؛ لأنّ العالم به مصالح كثيرةٌ وأشياء لا ينهض بها إلهٌ واحد؛ يعني: إلهٌ للسّماء، وإلهٌ للأرض، وإلهٌ للشّمس.. إلخ، فهذه بعض آراء البشر، وعندما يقول بعضهم: لا يمكن لإلهٍ واحدٍ أن يقوم بكلّ هذا، فهو

قد نسب القدرة الفرديّة فيه إلى قدرة الله ﷻ، والله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فالقدرة الإلهيّة لا تعالج الأشياء كما يفعل البشر، ولا تحتاج إلى مجهودٍ وعملٍ، بل يتمّ هذا كلّه بكلمة: ﴿كُن﴾، كُنْ كذا وانتهت المسألة؛ لذلك فالله ﷻ يقول في الحديث القدسيّ: «وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلاَّ كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلامٌ وَعَذَابِي كَلامٌ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ»[1]، فالإنسان الّذي يُشفِق على الإله الواحد أنّه يتعب من إدارته للكون بشتّى نواحيه، وضع مستوى الألوهيّة بأمثال البشر، والله ﷻ لا يُباشر سلطانه علاجاً في الكون، وإنّما يباشره بكلمة: ﴿كُن﴾.

إذاً: إلهٌ واحدٌ يكفي، وما دُمْنا سلَّمنا بإلهٍ واحدٍ، فإيّاك أن تقول بتعدُّد الآلهة، وإذا كان الحقّ ﷻ نفى إلهين اثنين، فنَفْي ما هو أكثر من ذلك أَوْلَى، واثنان أقلّ صُور التّعدّد.

ومعنى: ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾؛ أي: معبودين، فيكون لهما أوامر ونواه، والأوامر والنّواهي تحتاج إلى طاعة، والكون يحتاج إلى تدبير، فأيُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون؟ أم أنّه يحتاج إلى مُسَاعد؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعدٍ فهذا نقْصٌ

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع، باب ٤٨، الحديث رقم (٢٤٩٥).

فيه، ولا يصلح أن يكون إلهاً، فهو إلهٌ واحدٌ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨]، فلو قال معترضٌ: كيف يشهد لذاته؟ نقول: نعم، يشهد لذاته سبحانه؛ لأنّه لا أحدَ غيره، لا أحد معه، فشهادة الذّات للذّات هنا شيءٌ طبيعيٌّ، وكأنّه ﷻ يقول: لا أحدَ غيري، وإنْ كان هناك إلهٌ غيري فَلْيُرِني نفسه، وليُفصِح عن وجوده، وبشهادته ﷻ لذاته بأنّه لا إله إلّا هو أقبل على خَلْق الخَلْق؛ لأنّه يعرف أنّه لا إله غيره، فإذا قال: ﴿كُن﴾، فهو واثقٌ أنّه سيكون، وعندما يحكم الله ﷻ حُكْماً غيبيّاً يقول: أنا حكمت هذا الحكم مع أنّكم مختارون في أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا، ولكنّي حكمتُ بأنّكم لا تفعلون، وما دُمْتُ حكمت بأنّكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا، ولكن ما فعلتم، فهذا دليلٌ على أنّه لا إله غيري يُعينكم على أنْ تفعلوا.

ثمّ شهدتْ الملائكة على شهادة الذّات، وشهد أولو العلم شهادةَ الاستدلال، كما قال ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨].

﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾: فعندنا العدد، وعندنا المعدود، فإذا قُلْنا مثلاً: قابلت ثلاثة رجال، فكلمة: (ثلاثة) دلَّتْ على العدد، وكلمة: (رجال) دلَّتْ على جنس المعدود، وهكذا في الأعداد جميعها ما عدا المفرد والمثنّى، فلفظ كلٍّ منهما يدلّ على العدد والمعدود معاً، كما لو قلت: إله، فقد دلَّتْ على الوحدة، ودلَّتْ على الجنس، وكذلك (إلهين) دلَّتْ على المثنّى وعلى جنس المعدود، ولذلك كان يكفي في الآية الكريمة -كما نعتقد- أن يقول ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾ دون التّأكيد بلفظ: ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾؛ لأنّها دلَّتْ على العدد وعلى

المعدود معاً، ولكنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد هذا تأكيداً للأمر العقديّ لأهمّيّته، ومن أساليب العرب إذا أحبُّوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد، وكذلك في قوله: ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ فقط تثبت الألوهيّة، ولتأكيد هذه القضيّة العقديّة؛ لأنّها أهمّ القضايا بالنّسبة إلى الإنسان، وهي قضيّة القمّة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، وكذلك أيضاً في قوله:

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: فجاء بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٰحِدٞ﴾ لتأكيد وحدانيّة الله جَلَّ جَلَالُهُ.

وفي الآية مَلْحظٌ آخر يجب تأمّله، وهو أنّ الكلام هنا في حالة الغيبة: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، فكان القياس في اللّغة هنا أن يقول: (فإيّاه فارهبون)، ولكنّه قال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، ووراء تحويل السّياق من الغائب إلى المتكلّم حكمةٌ، ومَلْحظٌ بلاغيٌّ، فبعد أنْ أكَّد الألوهيّة بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، صَحَّ أنْ يُجابِهَهم بذاته؛ لأنّ المسألة ما دامتْ مسألة رَهْبة، فالرّهبة من المتكلّم خيرٌ من الرّهبة من الغائب، وكأنّ السّياق يقول: ها هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمامك، وهذا أَدْعى للرّهْبة، وكذلك في فاتحة الكتاب نقرأ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة]، ولم يَقُلْ: (إيّاه نعبد)، متابعة للغيبة، بل تحوَّل إلى ضمير الخطاب فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة]؛ ذلك لأنّ العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أَهْلاً للمواجهة والخطاب المباشر مع الله عَزَّ وَجَلَّ، فقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، بعد ما استحضر العبد عظمة ربّه، وأقرّ له بالوحدانيّة وعَلِم أنّه إلهٌ واحدٌ، وليس إلهين، بل واحدٌ، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

(الآية ٥٢) - ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾:

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: قد تكون (اللّام) للمِلْك كما في الآية، كما نقول: المال لزيد، وقد تكون للتّخصيص إذا دخلتْ اللّام على ما لا يملك، كما نقول: اللّجام للفرس، والمفتاح للباب، فالفرس لا يملك اللّجام، والباب لا يملك المفتاح، فهذه للتّخصيص، والحقّ ﷻ يقول هنا: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وفي موضعٍ آخر يقول ﷻ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: من الآية ٦٨]، وكذلك في قوله جل جلاله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحشر: من الآية ٢٤]، ومرّةً يقول: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: من الآية ١]، حينما تكون اللّام للملكيّة قد يكون المملوك مختلفاً، ففي قوله ﷻ: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، يعني: القدر المشترك الموجود فيهما؛ أي: الأشياء الموجودة في السّماء وفي الأرض، أمّا في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: من الآية ٦٨]؛ أي: الأشياء الموجودة في السّماء وليست في الأرض، والأشياء الموجودة في الأرض وليست في السّماء؛ أي: المخصَّص للسّماء والمخصَّص للأرض، وهذا ما يُسمُّونه استيعاب الملكيّة، وما دام ﷻ له ما في السّموات وما في الأرض، فليس لأحدٍ غيره مِلْكيّة مستقلّة، وما دام ليس لأحدٍ غيره ملكيّة مستقلّة، فليس له ذاتيّة وجود؛ لأنّ وجود أيّ أحدٍ سوى الله ﷻ موهوبٌ له، ولذلك يقولون: مَنْ أراد أن يعاند في الألوهيّة يجب أن تكون له ذاتيّة وجود، وليست هذه إلّا لله ﷻ، ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصّغير الّذي يعاند أباه،

وهو ما يزال عَالةً عليه، فيقول له: انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك، فإذا ما شَبَّ الولد وبلغ وبدأ في الكَسْب أمكن له الاعتماد على نفسه، والاستغناء عن أبيه، لذلك نقول لمن يعاند في الألوهيّة: أنت لا تقدر؛ لأنّ وجودك هِبَة، وقيام وجودك هِبَة، كلّ شيءٍ يمكن أنْ يُنزع منك، ولذلك، فالله سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧﴾ [العلق]، فهذا الّذي رأى نفسه استغنى عن غيره من وجهة نظره إنّما هل استغنى حقّاً؟ لا، لم يستغن، بدليل أنّه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك، والله جل جلاله له ما في السّموات والأرض، وبه قيام وجوده بقيّوميّته، فهو سبحانه وتعالى يُطمئِنك ويقول لك: أنا قيُّوم؛ يعني: قائمٌ على أمرك، قيُّوم بالمبالغة في الفِعْل، وما دام هو سبحانه وتعالى القائم على أمرنا إيجاداً من عَدَم، وإمداداً من عُدم، فيجب أن تكون الطّاعة له سبحانه وتعالى لا لغيره، فوجودنا من الله سبحانه وتعالى، وإمدادنا من الله سبحانه وتعالى، وإبقاء مُقوِّمات حياتنا من الله سبحانه وتعالى؛ لذلك قال عز وجل:

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾: أي: هذه نتيجة؛ لأنّ لله ما في السّموات والأرض، فَلَه الدّين واصباً؛ أي: له الطّاعة والخضوع دائماً مستمرّاً، ومُلْك الله سبحانه وتعالى دائمٌ، وهو سبحانه لا يُعطي مُلْكَه لأحدٍ، ولا تزال يد الله عز وجل في مُلْكه، وما دام الأمر هكذا فالحقّ سبحانه وتعالى يسألهم:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾: والهمزة هنا استفهامٌ للإنكار والتّوبيخ، فلا يجوز أنْ تتّقيَ غير الله عز وجل، لا يليق بك، وقد علمتَ أنّ لله ما في السّموات وما في الأرض، وله الطّاعة الدّائمة والانقياد الدّائم، وبه سبحانه وتعالى قامت السّموات والأرض، ومنه سبحانه وتعالى الإيجاد من عَدَم والإمداد من عُدم، فكيف تتّقي غيره، وهو أَوْلى

بالتّقوى، فإنِ اتّقيتُم غير الله ﷻ فذلك حُمْقٌ في التّصرّف يؤدّي إلى العطَب والهلاك، والله ﷻ أعطاكم نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى.

(الآية ٥٣) - ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾: أمدَّنا الله ﷻ بهذه النّعم رحمةً منه وفضلاً، نِعَمٌ لا تُعَدّ ولا تُحْصَى، ولكن لرتابة النّعمة وحلولها في وقتها، كالشّمس الّتي تشرق كلّ يومٍ فيتعوّدها الإنسان، ثمّ يذهل عن المُنعِم ﷻ، فرتابة النّعمة قد تُذهِل عن المُنعِم، فلا يتذكّره إلّا حين الحاجة إليه؛ لذا يُنبّهنا الله ﷻ: إذا أعطيتُ لكم نعمةً فإيّاكم أنْ تغترّوا بها، إيّاكم أن تُذهِلكم النّعمة عن المُنعم؛ لأنّ الله ﷻ إذا سلب النّعمة منكم فلن تجدوا غيره تلجؤون إليه، فستقولون: يا ربّ يا ربّ، ويكون الإنسان شاهداً على نفسه، فهو لن يكذب عليها، فَلِمَنْ يتوجّه الإنسان إذا أصابه مرضٌ أو فقرٌ؟ لن يتوجّه إلّا إلى الله ﷻ فيقول: يا ربّ.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾: فترة الضُّرّ الّتي تمرُّ بالإنسان هي الّتي تلفته إلى الله ﷻ، والحاجة هي الّتي تُلجئه إلى المصدر الحقيقيّ للإمداد، فإذا كانت النّعمة تُنسِيه، فالضّرّ يُذكِّره بربّه الّذي يملك وحده كَشْف الضّرّ عنه، ولذلك، فالنّاس أصحاب اليقين في الله ﷻ الصّالحين ساعةَ أنْ يصيبهم ضُرٌّ، يقول: ذكَّرتني بك يا ربّ، يعدّها نعمة، كأنّها نجدة نجدتْه ممّا هو فيه من غفلةٍ، فيقول: يا ربّ، أنت ذكّرتني بك، كنتُ ناسياً ذاهلاً، كنت في غفلةٍ.. وعندما يعود الإنسان ويشعر بالتّقصير يرفع الله ﷻ عنه البلاء، وذلك يرفع القضاء عن

العبد إنْ رضي به وعلم أنّ فيه خيراً له، ولذلك فالرّسول ﷺ يُنبِّهنا إلى هذه الأحداث الّتي تُصيبنا، إيّاكم أن تستقبلوها بالجزع والفزع، ولكن استقبلوها بالإيمان والرّضا، واعلموا أنّ ربّكم يغار عليكم، وهو بهذه الابتلاءات يلفتكم إليه قهراً عنكم؛ لكي تعودوا إليه وتلجؤوا إليه، لكي تقولوا: يا ربّ، ويقول سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٣]؛ أي: أنّه سبحانه وتعالى يريد منّا إذا نزل بنا بلاء وبأس أنْ نتضرّع إليه جلّ جلاله؛ لأنّ الضّراعة إلى الله سبحانه وتعالى لَفْتة وتذكير به، والنّبيّ ﷺ يُرشِدنا إلى هذه الحقيقة، فالمصاب الحقيقيّ ليس مَنْ نزول ضُرٍّ أو بلاء، بل المصاب الحقيقيّ في مَنْ حُرِم الأجر والثّواب.

﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾: أي: تتضرّعون بصراخٍ وصوتٍ عالٍ، عندها لا يستحي الإنسان ولا يتكبّر، وعندها يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى حتّى يكشف الضّرّ عنه.

أمام هذه الآيات أليس حريٌّ بالإنسان أن يعرف بأنّه يتقلّب بين النّعمة والضّرّ كما قال النّبيّ ﷺ: «عَجَباً لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ»(١)، فالحياة ابتلاءات، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة]، هذه هي طبيعة الحياة، فمن يعتقد أنّها من غير منغّصات فهو مخطئٌ وواهم، ومن يعتقد أنّه لن يموت أو لن يمرض فهو مخطئٌ، فالإنسان سيتعرّض لهذه الابتلاءات كلّها في هذه الحياة، فهو أمام خيارين، إمّا أن يصبر ويشكر، وإمّا

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب المؤمن أمره كلّه خير، الحديث رقم (٢٩٩٩).

أن يتمرّد ويجحد فيتعس، فعلى الإنسان أن يُقبل على الله سبحانه وتعالى في النّعماء كما كان يفعل يونس عليه السلام، لذلك عندما نادى في بطن الحوت في قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء]، قالت الملائكة –عليهم السّلام–: يا ربّ، هذا صوت عبدك يونس مكظوم، قالوا: يا ربّ، أفلا ترحم من كان يشكر في النّعماء فتنجيه من البلاء، ضجّت الملائكة؛ لأنّه كان يشكر في النّعماء، فالإنسان في هذه الحياة يجب أن يعوّد نفسه على الصّبر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: من الآية ١٠]، يجب ألّا يقنط من رحمة الله سبحانه وتعالى، يجب أن يُقبل دائماً في هذه الحياة وهو واثقٌ أنّ ما عند الله سبحانه وتعالى أفضل ممّا عنده.

(الآية ٥٤) - ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ﴾: فمن النّاس مَنْ إذا أصابه الله سبحانه وتعالى بضُرٍّ أو نزل به بأْسٌ تضرّع وصرخ ولجأ إلى الله سبحانه وتعالى ودعاه، وربّما سالتْ دموعه، وأخذ يُصلّي ويقول: يا فلان، ادْعُ الله لي، فإذا ما كشف الله عزّ وجلّ عنه ضُرّه عاود الكرّة من جديد؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: من الآية ١٢]، ومن لُطْف الأداء القرآنيّ هنا أن يقول:

﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾: أي: جماعة منكم وليس كلّكم، أمّا

الباقي فيمكن أنْ يثبتُوا على الحقّ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون، فالنّاس مختلفون في هذه القضيّة: فواحدٌ يتضرّع ويلتفت إلى الله سُبحانهُ وتعالى من ضُرٍّ واحدٍ أصابه، وآخر يلتفت إلى الله سُبحانهُ وتعالى من ضُرّيْن.. وهكذا، فبعض النّاس عندما يكشف المولى سُبحانهُ وتعالى عنه الضّرّ فإنّه يعود إلى غيّه وإلى ما كان يفعل، والحقيقة أنّه في هذه الآية صمّام أَمْن اجتماعيّ في الكون، يقول للنّاس: إيّاكم أن تأخذوا على غيركم حين تُقدِّمون إليهم جميلاً فيُنكرونه، إيّاكم أنْ تكُفّوا عن عمل الجميل لغيركم؛ لأنّ هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع مَن هو أعلى منكم، فعلوه مع الله سُبحانهُ وتعالى، فلا يُزهدكم إنكارهم للجميل في فِعْله، بل تمسَّكوا به لتكونوا من أهله، ففي الآية تقنينٌ وأمانٌ للمجتمع أن يتفشّى فيه مرض الزُّهْد في عمل الخير.

﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾: تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين، ومن الكافرين، ولكن لماذا يشركون؟

(الآية ٥٥) - ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾:

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾: أي: مُستعظمين، كقارون الّذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: من الآية ٧٨]، أخذتُ هذا بجُهدي وعملي، ومثله مَنْ تقول له: الحمد لله الّذي وفّقك في الامتحان، فيقول: أنا كنت مُجِدّاً، ذاكرتُ وسهرتُ، نعم أنت ذاكرتَ، وأيضاً غيرك ذاكر وجَدَّ واجتهد، ولكن أصابه مرضٌ ليلة الامتحان فأقعده، وربّما كنت مثله، فهذه نغمة مَنْ أَنكر الفضل، وتكبَّر على صاحب النّعمة سُبحانهُ وتعالى.

﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾: اللّام هنا لام الصّيرورة؛ أي: لام العاقبة وليست لام التّعليل، ومعناها أنّك قد تفعل شيئاً لا لشيءٍ، ولكنّ الشّيء يحدث هكذا، وليس في بالك أنت، ومثال هذه اللّام في قوله ﷻ في قصّة موسى عليه السلام وفرعون: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: من الآية ٨]، ففرعون حينما أخذ موسى عليه السلام من البحر وتبنّاه وربّاه، هل كان يتبنّاه ليكون له عدوّاً؟ بالتّأكيد لا، إنّما هكذا كانت النّهاية، لكي يثبت الحقّ ﷻ أنّهم كانوا مُغفَّلين، وأنّ الله ﷻ حالَ بين قلوبهم وبين ما يريدون.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: أي: اكفروا بما آتيناكم من النِّعَم، وبما كشفنا عنكم من الضّرّ، وتمتَّعوا في الدّنيا؛ لأنّني لم أجعل الدّنيا دار جزاء، إنّما الجزاء في الآخرة، وكلمة: (تَمَتَّعُوا) هنا تدلّ على أنّ الله ﷻ قد يُوالي نعمه حتّى على مَنْ يكفر بنعمته، وإلّا فلو حَجَب عنهم نِعَمه فلن يكون هناك تمتُّعٌ.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾: أي: سوف ترَوْنَ نتيجة أعمالكم، ففيها تهديدٌ ووعيدٌ.

(الآية ٥٦) - ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦﴾:

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾: أي: الّذين يكفرون بالله ﷻ ويتّخذون الأصنام والشّركاء، يجعلون لها نصيباً.

﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾: العلم أن تعرفَ قضيّة، هذه القضيّة صِدْق؛ أي: مطابقة للواقع، وتستطيع أن تُدلِّل عليها، فإذا اختلّ واحدٌ منها لم تكُنْ علماً، وهؤلاء حينما جعلوا للأصنام نصيباً، فقد أَتَوْا بأشياء لا وجودَ لها في الواقع ولا في

العلم، وليست حقائق، وهل للأصنام وجود؟ وهل عليها دليل؟ هذه الأصنام ليس لها وجودٌ في الحقيقة، وهم يأخذون ما رزقناهم ويجعلونه لأصنامهم.

﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾: التّاء هنا في: ﴿تَٱللَّهِ﴾ للقسم؛ أي: والله لَتُسْألُنَّ عمّا افتريتم من أمر الأصنام، والافتراء: هو الكذب المتعمّد.

(الآية ٥٧) - ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾:

تبيّن هذه الآيات بشكلٍ قاطعٍ كيف كان وضع المرأة في الجاهليّة عند مجيء الإسلام، بل وفي العالم أجمع، حيث كانت أداةً للزّينة واللّهو واللّعب، ومن أبشع صور امتهانها على الإطلاق أنّه عندما يُرزَق أحدهم ببنتٍ كان يدفنها من سوء ما بُشِّر به، وليس هذا فقط في الجاهليّة عن العرب، بل كانت المرأة في كلّ بقاع الأرض ممتهنة أكثر من ذلك، حيث كانت تعدّ أقلّ من المتاع، حتّى جاء الإسلام وكرّمها ورفع شأنها، قال النّبيّ ﷺ: «النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»(١)، أعظم عطاء وتكريم ورفعة للمرأة على الإطلاق، وقد جاءت في القرآن الكريم سورةٌ كاملةٌ باسم (سورة النّساء)، وهناك (سورة التّحريم) و(سورة الطّلاق)، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [التّحريم: من الآية ١١]، وعندما ذكر السّيّد المسيح عليه السلام ذكر جدّته، وذكر البتول مريم عليها السّلام، وغيرها من الآيات القرآنيّة الّتي تكرّم المرأة، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، ففي التّكليف

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند النّساء، مسند الصّدّيقة عائشة بنت الصّدّيق رضي الله عنها، الحديث رقم (٢٦١٩٥).

والحقوق ساوى الإسلام بين الرّجل والمرأة، ووضع لكلٍّ منهما حقوقه بشكلٍ واضحٍ جليٍّ، بتكريمٍ للإنسانيّة، قال ﷻ: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: من الآية ٧٠]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب]، فأعطى الإسلام هذه الصّورة المشرقة، وهنا يعالج القرآن الكريم أخطر الأمور الاجتماعيّة في ذلك الزّمن، ويضرب ﷻ هذا المثل:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾: من كراهيتهم للبنت، والتّفريق بين الذّكر والأنثى.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: وعندما نسمع كلمة: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ فلنعلم أنّها تنزيهٌ لله ﷻ عمّا لا يليق به، فهي هنا تنزيهٌ لله ﷻ عمّا سبق من نسبة البنات إليه، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً؛ أي: تنزيهاً لله ﷯ عن أن يكونَ له بنات أو ذكور، وهم جعلوا لله ﷯ البنات، وجعلوا لأنفسهم الذّكور، وهذه قسمةٌ قال عنها القرآن الكريم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النّجم]؛ أي: جائرة، لم تجعلوها عادلة، بنسبة الأولاد إلى الله ﷻ، وجعل له ﷻ مَا تكرهون، وهو البنات، وجعل لكم ما تحبّون، لذلك كان في جَعْلهم لله ﷻ البنات عيبان:

الأوّل: أنّهم نَسبُوا إلى الله ﷻ الولد، ولو كان ذكراً فهو افتراءٌ باطلٌ يتنزّه الله ﷯ عنه.

الثّاني: أنّهم اختاروا ما هو في نظرهم ممتهنٌ ومُحتَقرٌ.

قال العبّاس رضي الله عنه: "لو سمع الله ما قال النّاس في النّاس لما كان النّاس"؛ أي: لو استجاب الله سبحانه وتعالى لرغبة النّاس في أنّهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم إناثاً؛ لانقطع النّسل، فالبنت هي الّتي تَلِد الولد، وبها بقاء النّوع واستمرار النّسل.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهٌ لله جل جلاله.

والحقّ سبحانه وتعالى حينما يُحدِّثنا عن الإنجاب يقول: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [الشّورى]، أوّل ما بدأ الحقّ سبحانه وتعالى بدأ بالإناث، ثمّ أعطانا هذه الصّورة من الخَلْق: إناث، ذكور، ذكور وإناث، عقيم، فهِبَات الله سبحانه وتعالى لها أربعة أنواع، ومن هنا كان العُقْم أيضاً هبةً من الله جل جلاله لحكمةٍ أرادها سبحانه وتعالى، لكنّ النّاس لا تأخذ العُقْم على أنّه هِبَةٌ، بل تأخذه على أنّه نِقْمة.

(الآية ٥٨) - ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾:

نعرف أنّ البشارة تكون بخير، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها استقبالَ البشارة، ولكنّهم استقبلوها استقبال النّاقمين الكارهين لما بُشِّروا به، فتجد وجه الواحد منهم مسودّاً.

﴿مُسۡوَدّٗا﴾: ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾: الكظم: هو كَتْم الشّيء، ولذلك يقول سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]، وهو مأخوذٌ من كَظْم القِرْبة حين تمتلئ بالماء، ثمّ يكظمها؛ أي: يربطها، فتراها كأنّها ستنفجر، هكذا الغضبان

تنتفخ عروقه، ويتوارد الدّم في وجهه، ويحدث له احتقانٌ، فهو مكظومٌ ممنوعٌ أنْ ينفجر. ثمّ يقول الله ﷻ واصفاً حاله:

(الآية ٥٩) - ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾:

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: أي: يتخفَّى منهم مخافَة أنْ يُقال: أنجب بنتاً.

﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾: نلاحظ إعادة البشارة في هذه الآية أيضاً، وكأنّ الله ﷻ يُحنّن قلب الإنسان على البنات، ويدعوه إلى الرِّفْق بهنّ.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: أي: ماذا يفعل فيما وُلِد له، أيحتفظ به على هُونٍ؛ أي: هوان ومذلّة، أم يدسُّه في التّراب؛ أي: يدفنها فيه حيّةً؟

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: أي: ساء ما يحكمون في الحالتين، حالة الإمساك على هُونٍ ومذلَّةٍ، أو حالة دَسّها في التّراب، فكلاهما إساءةٌ بالغةٌ، وكان بعض هؤلاء إذا وُلِدَتْ له بنتٌ كرهها، فإن أمسكها أمسكها على حال كونها ذليلةً عنده، محتقرةً مُهَانةً، وهي مسكينةٌ لا ذنبَ لها، فكان لا بدّ لنا من أن ننوّه إلى أنّ الإسلام أعطى البنات مكانتهنّ وحقوقهنّ؛ لأنّه يُتَّهم دائماً زوراً وبهتاناً بموضوع حقوق المرأة.

(الآية ٦٠) - ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾:

﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ﴾: صفة السّوء؛ أي: الصّفات السّيّئة الخسيسة من الكفر والجحود والنّكْران، ومن عَمي البصيرة، وغيرها من صفات السّوء.

لماذا كان للّذين لا يؤمنون بالآخرة مثَلُ السّوء؟ لأنّ المعادلة الّتي أَجْرَوْها معادلة خاطئة؛ لأنّ الّذي لا يؤمن بالآخرة قصّر عمره، فعُمْر الدّنيا بالنّسبة إليه قصيرٌ، وقد قلنا: إيّاك أن تقيسَ الدّنيا بعمرها، ولكن قِسْ الدّنيا بعمرك أنت، فعمر الدّنيا مدّة بقائِكَ فيها، إنّما هي باقيةٌ من بعدك لغيرك، وليس لك نصيبٌ فيها بعد انقضاء عمرك، ومع ذلك، فعمر الدّنيا مهما طال مُنْتَهٍ إلى زوال، فَمنْ لا يؤمن بالله ﷻ ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخاسرة؛ لأنّه لا يضمن أن يعيش في الدّنيا حتّى متوسّط الأعمار، وهَبْ أنّه عاش في الدّنيا إلى متوسّط الأعمار، بل إلى أرذل العمر، وهَبْ أنّه استمتع في دنياه بأنواع المعاصي كلّها، ماذا ستكون النّهاية؟ أنْ يفوتَ هذا كلّه إلى الموت؟! قارن حال هذا بمَنْ آمن بالله ﷻ وآمن بالآخرة، فمَنْ لا يؤمن بالآخرة دنياه مظنونة، يمكن أن يعيش فيها، أو يعاجله الموت، حتّى مَنْ عاش إلى متوسّط الأعمار، فالنّهاية إلى زوال، وما نال من مُتَعٍ في الدّنيا أخذها على قَدْر إمكاناته، أمّا مَنْ آمن بالآخرة فقد ربح صفقته، حيث اختار حياةً ممتدّةً يجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات المُنعِم ﷻ، فقوله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾؛ أي: الصّفة شديدة السّوء؛ ذلك لأنّهم خاسرون لا محالة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: لله الصّفة العليا، وكأنّ الآية تقول لك: اترك صفة السّوء، وخُذ الصّفة الأعلى الّتي تجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات الله ﷻ.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: العزيز؛ أي: الّذي لا يُغلَب على أمره، والحكيم: الّذي يضع الأمور في نصابها.

(الآية ٦١) - ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾:

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾: عندنا هنا: الأخْذ والمؤاخذة، الأخْذ: هو تحصيل الشّيء، ويدلّ هذا على أنّ الآخذ له قدرةٌ على المستمسك بنفسه أو بغيره، أمّا المؤاخذة فتعني: هو أخذَ منك فأنت تأخذُ منه، ومنه قَوْل أحدنا لأخيه: (لا مؤاخذة)، في موقفٍ من المواقف، والمعنى: أنّني فعلتُ شيئاً أستحقّ عليه الجزاء والمؤاخذة، فأقول: لا تؤاخذني، لم أقصد، لذلك فالله ﷻ يقول هنا: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾، ولم يَقُلْ: يأخذ النّاس، وفي آيةٍ أخرى قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود]، لماذا أخذها الله ﷻ؟ أخذها لأنّها أخذتْ منه حقوقه في أن يكون إلهاً واحداً فأنكرتها، وأنكرت تشريعه الصّالح، ويُبيّن الحقّ ﷻ أنّ هذه المؤاخذة لو حدثت ستكون بسببٍ من النّاس أنفسهم، فيقول ﷻ:

﴿بِظُلۡمِهِم﴾: أوّل الظّلم أنّهم أنكروا الوحدانيّة، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: من الآية ١٣]، ثمّ ننتقل إلى ظلم الآخرين، وعدم تحقيق العدل في أيّ شيءٍ من الأشياء، والظّلم ليس فقط للآخرين، بل قبل ذلك الظّلم أن تظلم نفسك بأن تقدّم لها متعاً عاجلةً على حساب أعراض وأموال النّاس وتنسى النّعيم المقيم، لذلك نجد في آيات الدّعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، فلو آخذ الله ﷻ النّاس بما اقترفوا من ظلم:

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾: قد يقول قائلٌ: الله ﷻ سَيُؤاخذ النّاس بظلمهم، فما ذنب الدّابّة؟ ماذا فعلت؟ نقول: لأنّ الدّابّة خُلِقَتْ من أجل النّاس، وسُخِّرتْ لهم، وهي من نِعَم الله ﷻ عليهم، فليست المسألة نكايةً في الدّابّة، بل فيمَنْ ينتفع بها، وقد يُراد العموم للخلق كلّهم، فإذا لم يؤاخذ الله ﷻ النّاس بظلمهم في الدّنيا فهل يتركهم هكذا؟ الجواب: لا، فإذا أفلت الإنسان من عدالة الأرض فلن يفلت من عدالة السّماء:

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾: هذا الأجل انقضاء دُنيا، وقيام آخرة، حتّى لو لم يؤمنوا بالآخرة، فإنّ الله ﷻ يُمهلهم في الدّنيا، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطّور: من الآية ٤٧].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾: أي: إذا جاءت النّهاية فلا تُؤخَّر، وهذا شيءٌ معقول، ولكن إذا جاء الأجل كيف لا يستقدِمون؟ المسألة إذاً ممتنعة مستحيلة، كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك؟ هذا لا يستقيم، لكن يستقيم المعنى تماماً على أنّ: ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ ليست من جواب إذا، بل تمّ الجواب عند: ﴿سَاعَةٗ﴾، فيكون المعنى: إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً، وإذا لم يأتِ لا يستقدمون، والله ﷻ أعلم.

(الآية ٦٢) - ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾:

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾: الأليق أنّ الّذي يُخرج شيئاً لله ﷻ يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله ﷻ، فإذا أردت أن تتصدّقَ تصدَّقْ بأحسن ما

عندك، أو على الأقلّ من أوسط ما عندك، لكن أنْ تتصدَّق بأخسِّ الأشياء وأرذلها، أن تتصدّق ممّا تكرهه، كالّذي يتصدّق بخبزٍ يابسٍ غير جيّد، أو لحمٍ تغيّر، أو ملابس مُمَزّقة، فهذا يجعل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يكره، ولو أنّ النّاس وَثِقوا بجزاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ما يعطيه العبد لأخيه لأَعطَوْا ربّهم أفضل ما يُحبّون، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، فأنت تتعامل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا دليلٌ على حبّك للآخرة، وأنّك من أهلها، فأنت تعمرها بما تحبّ، ليس بما تكره، أمّا صاحب الدّنيا فيعطي أقلّ وأخسّ ما عنده؛ لأنّ الدّنيا في نظره أهمّ من الآخرة، وبهذا يستطيع الإنسان أنْ يقيسَ نفسه: أهو من أهل الآخرة، أم من أهل الدّنيا بما يعطي لله عَزَّوَجَلَّ؟!

ذات يومٍ ذهب رجلٌ إلى الإمام عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وسأله: أريد أن أعرف، هل أنا من أهل الدّنيا أو من أهل الآخرة؟ فردّ الإمام عليّ كرم الله وجهه، قائلاً: "الجواب عندك أنت، لا عندي، انظر إذا دخل عليك من يعطيك، ودخل عليك من يطلب منك، أيّهما ترحّب به وتقابله ببشاشة، أيّهما تحبّ؟ إن كنت تحبّ من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة، وإن كنت تحبّ من يعطيك فأنت من أهل الدّنيا..".

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: أي: ممّا ذُكر في الآيات السّابقة من قولهم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾، وأنّ الملائكة -عليهم السّلام- بنات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً، إلى غير ذلك من أقوالهم، فقد جعلوا لله عَزَّوَجَلَّ البنات وهم يكرهون البنات؛ لذلك: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [النّحل]، والمسألة هنا ليستْ مسألة جَعْل البنات

لله سبحانه وتعالى، بل مُطْلق الجَعْل منهم مردودٌ عليهم، فلو جعلوا لله جل جلاله ما يحبّون من الذّكور ما تُقبّل منهم أيضاً؛ لأنّهم جعلوا لله سبحانه وتعالى ما لم يجعل لنفسه.

والله سبحانه وتعالى أمرنا بالتّصدّق، فقال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، فنحن نجعل لله سبحانه وتعالى ما نحبّ ممّا أباح الله عز وجل، وليس ممّا حرّم، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: من الآية ٩٢]، وقوله جل جلاله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان]، ولذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: من الآية ٩٢]؛ أي: رَاعِ حقّ الفقير، وضرورة أنْ تجعله كنفسك، ولا يكُنْ هيّناً عليك فتعطيه أردأ ما عندك، والحقّ سبحانه وتعالى عندما أراد أن نتقرّب إليه بالنّسُك وذَبْح الهَدْي والأضاحي، قال: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحجّ: من الآية ٢٨]؛ لأنّك إذا علمتَ أنّك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾: الكذب: قضيّةٌ ينطق بها اللّسان ليس لها واقعٌ في الوجود؛ أي: مخالفة للواقع المشهود به من القلب، ولماذا يشهد عليه القلب؟ قالوا: لأنّه قد يطابق الكلام الواقع، ونحكم عليه مع ذلك بالكذب، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون]، بالله، أهذه القضيّة صِدْقٌ أم لا؟ إنّها قضيّةٌ صادقةٌ، أنت رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله سبحانه وتعالى، فلماذا شهد عليهم المولى سبحانه وتعالى أنّهم (كاذبون)؟ وفي أيّ شيءٍ هم كاذبون؟ قالوا: الحقيقة أنّهم صادقون في قولهم: إنّك لرسول الله، ولكنّهم كذبوا في شهادتهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾ [المنافقون: من الآية ١]؛ لأنّهم لا يشهدون فعلاً؛ لأنّ الشّهادة

تحتاج أنْ يُواطئَ القلبُ اللّسانَ ويسانده، وهذه الشّهادة منهم من اللّسان فقط لا يساندها القلب، والإنسان عُرْضة أنْ يقول الصّدق مرّة والكذب مرّة، لكن هؤلاء بمجرّد أن يقولوا: ﴿نَشۡهَدُ﴾ فهم كاذبون، وهذا معنى: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾.

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: أي: أنّ الكذب في قولهم: ﴿لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ فهذا اغترارٌ وتمنٍّ على الله ﷻ دون حقٍّ، ومثل هذه المقولة في سورة الكهف، في قصّةِ أصحاب الجنّتين، يقول ﷻ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف]، فهذه مقولات ثلاث كاذبة:

١- قوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾ [الكهف: من الآية ٣٥]، هذه الأولى، فكم من أشياء تغيَّرت، ومن يضمن لك بقاء ما أنت فيه، والله ﷻ يقول في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾ [القلم].

٢- الكذبة الثّانية: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: من الآية ٣٦]، فقد أنكر السّاعة.

٣- الكذبة الثّالثة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: من الآية ٣٦]، وهذا هو الشّاهد في الآية هنا، ففيها اغترارٌ وتمنٍّ على الله ﷻ دون حقٍّ، كمن ادّعوْا أنّ لهم الحسنى، وهم ليسوا أهلاً لها.

وفي موضعٍ آخر تأتي نفس المقولة: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ

﴿ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٠﴾ [فصّلت]، وهكذا الإنسان في طَبْعه لا يسأم من طلب الخير، وكلّما وصل فيه إلى مرتبةٍ تمنّى أعلى منها، يقنط إنْ مسَّه شرٌّ، وإنْ رفع الله ﷻ عنه ورحمه، قال: هذا لي، أنا أستحقّه، وأنا جديرٌ به.. كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: من الآية ٧٨].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: لا جرم: أي: حقّاً أنّ لهم النّار على ما تقدّم منهم أن جعلوا لله ﷻ ما يكرهون، وتصف ألسنتهم الكذب، وهذه أفعالٌ يستحقّون عليها النّار.

وكلمة: ﴿لَا جَرَمَ﴾ منها جارم بمعنى مجرم، فالمعنى: لا جريمة في عقاب هؤلاء؛ لأنّه لا يُقال على عقوبة الجريمة: إنّها جريمة، فكلمة: ﴿لَا جَرَمَ﴾ لها معنيان: ١- لا بُدَّ أنّ لهم النّار، أو ٢- لا جريمة في أنّ لهم النّار جزاء أعمالهم.

﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾: جاءت في كلمة: ﴿مُّفۡرَطُونَ﴾ عدّة قراءات: (مُفرَطون)، (مُفرِطون)، (مُفرِّطون)، (مُفرَّطون)، وجميعها تلتقي في المعنى، ونحن حينما نصلّي على جنازةٍ مثلاً، إذا كان الميّت مكلّفاً نقول في الدّعاء له: (اللّهمّ اغفر له، اللّهمّ ارحمه.. اللّهمّ إنْ كان مُحسناً فزِدْ في إحسانه، وإنْ كان مُسِيئاً فتجاوز عن سيئاته)، فإنْ كان صغيراً غير مُكلَّف قُلْنا في الدّعاء له: (اللّهمّ اجعله فرَطاً وذخراً)، فما معنى فرَطاً هنا؟ معناه: أن يكون الطّفل فَرَطاً لأبويه ومُقدّمة لهما إلى الجنّة، يمرُّ بين يديْ والديه ويسبقهما إلى الجنّة، وكأنّه يقدم

عليهما لِيُمهّد لهما الطّريق ليغفر الله ﷻ لهما، فمعنى مُفْرطون؛ أي: مُقدِمون، ولكن إلى النّار، ومنه قوله ﷻ عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [هود: من الآية ٩٨]؛ أي: يتقدّمهم إلى النّار، كما كنتَ مُقدّماً عليهم، وإماماً لهم في الدّنيا، فسوف تتقدّمهم هنا وتسبقهم إلى النّار.

(الآية ٦٣) - ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾:

﴿تَٱللَّهِ﴾: نعلم أنّ الله ﷻ يُقسِم بما يشاء على ما يشاء، أمّا نحن فلا نقسم إلّا بالله ﷻ، وفي الحديث الشّريف: «مَنْ كَانَ حَالِفاً، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١)، والحقّ ﷻ هنا يحلف بذاته ﷻ: ﴿تَٱللَّهِ﴾، مثل: (والله) و(بالله)، وقد جاء القَسَم لتأكيد المعنى؛ ولذلك يقول أحد الصّالحين: من أغضب الكريم حتّى ألجأه أن يُقْسِم؟! وقد يؤكّد الله ﷻ القَسَم بذاته، أو القَسَم ببعض خَلْقه، وقد ينفي القَسَم وهو يُقْسِم، كما في قوله ﷻ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ١﴾ [البلد]، وقوله: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة]، ومعنى: لا أُقسِم أنّ هذا الأمر واضحٌ جَليٌّ وضوحاً لا يحتاج إلى القَسَم، ولو كنت مُقسِماً لأقسمتُ به، بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة]، فالله ﷻ يُقسِم بذاته ليؤكّد لنا الأمر تأكيداً، وتأكيد الأمر عند الحكم في القضاء مَثلاً: إمّا بالإقرار، وإمّا باليمين، فإذا ما أقسمت له وحلفتَ فقد سددْتَ عليه منافذ التّكذيب.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الشّهادات، باب: كيف يستحلف، الحديث رقم (٢٦٧٩).

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾: أي: لسْتَ بِدْعاً في أنْ تُكذَّب من قومك، فهذه طبيعة الّذين يستقبلون الدّعوة من الله ﷻ على ألسنة الرّسل؛ لأنّ الرّسل لا يرسلهم الله ﷻ إلّا حينما يطمّ الفساد ويعُمّ، ومعنى إرسال الرّسل أنّ الله ﷻ تدخّلَ من السّماء، وأنزل منهجاً وأرسل رسلاً ليصحّح ما أخطأ به النّاس، وليعدِّلوا من سلوكهم وفق منهج الله ﷻ، فإذا ما تبلَّدتْ هذه النّفس، وتعوَّدتْ على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمّة، فمَنْ لا تُردِعه نفسه اللّوّامة يُردعه المجتمع من حوله، فإذا ما فسدَ المجتمع ككلّ، تتدخّل السّماء بإرسال الرّسل -عليهم السّلام-، فيأتي الرّسول حينما يعُمُّ الفساد المجتمع وهكذا حدث مع الأقوام السّابقين، فما معنى الفساد؟ الفساد: أن تُوجد مصالح فئة على حساب فئة أخرى، وأهل الفساد والمنتفعون به في كلّ زمان وفي كلّ مكان وفي المجتمعات كلّها، يأتي رسولٌ ليُخلِّص النّاس من فسادهم، فكيف يقابلونه؟ أيقابلونه بالتّرحاب؟ بالتّأكيد لا، لا بُدّ وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار، ويعلنوا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم.

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: هنا يتدخّل الشّيطان، ويُزيّن لأهل الفساد أعمالهم، ويحثّهم على محاربة الرّسل -عليهم السّلام-؛ فهؤلاء الّذين سيقضون على نفوذكم، سوف يأخذون ما في أيديكم من مُتَع الدّنيا، سوف يهزُّون مراكزكم، ويحطُّون من مكانتكم بين النّاس، هؤلاء سوف يرفعون عليكم الفقراء والعبيد، وهكذا يتمسَّك أهل الفساد والظّلم بظلمهم، ويعضّون عليه بالنّواجذ، ويقفون من الرّسل موقف العداء، فوطِّنْ نفسك يا محمّد على هذا، فلن تُقابَلَ من السّادة إلّا بالجحود والإنكار والمحاربة.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾: أي: في الآخرة، فما دام الشّيطان تولّاهم في الدّنيا، وزيَّن لهم، وأغراهم بعداء الرّسل، فَلْيتولّهم الآن، وليدافع عنهم يوم القيامة، وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله ﷻ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر]، وفي جدالهم يوم القيامة مع الشّيطان يقولون له: أنت أغويتَنا وزيَّنْتَ لنا، ماذا يرد؟ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، والسّلطان هنا: إمّا بالحجّة الّتي تُقنع، وإمّا بالقهر والغلبة والقوّة الّتي تفرض ما تريد، وليس للشّيطان مدخلٌ على الإنسان بالقوّة، فهو يحاول أن يزيّن ويغري، لا يملك حُجّة للإقناع، فلا إجبار ولا إقناع، وإنّما تزيين، فالشّيطان يردّ عليهم: ليس لي عليكم سلطان، بل مجرّد الإشارة أوقعتْكم في المعصية.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: يَصف العذاب هنا بأنّه أليمٌ شديدٌ مُهلِكٌ، وقد وصف الله ﷻ العذاب بأنّه أليم، عظيم، مُهين، شديد... والعذاب: شعورٌ بالألم وإحساسٌ به، وقد توصَّل العلماء إلى أنّ الإحساس كلّه في الجلد؛ لذلك قال ﷻ لِيُديمَ على هؤلاء العذاب: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النّساء: من الآية ٥٦]، وهكذا يستمرّ العذاب باستمرار الجلود وتبديلها.

(الآية ٦٤) - ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: الكتاب هو القرآن الكريم.

﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٗ﴾: الهدى: معناه بيان الطّريق الواضح للغاية النّافعة، والطّريق لا يكون واضحاً إلّا إذا خَلا من الصِّعاب والعقبات، وخلا أيضاً من المخاوف، فهو طريقٌ واضحٌ مأمونٌ سهلٌ، وأيضاً يكون قصيراً يُوصلك إلى غايتك من أقصر الطّرق، والضّلال: ضدّ الهدى، وهو أنْ يُضلّك، فإنْ أردتَ طريقاً وتوجَّهت إلى غيره، تضلّ، وتكون به مخاوف وعقبات.

أمّا الرّحمة، فقد وصف الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن الكريم بأنّه رحمةٌ، فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٢]، فكيف يكون القرآن الكريم شفاءً؟ وكيف يكون رحمةً؟

الشّفاء: إذا أصابنا داءٌ، يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: داووا مرضاكم بالقرآن الكريم، مرضى القلوب، فهو شفاء.

أمّا الرّحمة: فهي أن يمنع أدواء القيم من الوصول إليكم.

وكذلك الحال في علاج المجتمع، فقد جاء القرآن الكريم ليعالج فساداً كبيراً، وأدواء متعدّدة، فلا بُدَّ له من منهجٍ للشّفاء، وهو هذا المنهج القويم.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾: أي: أنّ هذا القرآن الكريم فيه هدىً ورحمة لـمَنْ آمن به وبرسالته؛ لأنّ الطّبيب الّذي ضربناه مثلاً هنا لا يعالج كلّ مريض، بل يعالج مَنْ وثق به، وذهب إليه وعرض عليه نفسه ففحصه وعرف عِلّته، وهكذا القرآن الكريم يسمعه المؤمن به، فيكون له هدىً ورحمة، ويترك في نفسه إشراقات نورانيّة تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدّرجات، في حين يسمعه آخر فلا يَعي منه شيئاً، ويقول كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمّد: من الآية ١٦]، وقال: ﴿قُلۡ هُوَ

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ [فصّلت: من الآية ٤٤]، فالقرآن الكريم واحد، ولكن الاستقبال مختلف.

نقف عند قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، فمهمّة الرّسول ﷺ ليست فقط البلاغ، وإنّما البيان أيضاً، فالّذين يطالبون بفصل القرآن الكريم عن النّبيّ ﷺ وعن صحيح ما ورد من أحاديث النّبيّ ﷺ يستهدفون القرآن الكريم حقيقةً؛ لأنّ الله ﷻ كلّف النّبيّ ﷺ ببيان القرآن الكريم، وهو الوحيد الّذي نزل عليه فهو أدرى بما فيه، ففَصْلُ القرآن الكريم عن الحديث الشّريف من أخطر الأمور الّتي يحاول بعض النّاس أن يروِّجوا لها في هذا الزّمان.

(الآية ٦٥) - ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: ينقلنا المولى ﷻ في هذه الآية إلى آيةٍ مادّيّةٍ مُحسّة لا يستطيع إنكارها أحدٌ، وهي إنزال المطر من السّماء، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته ﷻ، وأنّه مأمونٌ على خَلْقه.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: موت الأرض؛ أي: حالة كَونْها جدباء مُقفرة لا زرعَ فيها ولا نبات، وهذا هو الهلاك بعينه بالنّسبة إليهم، فإذا ما أجدبتْ الأرض استشرفوا لسّحابة، لغمامة، وانتظروا منها المطر الّذي يُحيي هذه الأرض الميتة، يُحييها بالنّبات والعُشْب بعد أنْ كانت هامدةً ميتة، فلو قبض الله ﷻ

ماء السّماء عن الأرض لَمُتُّمْ جوعاً، فخذوا من هذه الآية المحسَّة دليلاً على صدق الآية المعنويّة الّتي هي منهج الله ﷻ إليكم على يد رسوله ﷺ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: الآية هي المعجزة والدّليل الواضح البيّن، ومع أنّ هذه الآية تُرى بالعين ولا تُسْمع، لكنّ المولى ﷻ ختمها بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، قال العلماء: لأنّ الله ﷻ أتى بهذه الآية لِيلْفتَهم إلى المنهج الّذي سيأتيهم على يد الرّسول ﷺ، وهذا المنهج سَيُسمع من الرّسول الكريم المبلّغ لمنهج الله ﷻ، لذلك قال: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، ولم يقل: (لقومٍ يرون)، مثال ذلك أيضاً في قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص]، فالضّياء يُرى لا يُسمع، لكنّه قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾؛ لأنّه يتكلّم عن اللّيل، ووسيلة الإدراك في اللّيل هي السّمع وليس البصر.

(الآية ٦٦) - ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

الكون الّذي خلقه الله ﷻ فيه أجناسٌ متعدّدةٌ، أدناها الجماد المتمثّل في الأرض والجبال والمياه وغيرها، ثمّ النّبات، ثمّ الحيوان، ثمّ الإنسان، وفي الآية السّابقة أعطانا الله ﷻ نموذجاً للجماد الّذي اهتزّ بالمطر وأعطانا النّبات، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنسٍ أعلى وهو الحيوان:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾: والمقصود بالأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز، وقد ذُكِرتْ في سورة الأنعام في قوله ﷻ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن

﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣ – من الآية ١٤٤]، هذه هي الأنعام.

﴿لَعِبْرَةً﴾: العِبْرة: الشّيء الّذي تعتبرون به، وتستنتجون منه ما يدلّكم على قدرة الصّانع الحكيم ﷻ، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدْق منهجه ﷻ فتصدِّقونه.

ومن معاني العبرة: العبور والانتقال من شيءٍ لآخر؛ أي: أن تأخذ من شيءٍ عبرةً تفيد في شيءٍ آخر، ومنها العَبْرة؛ أي: الدّمعة، وهي: شيءٌ دفينٌ أظهرتَهُ العين، والمراد بالعبرة في خلق الأنعام:

﴿نُّسْقِيكُم﴾: مادّة سقى جاءت في القرآن الكريم مرّةً: (سقى)، ومرّةً: (أَسْقى)، وبعضهم قال: إنّ معناهما واحدٌ، ولكنّ التّحقيق أنّ لكلٍّ منهما معنىً، وإن اتّفقا في المعنى العامّ، سقى: كما في قوله ﷻ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: من الآية ٢١]؛ أي: أعطاهم ما يشربونه، ومضارعه يَسقي، ومنها قوله ﷻ في قصّة موسى ﵇: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: من الآية ٢٤]، أمّا أسقى: كما في قوله ﷻ: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]، فمعناه أنّه ﷻ أنزل الماء من السّماء لا يشربه النّاس في حال نزوله مباشرةً، ولكن ليكون في الأرض لمن أراد أنْ يشربَ فيستخرجه، فالحقّ ﷻ لم يفتح أفواه النّاس أثناء نزول المطر ليشربوا منه، بل هو مخزونٌ في الأرض لمن أراده، والمضارع من أَسْقى: يُسقي، فهناك فَرْقٌ بين الكلمتين، وإنِ اتّفقنا في المعنى العامّ، وفرْقٌ بين أن تُعطي ما يُستفَادُ منه مباشرةً، مثل قوله ﷻ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الإنسان: من الآية ٢١]، وبين أنْ تُعطي ما يمكن الاستفادة منه فيما

بعد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]، لذلك يقولون: إنّ الّذي يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً، فيُعطي المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله، وقد يصنعه مؤُجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسْب الدّائم ليأكل هو متى يشاء من كسْبه.

﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾: أي: ممّا في بطون الأنعام، فقد ذكَّر الضّمير في ﴿بُطُونِهِۦ﴾ باعتبار إرادة الجنس، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يخرج هذا اللّبن:

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾: والفَرْث في كرش الحيوان من فضلات طعامه، فالعبرة هنا أنّ الله سبحانه وتعالى أعطانا من بين الفَرْث، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطّعام في كرشها، وهذا له رائحةٌ كريهةٌ، وشكلٌ قذرٌ مُنفِّرٌ، ومن بين دمٍ، والدّم له لونه الأحمر، وهو أيضاً غير مستساغ، ومنهما يُخرِج لنا الله سبحانه وتعالى لبناً خالصاً من الشّوائب نقيّاً سليماً من لون الدّم ورائحة الفَرْث، ومَنْ يقدر على ذلك إلّا الخالق سبحانه وتعالى؟!

ويُنهي الحقّ سبحانه وتعالى الآية بقوله واصفاً هذا اللّبن:

﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: يسيغه شاربه ويستلذّ به، ولا يغصُّ به شاربه، بل هو مُسْتساغٌ سَهْل الانزلاق أثناء الشُّرْب؛ لأنّ من الطّعام أو الشّراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به، ولكنّه قد لا يكون مريئاً، ولذلك، قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ٤﴾ [النّساء: من الآية ٤]، هنيئاً؛ أي: تستلِذّون به، ومريئاً؛ أي: نافعاً للجسم، يمري عليك؛ لأنّك قد تجد لَذّةً في شيءٍ أثناء أَكْله أو شُرْبه، ثمّ يُسبِّب لك متاعب فيما بَعْد، فهو هَنِيءٌ ولكنّه غير مَرِيء.

(الآية ٦٧) - ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾: ثمرات النّخيل هي: البلح، والأعناب هو: العنب الّذي نُسمّيه الكَرْم.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾: والتّعبير القرآنيّ هنا وإن امتنَّ على عباده بالرّزق الحسن، فإنّه لا يمتنّ عليهم بأن يتّخذوا من الأعناب سَكَراً؛ أي: مُسْكِراً، ولكن يعطينا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا عبرةً، فقد نزلتْ هذه الآيات قبل تحريم الخمر، وكأنّ الآية تحمل مُقدّمة لتحريم الخمر الّذي يستحسنونه الآن ويمتدحونه؛ ولذلك يقول العلماء: إنّ الّذي يقرأ هذه الآية بفِطنة المستقْبِل عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم أنّ لله عَزَّ وَجَلَّ حُكْماً في السَّكَر؛ أي: الخمر، سيأتي، فكيف توصَّلوا إلى أنّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حُكْماً سيأتي في السَّكَر؟ قالوا: لأنّه قال في وصف الرّزق: بأنّه حسن، في حين لم يَصِفْ السَّكَر بأنّه حسن، فمعنى ذلك أنّه ليس حسناً؛ ذلك لأنّنا نأكل ثمرات النّخيل (البلح) كما هو، وكذلك نأكل العنب مباشرةً دون تدخُّلٍ مِنّا فيما خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا، أمّا أنْ نُغيّر من طبيعته حتّى يصير خمراً مُسْكراً، فهذا إفسادٌ في الطّبيعة الّتي اختارها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا لتكون رزقاً حَسناً، وكأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنبّه عباده، أنَا لا أمتنُّ عليكم بما حرَّمْتُ، فأنا لم أُحرِّمه بَعْد، فاجعلوا هذا السَّكَر كما ترونه متعةً لكم، ولكن خذوا منه عبرةً أَنِّي لم أَصِفْه بالحُسْن؛ لأنّه إنْ لم يكُنْ حَسَناً فهو قبيحٌ، فإذا ما جاء التّحريم بعد ذلك فقد نبّهتكم من بداية الأمر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: لأنّ العقل يقتضي أنْ نُوازِنَ بين الشّيئين، وأن نسأل: لماذا لم يوصف السَّكَر بأنّه حَسَن؟ أليس معناه أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ هذا الأمر ولا يرضاه لكم؟ فكأنّ في الآية نيّة التّحريم، فإذا ما أنزل الله سبحانه وتعالى تحريم الخمر كانت هذه الآية تمهيداً له، والآية هي: الأمر العجيب الّذي يُنبّئكم به الله سبحانه وتعالى الّذي خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيكم وقوالبكم المادّيّة، قادرٌ ومأمونٌ على أن يُشرّع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيميّة الرّوحيّة.

(الآية ٦٨) - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾: النّحل خَلْقٌ من خَلْق الله سبحانه وتعالى، وكلّ خَلْقٍ لله سبحانه وتعالى أودع الله عز وجل فيه وفي غرائزه ما يُقيم مصالحه، يشرح ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]، والله سبحانه وتعالى قد يمتنّ على بعض عباده ويُعلّمهم لغة الطّير والحيوان، فيستطيعون التّفاهم معه ومخاطبته كما في قصّة سليمان عليه السلام، والله سبحانه وتعالى الّذي خلق وأبدع يُوحِي ما يشاء إلى ما يشاء، فما هو الوحي؟ الوحي: إعلامٌ من مُعْلِم أعلى لمُعْلَم أدنى بطريقٍ خفيٍّ لا نعلمه نحن، فلو أعلمه بطريقٍ صريحٍ فلا يكون وَحْياً، والله سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة في أنْ يُوحي ما يشاء لما يشاء من خَلْقه، وقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى الجماد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزّلزلة]، أعلمها بطريقٍ خفيٍّ خاصٍّ بقدرة الخالق في مخلوقه.. وهكذا، وهنا أوحى الله سبحانه وتعالى إلى النّحل، وأوحى سبحانه وتعالى إلى الملائكة أيضاً: ﴿إِذْ

﴿يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: من الآية ١٢]، وأوحى إلى الرّسل -عليهم السّلام-: ﴿۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ﴾ [النّساء: من الآية ١٦٣]، وأوحى إلى المقرّبين من عباده: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: من الآية ١١١]، وقد أوحى إليهم بخواطر نورانيّة تمرُّ بقلوبهم، وأوحى ﷻ إلى أمّ موسى ؈: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ [القصص: من الآية ٧]، وقد يكون الوحي من غيره ﷻ، ويُسمَّى وَحْياً أيضاً، كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢١]، وقوله جلّ وعلا: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٖ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١١٢]، لكن إذا أُطلِقَتْ كلمة: (الوَحْي) مُطْلَقاً بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحي من الله ﷻ إلى الرّسل -عليهم السّلام-؛ لذلك يقول علماء الفقه: الوحي هو إعلامُ الله ﷻ نبيّه بمنهجه، ويتركون الأنواع الأخرى: وَحْي الغرائز، وَحْي التّكوين، وَحْي الفطرة.. إلخ.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾: كثيرٌ من الباحثين لديهم شغفٌ بدراسة النّحل ومراحل حياته منذ القدم، ومن هؤلاء باحثٌ تتبّع المراحل التّاريخيّة للنّحل، فتوصّل إلى أنّ النّحل أوّل ما وُجِد عاش في الجبال، ثمّ اتّخذ الشّجر، وجعل فيها أعشاشه، ثمّ اتّخذ العرائش الّتي صنعها له البشر، وهي ما نعرفه الآن باسم الخليّة الصّناعيّة أو المنحل، ووَجْه العجب هنا أنّ هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن الكريم تمام التّطابق، وكذلك توصَّل إلى أنّ أقدمَ أنواع العسل ما وُجِد في كهوف

الجبال، وقد تَوصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون، ثمّ عن طريق قياس إشعاع الكربون لمعرفة عمره، وهكذا وجدوا أنّ عسل الكهوف أقدم أنواع العسل، ثمّ عسل الشّجر، ثمّ عسل الخلايا والمناحل، فأوحى الله سُبحانه وتعالى إلى النّحل بطريقٍ خفيٍّ لا نعلمه نحن.

(الآية ٦٩) - ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾:

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: عِلّة كَوْن العسل فيه شفاءٌ للنّاس أنْ يأكلَ النّحل من الثّمرات كُلِّها؛ ذلك لأنّ تنوُّع الثّمرات يجعل العسل غنيّاً بالعناصر النّافعة، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كلّ عنصرٍ منه إلى شيءٍ في الجسم، فيكون فيه الشّفاء بإذن الله سُبحانه وتعالى، ولكن الآن ماذا حدث؟ نرى بعض النّاس يقول: أكلتُ كثيراً من العسل، ولم أشعر له بفائدة، نقول: لأنّنا تدخّلنا في هذه العمليّة، وأفسدنا الطّبيعة الّتي خلقها الله سُبحانه وتعالى لنا، فالأصل أن نتركَ النّحل يأكل من الثّمرات كُلّها، ولكنّ الحاصل أنّنا نضع له السّكر مثلاً بدلاً من الزَّهْر والنّوار الطّبيعيّ، ولذلك تغيّر طعم العسل، ولم تَعُدْ له ميْزته الّتي ذكرها القرآن الكريم.

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾: أي: تنقّلي حُرّةً بين الأزهار هنا وهناك؛ ولذلك لا نستطيع أنْ نَبني للنّحل بيوتاً يُقيم فيها، لا بُدَّ له من التّنقُّل من بستانٍ لآخر.

﴿ذُلُلٗاۚ﴾: أي: مُذلَّلةً مُمهّدةً طيّعةً، فتخرج النّحلة تسعى في هذه السُّبل، فلا يردّها شيءٌ، ولا يمنعها مانعٌ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى، وهل رأينا

مثلاً شجرةً رَدَّتْ نحلة؟ بالتّأكيد لا، قد ذَلَّلَ الله سبحانه وتعالى لها حياتها ويسَّرها.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾: ذلك أنّ النّحلة تمتصّ الرّحيق من الفم، ثمّ تتمّ في بطنها عمليّة طَهْيٍ ربّانيّةٍ تجعل من هذا الرّحيق شَهْداً مُصفًّى، معمل كامل؛ لأنّه قد يظنّ أحدهم أنّها تأخذ الرّحيق من الأزهار، ثمّ تتقيّؤه كما هو، فلم يَقُلْ القرآن الكريم: من أفواهها، بل قال: ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾ بعد أن دخلت إلى المعمل الإلهيّ الّذي يُعطينا عسلاً فيه شفاءٌ للنّاس.

﴿شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: ما دام النّحل يأكل من الثّمرات كُلّها، والثّمرات لها عطاءاتٌ مختلفةٌ باختلاف مادّتها، واختلاف ألوانها، واختلاف طُعومها وروائحها، فلا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه.

﴿فِيهِ شِفَآءٞ﴾: فإذا ما توفَّر لنا العسل الطّبيعيّ الّذي خلقه الله سبحانه وتعالى تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشّفاء، ولكنّه إذا تدخّل الإنسان في هذه العمليّة أفسدها.

﴿لِّلنَّاسِۚ﴾: النّاس: جَمْعٌ مختلفُ الأدواء باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب الأدواء، فكيف يكون هذا الشّراب شفاءً للأدواء جميعها على اختلاف أنواعها؟ نقول: لأنّ هذا الشّراب الّذي أعدَّه الله سبحانه وتعالى لنا بقدرته جلّ جلاله جاء مختلفاً ألوانه، من رحيقٍ مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر، ليس مزيجاً واحداً يشربه النّاس كلّهم، بل جاء مختلفاً متنوّعاً باختلاف النّاس، وتنوّع الأدواء عندهم، وكأنّ كلّ عنصر منه يُداوِي داءً من هذه الأدواء.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾: التّفكّر: أنْ تُفكّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده، وبذلك نُثري المعلومات؛ لأنّ المعلومات إذا لم تتلاقح، وإذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد، ويُصاب الإنسان بالجمود

الطّموحيّ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء؛ لأنّ الارتقاءات الّتي نراها في الكون هي نتيجة التّفكُّر وإعمال العقل.

(الآية ٧٠) - ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾: هذه حقيقةٌ لا يُنكرها أحدٌ، ولم يَدّعِها أحدٌ لنفسه، وقد أمدّكم الله سبحانه وتعالى بمقوِّمات حياتكم في الأرض والنّبات والحيوان، والأنعام الّتي تعطينا اللّبن صافياً سائغاً للشّاربين، ثمّ النّحل الّذي يُعطينا شراباً فيه شفاءٌ للنّاس.

وساعة أن نسمع: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، فنحن نعترف أنّ الله سبحانه وتعالى خلقنا، ولكنْ كيف خلقنا؟ هذه لا نعرفها نحن؛ لأنّها ليستْ عمليّة معمليّة، فالّذين ينكرون هذا الأمر يحاولون أن يضعوا نظريّات، لكنّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا كيف خلق، قال جل جلاله: ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: من الآية ٥١]، هذه عمليّةٌ لم يُطلع الله سبحانه وتعالى عليها أحداً: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف: من الآية ٥١]، فربّنا سبحانه وتعالى هنا يعطينا فكرة مُقدّماً:

﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾: أي: كان منه سبحانه وتعالى المبدأ، وإليه جل جلاله يعود المرجع، وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه جل جلاله، وحياتك بين هذين القوسين؛ فلا تتمرّد على الله عز وجل فيما بين القوسين؛ لأنّه لا يليق بك ذلك، فأنت منه وإليه، فلماذا التّمرّد؟ ربُّنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه وتعالى في أمر الموت، فالموت ليس له قاعدة، بل قد يموت الجنين في بطن أمّه، وقد يموت الإنسان وهو

طفل، وقد يموت شابّاً أو شيخاً، وقد يردّ إلى أرذل العمر؛ أي: يعيش عمراً طويلاً، وماذا في أرذل العمر؟! نرى الإنسان بعد القوّة والشّباب، وبعد المهابة وبعد أنْ كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتالاً، يُرَدُّ إلى الضَّعْف في كلّ شيءٍ، حتّى في أَمْيز شيءٍ في تكوينه، في فكره، فبعد العِلْم والحِفْظ وقوّة الذّاكرة يعود كالطّفل الصّغير، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شيءٍ؛ ذلك لنعلم أنّ المسألة ليست ذاتيّة فينا، بل موهوبة لنا من خالقنا ﷻ، ولنعلم أنّه ﷻ حينما يقضي علينا بالموت فهذا رحمةٌ بنا وسترٌ لنا من الضّعف والشّيخوخة، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعينُنا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنّا نأمره، ومن هنا كان التّوفّي نعمةً من نِعَم الله ﷻ علينا، ولكي نتأكّد من هذه الحقيقة ننظر إلى مَنْ أمدّ الله ﷻ في أعمارهم حتّى بلغوا ما سمّاه القرآن الكريم: ﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ وما يعانونه من ضعفٍ وما يعانيه ذووهم في خدمتهم حتّى يتمنّى له الوفاة أقرب النّاس إليه، فالوفاة نعمةٌ، خاصّة عند المؤمن الّذي قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ﷻ، فتراه مُسْتبشراً بالموت؛ لأنّه عمَّر آخرته فهو يُحبّ القدوم عليها، على عكس المسرف على نفسه الّذي لم يُعِدّ العُدّة لهذا اليوم، فتراه خائفاً جَزِعاً لعلمه بما هو قادمٌ عليه، وقد قيل: يا ساكن القبر غداً، ما غرّك من الدّنيا؟! هل تعلم أنّك تبقى أو تبقى لك؟! جاء الأمر من السّماء، جاء غالب القدر والقضاء، جاء من الأمر الأجل ما يمتنع منه، هيهات.

﴿ثُمَّ﴾: حَرْفٌ للعطف يفيد التّرتيب مع التّراخي؛ أي: مرور وقتٍ بين الحدثين، فهو ﷻ: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، ثمّ بعد وقتٍ وتراخٍ يحدث الحدَث الثّاني: ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾، على خلاف حرف (الفاء)، فهو حرف عطفٍ يُفيد التّرتيب مع

التّعقيب؛ أي: تتابع الحدثين، كما في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ [عبس: من الآية ٢١]، فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾: أرذل العمر: أردؤه وأقلّه وأخسُّه؛ ذلك أنّ الله سُبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمّه لا يعلم شيئاً، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النّحل: من الآية ٧٨]، وهذه هي وسائل العلم في الإنسان، فإذا رُدَّ إلى أرذل العمر فقدتْ هذه الحواسّ قدرتها، وضَعُفَ عملها، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخَرَف والهرم، فقد توقّفتْ آلات المعرفة، وبدأ ينسى، وضعفت ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾: يُنهي الله سُبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾؛ لأنّه سبحانه بيده الخَلْق من بدايته، وبيده جلّ جلاله الوفاة والمرجع، وهذا يتطلّب عِلْماً، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ [الملك: من الآية ١٤]، فلا بُدَّ من عِلمٍ؛ لأنّ الّذي يصنع صَنْعةً لا بُدَّ أن يعرفَ ما يُصلحها وما يُفسِدها، وذلك يتطلّب قدرةً للإدراك، فالعلم وحده لا يكفي.

(الآية ٧١) - ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾:

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾: لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أنّنا

لا نتساوى إلّا في شيءٍ واحدٍ فقط، هو أنّنا عبيدٌ لله عَزَّوَجَلَّ، نحن سواسية في هذه فقط، وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه، تختلف الألوان والأجسام والصّور والمواهب والأرزاق.. والعجيب أنّ هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتّفاق؛ ذلك لأنّ الاختلاف قد ينشأ عنه الاتّفاق، والاتّفاق قد ينشأ عنه الاختلاف، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقنا مختلفين في أشياء، وأراد أن يكون هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا، فكيف يكون التّكامل إذاً؟ هل نتصوّر مثلاً أن يُوجَد إنسانٌ مجمعاً للمواهب، بحيث إذا أراد بناء بيتٍ مثلاً كان هو المهندس الّذي يرسم، والبنَّاء الّذي يبني، والعامل الّذي يحمل، والنّجّار والحدّاد، هل نتصوّر أن يكون إنسانٌ هكذا؟ بالتّأكيد لا، ولكنّ الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نثَر هذه المواهب بين النّاس نَثْراً لكي يظلّ كلٌّ منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب، وبهذا يتمّ التّكامل في الكون، فالخلاف بيننا هو عَين الوفاق، وهو آيةٌ من آياته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحكمةٌ أرادها الخالق جَلَّجَلَالُهُ، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: من الآية ١١٨]، فقد خلقنا هكذا، وإلّا فلو اتّحدنا واتّفقنا في المواهب، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة، أطباء، علماء، فمَنْ يبني؟ ومَنْ يزرع؟ ومَنْ يصنع؟ فمن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ جعلنا مختلفين متكاملين.

﴿فِي ٱلرِّزْقِ﴾: ينظر النّاس إلى الرّزق من ناحيةٍ واحدةٍ، فهو عندهم المال، فهذا غنيٌّ وهذا فقيرٌ، والحقيقةُ أنّ الرّزق ليس المال فقط، بل كُلّ شيءٍ يُنتَفع به، فهذا رِزْقه عقله، وهذا رِزْقه قوّته العضليّة، هذا يفكّر وهذا يعمل، فيجب ألَّا ننظر إلى الرّزق على أنّه لَوْنٌ واحدٌ، بل ننظر إلى ما خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لخَلْقه من مواهب مختلفة: صحّة، قدرة، ذكاء، حِلْم، شجاعة... كلّ هذا من الرّزق الّذي

يحدث فيه التّفاضل بين النّاس، والحقّ ﷻ حينما تعرَّض لقضيّة الرّزق جعل التّفاضل هنا مُبْهماً، ولم تحدّد الآية مَنِ الفاضل ومَنِ المفضول، فكلمة: ﴿بَعۡضٍ﴾ مُبْهمة لنفهم منها أنّ كلّ بعضٍ منَ الأبعاض فاضلٌ في ناحيةٍ، ومفضولٌ في ناحيةٍ أخرى، فالقويّ فاضلٌ على الضّعيف بقوّته، وهو أيضاً مفضولٌ، فربّما كان الضّعيف فاضلاً بما لديه من علمٍ أو حكمةٍ.. وهكذا، فكلُّ واحدٍ من خَلْق الله ﷻ رَزَقه الله ﷻ موهبةً، هذه الموهبة لا تتكرّر في النّاس حتّى يتكامل الخَلْق ولا يتكرّرون، وإذا وُجِدَت موهبةٌ في واحدٍ وكانت مفقودةً في الآخر فالمصلحة تقتضي أن يرتبط الطّرفان، لا ارتباط تفضُّلٍ، وإنّما ارتباط حاجةٍ، كيف؟ القويُّ يعمل للضّعيف الّذي لا قوّةَ له يعمل بها، فهو فاضلٌ في قوّته، والضّعيف فاضلٌ بما يُعطيه للقويّ من مالٍ وأجرٍ يحتاجه القويّ ليقُوتَ نفسه وعياله، فلم يشأ المولى ﷻ أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر، وإنّما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة الّتي يستبقي بها الإنسان حياته، فما الّذي ربط المجتمع؟ الجواب: هي الحاجة لا التّفضُّل، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة، فكلّ إنسانٍ يرى نفسَه فاضلاً في ناحيةٍ لا يغترّ بفاضليّته، بل ينظر إلى فاضليّة الآخرين عليه، وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء في النّاس، فكلٌّ منهما يُكمّل الآخر، فالجميع في الكون سواسية كأسنان المشط، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله ﷻ نسبٌ أو قرابةٌ فيجامله المولى ﷻ، كلّنا عبيدٌ لله ﷻ، وقد نثر الله ﷻ المواهبَ في النّاس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم، وليظلّ كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر، وبهذا يتمّ التّرابط في المجتمع، وقد عُرِضَتْ هذه القضيّة في آيةٍ أخرى في قوله ﷻ: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا

﴿بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [الزخرف: من الآية ٣٢]، بعضهم يفهم أنّ الفقير مُسخّرٌ للغنيّ، لكنّ الحقيقة أنّ كلّاً منهما مُسخَّرٌ للآخر، فالفقير مُسخّرٌ للغنيّ حينما يعمل له العمل، والغنيُّ مُسخّرٌ للفقير حينما يعطي له أجره، ولذلك يقول الشّاعر:

النَّاسُ لِلنّاسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرة بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾: ما ملكت أيمانهم: هم العبيد المماليك في ذلك الوقت، والمعنى: أنّنا لم نَرَ أحداً منكم فضّله الله سبحانه وتعالى بالرّزق، فأخذه ووزّعه على عبيده، أبداً، لم يحدث ذلك منكم، والله سبحانه وتعالى لا يعيب عليهم هذا التّصرّف، ولا يطلب منهم أنْ يُوزّعوا رزق الله سبحانه وتعالى على عبيدهم، ولكن في الآية إقامةٌ للحجّة عليهم، واستدلالٌ على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى، فكيف يأخذون حقّ الله سبحانه وتعالى في العبوديّة؟! وفي هذا تحريرٌ للعبيد وضربٌ لعبوديّة البشر، فالألوهيّة والطّاعة والعبادة والنّذر والذّبح، هي لله عزّ وجلّ، فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون، فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقَّ الله عزّ وجلّ؟!

﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾: أي: أنّكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وتعالى وبين أصنامكم، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله عزّ وجلّ.

﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾: أي: بعد أنْ أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بالرّزق، ولم يطلب منهم أنْ ينثروه على غيرهم، جحدوا هذه النّعمة، وأنكروا فَضْل الله سبحانه وتعالى، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان، وأخذوا حَقَّ الله جلّ جلاله في العبوديّة والألوهيّة وأعطوْهُ للأصنام والأوثان، وهذا عَيْنُ الجحود وإنكار الجميل.

(الآية ٧٢) - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۝٧٢﴾:

في الآية السّابقة بيّن لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قضيّة القمّة، قضيّة العقيدة في أنّنا لا نعطي شيئاً جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنفسه من العبوديّة والألوهيّة والطّاعة وغيرها، لا نعطيها لغيره جَلَّ جَلَالُهُ، وإذا صَحَّتْ هذه القضيّة العَقديّة صَحَّتْ قضايا الكون كلّها، ثمّ بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّه خلقنا من واحدٍ، ثمّ خلق من الواحد زوجةً له، ليتمّ التّناسل والتّكاثر، إذ أنّ استمرارَ بقائكم خاضعٌ لأمرين:

الأمر الأوّل: استبقاء الحياة، وقد ضمنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما أنعم به علينا من الأرزاق، فنأكل ونشرب فنستبقي الحياة، وبعد أنْ تحدّث عن استبقاء الحياة بالرّزق في الآية السّابقة ذكَرَ:

الأمر الثّاني: وهو استبقاء الحياة ببقاء النّوع، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: الأزواج: جمع زوج، والزّوج لا يعني الرّجل فقط، بل يعني الرّجل والمرأة؛ لأنّ كلمة: (زوج) تُطلَق على واحدٍ له نظيرٌ من مثله، فكلُّ واحدٍ منهما زَوْجٌ، الرّجل زوجٌ، والمرأة زوجٌ، فتُطلق على مُفْردٍ، لكن له نظيرٌ من مثل.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: من نَفْسٍ واحدةٍ، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٦]، يعني:

- أخذ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قطعةً من الزّوج، وخلق منها الزّوجة، كما خلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حوّاء

من آدم عليه السلام.

- أو: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النّساء: من الآية ١]؛ أي: من جنسها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة: من الآية ١٢٨]؛ أي: من جنسكم.

وفي الآية في سورة الرّوم يذكر سبحانه وتعالى عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزّوجيّة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرّوم]، ولو تأمّلنا هذه المراحل الثّلاث لوجدنا السّكن بين الزّوجين، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى الآخر، ويطمئِنّ له ويسعد به، ويجد لديه حاجته، فإذا ما اهتزّتْ هذه الدّرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبّة الّتي تُمسِك بزمام الحياة الزّوجيّة، وتوفّر لكليهما قَدْراً كافياً من القبول، فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرّحمة، وهي الأشمل والأعظم، وقد اتُّهِم الإسلام بأنّه ينتهك حقوق المرأة، وعلى العكس تماماً فقد جعل هذا الرّباط مقدّساً؛ أي: رباط الزّوجيّة، وجعل هذه العناصر الثّلاثة ليضمن استمرار الزّواج، فيرحم كلٌّ منهما صاحبه، يرحم ضَعْفه ومرضه، وبذلك تستمرّ الحياة الزّوجيّة، ولا تكون عُرْضةً للعواصف في رحلة الحياة، فإذا ما استنفدنا هذه المراحل، فلم يَعُدْ بينهما سَكَنٌ ولا مودّةٌ، ولا حتّى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرة، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر، وهنا شرع الحقّ سبحانه وتعالى الطّلاق ليكون حلّاً لمثل هذه الحالات، ومع ذلك جعله ربّنا سبحانه وتعالى أبغض الحلال، حتّى لا نقدم عليه إلّا مُضطرِّين مُجْبَرين.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: البنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء

الحياة، والحفَدة وهم وَلَدُ الولد، هم الحلقة الثّانية لاستبقاء الحياة؛ ذلك لأنّ الإنسان بطبْعه يحبّ الحياة ويكره الموت، وهو يراه كلّ يوم يحصد النّفوس من حَوْله، فإيمانه بالموت مسألةٌ محقّقة، فإذا ما تيقَّن أنّ الحياة تفوته في نفسه أراد أنْ يستبقيَها في وَلَده، ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين مِن النّاس للذّكور الّذين يُمثِّلون امتداداً للآباء، فإذا ما رزقه الله ﷻ الأبناء، وضَمِنَ له الجيل الأوّل تَطَلّعَ إلى أنْ يرى أبناء الأبناء؛ ليستبقي الحياة له ولولده من بعده؛ ولذلك فالشّاعر الّذي يخاطب ابنه يقول له:

أبُنيّ، يَا أنَا بَعْدَ مَا أَقْضِي...

وهذه هي نظرة النّاس إلى الأولاد، أنّهم ذِكْرٌ لهم بعد موتهم، وكأنّ اسمه موصولٌ لا ينتهي.

﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: تدلُّنا على ضرورة الحرص على اندماج الأجيال، فما فائدة اندماج الأجيال؟ ما فائدة المعاصرة والمخالطة بين الجدِّ وحفيده؟ نلاحظ أنّ الوليد الصّغير يبدأ عنده الإدراك بمجرّد أنْ تعملَ وسائل الإدراك لديه، فيبدأ يلتقط مِمَّنْ حوله ويتعلَّم منهم، فإذا كان له إخوةٌ أكبر منه تعلّم منهم، مثلاً: بابا.. ماما..، فإذا لم يكُنْ له إخوة نُعلّمه نحن هذه الكلمات، ولذلك نرى الطّفل الثّاني أذكى من الأوّل، والثّالث أذكى من الثّاني.. وهكذا؛ لأنّه يأخذ ممَّنْ قبله وممَّنْ حوله، فيزداد بذلك إدراكه، وتزداد خبراته ومعلوماته، ولنتصوّر أنّ هذا الابن أصبح أباً، وجاء الحفيد الّذي يعاصر الجيلين، جيل الأب وجيل الجدِّ، يشبّ الصّغير في أحضانهما، فتراه يأخذ من أبيه نشاطه في حركة الحياة وسَعْيه للرّزق، في حين أنّه يأخذ من جَدِّه القيم الدّينيّة والأخلاقيّة، فكثيرٌ من

الأحفاد يتعلّمون من أجدادهم الصّلاة وقراءة القرآن الكريم، فالحفيد يلتقط لوناً من النّشاط والحركة في جيل أبيه، ويلتقط لوناً من القيم في جيل جَدِّه؛ ولذلك فإنّ ابتعاد الأجيال يُسبِّب نقصاً في تكوين الأطفال، والحقّ سبحانه وتعالى يريد أنْ تلتحمَ الأجيال لتكتمل للطّفل عناصر التّربية بين القيم المعنويّة والحركة والنّشاط.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: الطّيّبات في الرّزق الّذي جعله الله سبحانه وتعالى لاستبقاء الحياة، وفي الزّواج الّذي جعله الله عز وجل لاستبقاء النّوع، فهو الحلال، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»(١)، وكلّ ما يتعلّق بالمال الحرام، قال صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً»(٢).

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾: الباطل: هو الأصنام الّتي اتّخذوها من دون الله عز وجل، وكلمة الباطل أشمل وأعمّ، فكلّ ما هو في مواجهة الحقّ يُسمّى باطلاً.

وفي الآية استفهامٌ للتّعجُّب والإنكار، كيف تكفرون بنعمة الله سبحانه وتعالى، وقد خلقكم في البَدْء من نفسٍ واحدةٍ، وخلق منها زوجها، وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً، وجعل بينكم سَكَناً ومودةً ورحمةً، ثمّ جعل لكم البنين والحفدة، ورزقكم من نِعم الحياة ما يستبقي حياتكم، ومن نِعَم الأزواج ما يستبقي نوعكم، وجعلكم في نعمةٍ ورفاهيةٍ، خلقكم من عَدمٍ، وأمدَّكم من عُدمٍ؟ أَبَعْدَ ذلك كلّه

---

(١) المستدرك على الصّحيحين: كتاب الأطعمة، أمّا حديث أبي بكر، الحديث رقم (٧١٦٤).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب قَبُول الصّدقة مِنَ الكسب الطّيّب وتربيتها، الحديث رقم (١٠١٥).

تجحدون نعمته وتكفرونها، وبدل أنْ تُقبِلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام الّتي لا تضرُّ ولا تنفع، وهذه الأصنام محتاجةٌ إلى البشر، تأخذ منهم ولا تعطيهم؟!

(الآية ٧٣) - ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: والعبادة أن يطيع العابد معبوده، وهذه الطّاعة تقتضي تنفيذ الأمر واجتناب النّهي، فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النّهي فقط؟ إنّ هؤلاء جميعاً الّذين أداروا دولاب هذه العمليّة يُؤدّون حركة إيجابيّة في الحياة هي في حَدِّ ذاتها عبادة؛ لأنّها أعانتْهم على عبادة، فليست العبادة هي فقط الصّلاة والصّيام والحجّ والزّكاة بدليل أنّ النّبيّ ﷺ قال: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»(١)، فهي أركان الإسلام، أمّا العبادة فهي في كلّ عملٍ نافعٍ، مثال: إذا أردت أنْ تُصلّي، فواجبٌ عليك أنْ تستر عورتك، انظر إلى هذا القماش الّذي لا تتمّ الصّلاة إلّا به، كُلّ مَنْ أسهم في زراعته وصناعته حتّى وصل إليك، جميعهم يؤدّون عبادةً بحركتهم في صناعة هذا القماش، فكل شيءٍ يُعينك على عبادة الله سبحانه وتعالى فهو عبادة، وكلّ حركةٍ في الكون تؤدّي إلى خيرٍ في المجتمع فهي عبادة، والله سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، الحديث رقم (٨).

لصلاة الجمعة، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: من الآية ٩]، لم يأخذهم من فراغ، بل من عمل، ولكن لماذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾؟ لماذا البيع بالذّات؟ الجواب: لأنّ البيع هو غاية حركات الحياة كلّها، فهو واسطةٌ بين المُنتج والمُستهلك، ولم يَقُل القرآن الكريم: اتركوا المصانع أو الحقول؛ لأنّ هناك أشياء لا تأتي ثمرتها في ساعتها، فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع، والصّانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته، لكنّ البيع صفقةٌ حاضرةٌ، فهي محلّ الاهتمام، وكذلك لم يَقُلْ: ذَروا الشّراء، قالوا: لأنّ البائع يحبّ أن يبيعَ، ولكن المشتري قد يشتري وهو كاره، فأتى القرآن الكريم بأدقِّ شيءٍ يمكن أن يربطك بالزّمن، وهو البيع، فإذا ما انقضتْ الصّلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسّعي في مناكب الأرض: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: من الآية ١٠].

﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾: أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتكلّم عن الجهة الّتي يُؤثِرونها على الله عَزَّ وَجَلَّ وهي الأصنام، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الّذي خلقهم ورزقهم من الطّيّبات، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، وجعل لهم بنين وحفدة، كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله، فالّذي لا يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لذاته جَلَّ جَلَالُهُ يعبده لنعمه وحاجته إليه، فعندنا عبادةٌ للذّات؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستحقّ العبادة لذاته، وعبادة لصفات الذّات في معطياتها، فمَنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته، وبما أنّ العبادة تقتضي تنفيذ الأوامر واجتناب النّواهي، فكيف تكون العبادة في حقّ هذه الأصنام الّتي اتّخذوها؟ كيف تعبدونها وهي لم تأمركم بشيءٍ ولم تنهكُمْ عن شيءٍ؟ وهذا أوّل نَقْدٍ لعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مهما كان، وكذلك، ماذا تعطي الأصنام أو غيرها من

معبوداتكم لمن عبدها؟ وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب؟ وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها؟ فهي آلهةٌ بلا منهج، والتّديّن غريزة في النّفس يلجأ إليها الإنسان في وقت ضعفه وحاجته، والله ﷻ هو الّذي يحبّ أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات، وله منهجٌ يقتضي مطلوبات تدكُّ الطّغيان في النّفوس، فالكفّار لجؤوا إلى عبادة الأصنام والأوثان؛ لأنّها آلهة بلا تكليف، ومعبودات بلا مطلوبات، لذلك قال الله ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾، فنلاحظ في هذه الآية نَوْعاً من الارتقاء في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام؛ ذلك لأنّ الحقّ ﷻ قال عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ [النّحل: من الآية ٢٠]، فنفى عنهم القدرة على الخَلْق، بل إنّهم هم المخلوقون.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾: فالرّزق من السّماء بالمطر، ومن الأرض بالنّبات، ومن المصدرين يأتي رزق الله ﷻ، وبذلك يضمن لنا الحقّ تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضروريّاتها من ماء السّماء ونبات الأرض.

وكلمة: ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ أي: أقلّ ما يُقَال له شيءٌ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلَّ؛ لأنّه قد يقول قائل: لا يملكون رِزْقاً يكفيهم، لا، بل لا يملكون شيئاً، ثمّ يعطينا الله ﷻ لمحةً أخرى في قوله ﷻ:

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾: أي: لا يملكون لهم رِزْقاً في الحاضر، ولن يملكوا في المستقبل، وهذا يقطع الأمل عندهم، فهُمْ لا يملكون اليوم، ولن يملكوا غداً؛ ذلك لأنّ هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً، وأشياء مُعلّقة يمكن أن تُسْتأنفَ فيما بعد، فهذه الكلمة: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ حُكْمٌ قاطعٌ لا استئناف له فيما

بَعْد، ولذلك نجد هؤلاء الّذين يُحِبّون أنْ يجدوا في القرآن الكريم مَأْخذاً يجادلون في قوله ﷿: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٥﴾ [الكافرون]، فهؤلاء يروْن في السّورة تكراراً يتنافى وبلاغةَ القرآن الكريم، نقول: ليس في السّورة تكرار لو تأمّلتُم، ففي السّورة قَطْع علاقات على سبيل التّأبيد والاستمرار، فالحقّ ﷻ يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون]، في الحاضر، وفي المستقبل، وإلى يوم القيامة، فقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣﴾ [الكافرون]، هذا قَطْع علاقات في الوقت الحاضر، ولكن مَنْ يُدرِينا لعلَّنا نستأنف علاقاتٍ أخرى فيما بعد، فجاء قوله ﷻ: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٥﴾ [الكافرون]، لا للتّكرار، ولكن لقطع الأمل في إعادة الأمر في المستقبل، فالقضيّة منتهيةٌ من الآن على سبيل القَطْع، كذلك المعنى في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: لا يستطيعون الآن، ولا في المستقبل.

(الآية ٧٤) - ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٧٤﴾:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾: الأمثال: جمع مِثْل، وهو النِّد والنّظير، وفي الآية نَهْيٌ عن أن نُشبِّه الله ﷻ بشيءٍ آخر؛ لأنّ الحقّ تبارك وتعالى واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله، إيّاك أن تقول عن ذاتٍ: إنّها تشبه ذات الله جلّ وعلا، أو صفات تشبه صفاته ﷻ، فإنْ وجدت صفةً لله ﷿ يُوجد ما نعتقد أنّ مثلها في البشر فاعلم أنّها على مقياس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: من

الآية ١١]، فالحقّ ﷻ ينهانا أنْ نضرب له الأمثال، إنّما هو ﷻ يضرب الأمثال؛ لأنّه حكيمٌ يضرب المثَل في محلّه؛ لِيُوضّح القضيّة الغامضة بالقضيّة المشاهدة، ولذلك يقول ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النّحل: من الآية ٦٠]؛ أي: الصّفة العليا في كلّ شيءٍ، فإذا وجدنا صفاتٍ مشتركة بيننا وبين الحقّ ﷻ فننزِّه الله ﷻ عن الشّبيه والنّظير والنِّد والمثيل، ونقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فنحن موجودون والله ﷻ موجودٌ، ولكن وجودنا مسبوقٌ بعدمٍ ويلحقه العدم، ووجوده ﷻ لا يسبقه عدمٌ ولا يلحقه العدم، فحينما يضرب الله ﷻ لنا مَثَلاً يجب أن نحترم ضَرْب الله ﷻ للمثل، وأنْ نبحثَ فيما وراءِ المثل من الحكمة، وأنّه ﷻ جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الصّغير الحقير في نظرنا لِيُوضِّح لنا قضيّةً غامضةً يُنبِّهنا إليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: وهذه عِلّة النّهي عن ضَرْب الأمثال؛ لأنّنا لا نعلم، أمّا الحقّ ﷻ فيضرب لنا الأمثال؛ لأنّه ﷻ يعلم، ويأتي بالمثَل في محلّه. وبعد أنْ هيّأنا ربّنا ﷻ لتلقّي الأمثال، وأعدَّ أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه، أتى بهذا المثل:

(الآية ٧٥) - ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾:

﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: الحقّ ﷻ يضرب لنا مثلاً له طرفان:

الطّرف الأوّل: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾: أي: مَوْلىً، وصفه بأنّه

مملوك التّصرّف، وأنّه لا يقدر على شيءٍ من العمل؛ ذلك لأنّ العبد قد يكون عَبْداً ولكنّه يعمل، كمَنْ تسمح له بالعمل في التّجارة مثلاً وهو عبدٌ، وهناك العبد الّذي يتّفق مع سيّده على مالٍ يُؤدّيه إليه لينال حرّيّته، فيتركه سيّده يعمل بحرّيّته حتّى يجمعَ المال المتّفق عليه، وهذا عندما كان هناك عبيدٌ ورقٌّ، أمّا هنا فعَبْدٌ، ومملوكٌ، ولا يقدر على شيءٍ من السَّعْي والعمل.

والطّرف الثّاني: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾، فهو سيّدٌ حُرٌّ، رزقه الله سبحانه وتعالى وأعطاه رِزْقاً حَسناً؛ أي: حلالاً طيّباً، ثمّ وفّقه عزّ وجلّ للإنفاق بشتّى أنواع الإنفاق: سِرّاً وجَهْراً، وهذه منزلةٌ عاليةٌ: رِزْقٌ من الله سبحانه وتعالى وصفه بأنّه حلالٌ طَيِّبٌ لا شُبْهة فيه، بعد ذلك وفّقه الله سبحانه وتعالى للإنفاق منه، كُلٌّ حَسْب ما يناسبه، فمن الإنفاق ما يناسبه السِّرّ، ومنه ما يُناسبه الجَهْر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧١]، هذان هما طَرَفا المَثَل المضروب لَنَا، ويترك لنا السّياق القرآنيّ الحكْم بينهما، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يقول: أنا أرتضي حكمكم أنتم: هل يستوون؟ والحقّ سبحانه وتعالى لا يترك لنا الجواب، إلّا إذا كان الجواب سيأتي على وَفْق ما يريد، ولا جوابَ يُعقل لهذا السّؤال إلّا أن نقولَ: لا يستوون، وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى جعلنا ننطق بهذا الحكم، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل لعبدة الأصنام، الّذين أكلوا رزق الله سبحانه وتعالى وعبدوا غيره، فمثّل الحقّ سبحانه وتعالى الأصنامَ بالعبد المملوك الّذي لا يقدر على شيءٍ، وضرب المثل الآخر للسّيّد الّذي رزقه الله سبحانه وتعالى رزقاً حسناً، فهو يُنفق منه سِرّاً وجَهْراً، ألم تَرَ إلى قوله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: من الآية ٢٠]؛ ليُبيّن لهم خطأهم في الانصراف عن عبادة الله سبحانه وتعالى

مع ما أعطاهم من رزقٍ إلى عبادة غير الله ﷻ الّتي لا تعطيهم شيئاً، ومن هنا تتّضح الحكمة في أنّ الله ﷻ ترك الحكم بنفسه في هذا المَثل، وأتى به على صورة سؤال ليأخذ الحكم من أفواه النّاس ويشهدوا على أنفسهم؛ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والجدال، ولنا هنا وَقْفةٌ مع قوله ﷻ:

﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾: فالحديث عن مُثنّى، وكان القياس حسب عقلنا البشريّ أن يقول: (هل يستويان)، فلماذا عدل عن المثنّى إلى الجمع؟ نقول: لأنّ المثل وإنْ ضُرِب بمفرد مقابل مفرد إلّا أنّه ينطبق على عديدين، مفرد شائع في عديد مملوكين، وفي عديد من السّادة أصحاب الرّزق الحسن، ذلك لِيُعمّم ضَرْب المثل، فليس في اختلاف الضّمير هنا ما يتعارض وبلاغة القرآن الكريم، بل هي دِقّة أداء؛ لأنّ المتكلّم هو الله ﷻ، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: من الآية ٩]، بعضهم يرى في الآية مَأخذاً، حيث تحدّثت عن المثنّى، ثمّ جاء ضمير الجمع في: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾، ثمّ عاد المثنّى في: ﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾، نقول لهؤلاء: لو تدبّرتُم المعنى لَعرفتم أنّ ما تتّخذونه مأخذاً، وتعدّونه اختلافاً في الأسلوب اللّغويّ هو منتهى الدّقّة في التّعبير القرآنيّ، ذلك أنّ الحديث عن طائفتين: مُثنّى، نعم، فلو تقاتلا، هل ستمسك كلّ مجموعة سَيْفاً لتقاتل الأخرى؟ لا، بل سيُمسِك كُلُّ جنديٍّ من المجموعتين سَيْفاً، فالقتال بالمجموع، مجموع كلّ طائفة لمجموع الطّائفة الأخرى، فناسب أن يقول: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾؛ لأنّ القتال حركة ذاتيّة من كُلّ فرد في الطّائفتين، فإذا ما جاء وقت الصُّلح، هل نصالح كلّ جنديّ من هذه على كلّ جنديّ من هذه؟ لا، بل الصُّلْح شأْنُ الزّعماء والقادة لكلّ مجموعة، ففي الصُّلْح نعود للمثنّى، حيث

ينوب هؤلاء عن طائفة، وهؤلاء عن طائفة، ويتمّ الصُّلْح بينهما، فاختلاف الضّمير هنا آية من آيات الإعجاز البيانيّ؛ لأنّ المتكلّم هو الله ﷻ.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾: كأنّ الله ﷻ يقول: الحمد لله أنْ وافقَ حُكْمكم ما أريد، فقد نطقتُم أنتم وحكمتُمْ.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: قوله ﷻ: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يدلّ على أنّ الأقليّة تعلم، وهذا ما يُسمُّونه: (صيانة الاحتمال)؛ لأنّه لـمّا نزلَ القرآن الكريم كان هناك جماعةٌ من مشركي قريش ومن أهل الكتاب يُفكّرون في الإيمان واعتناق هذا الدّين، فلو نفى القرآن الكريم العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء، وربّما صرفهم عَمّا يُفكِّرون فيه من أمر الإيمان، فالقرآن الكريم يصون الاحتمال في أنّ أُنَاساً منهم عندهم عِلْمٌ، ويرغبون في الإيمان.

(الآية ٧٦) - ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾: وهذا مَثَلٌ آخر لرجلين أحدهما أبكم، والأبكم: هو الّذي لا يتكلّم، ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ؛ لأنّ الكلام وليد السَّمْع، فإذا أخذنا طفلاً عربيّاً وربَّيناه في بيئةٍ إنجليزيّةٍ نجده يتكلّم الإنجليزيّة، والعكس صحيحٌ؛ ذلك لأنّ الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً، بل هو وليد البيئة، وما تسمعه الأذن ينطق به اللّسان، فإذا لم يسمع شيئاً فكيف يتكلّم؟ لذلك، فربّنا ﷻ يقول عن الكفّار: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ﴾ [البقرة: من الآية ١٨].

﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: هذا الأبكم لا يقدر على شيءٍ من العمل والنّفع لك.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾: أي: عَالَةٌ على سيّده، لا ينفع حتّى نفسه، ومع ذلك قد يكون عنده حكمةٌ يقضي بها شيئاً لسيّده، حتّى هذه ليست عنده.

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾: فلا خيرَ فيه، ولا منفعةَ البتّة، لا له ولا لغيره، هذه صفات الرّجل الأوّل، فماذا عن مقابله؟

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: وهذه أوّل صفات الرّجل الآخر، أنّه يأمر بالعدل، وهذه الصّفة تقتضي أنّه سمع منهجاً، ووعتْهُ أذنه، وانطلق به لسانه آمراً بالعدل، وهذه الصّفة تُقابِل: الأبكم الّذي لا يقدر على شيءٍ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: أنّه ذهب إلى الهدف مباشرةً، ومن أقصر الطّرق، وهذه تقابِل: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، والسّؤال هنا أيضاً: هل يستويان؟ والإجابة الّتي يقول بها العقل: لا، وهذا مَثَلٌ آخر للأصنام، فهي لا تسمع، ولا تتكلّم، ولا تُفصح، ولا تقدر على شيءٍ لا لَها ولا لعابديها، بل هي عَالَةٌ عليهم، فهم الّذين يأتون بها من حجارة الجبال، وينحتونها وينصبونها، ويُصلِحون كَسْرها، وهكذا هم الّذين يخدمونها ولا ينتفعون منها بشيءٍ، فإذا كنتم لا تُسوُّون بين الرّجل الأوّل والرّجل الآخر الّذي يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيمٍ، فكيف تسوُّون بين إلهٍ له صفة الكمال المطلق، وأصنامٍ لا تملك نفعاً ولا ضراً؟! أو نقول: إنّ هذا مثَلٌ للمؤمن والكافر، بدليل أنّ الله ﷻ في المثل السّابق قال: ﴿۞ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾، وفي مقابله قال: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾، ولم يقُلْ عبد أو رجل، إنّما هنا قال: ﴿رَّجُلَيْنِ﴾، فيمكن

أن نفهم منه أنّه مَثَلٌ للرّجل المشرك الكافر الّذي يمثّله الأبكم، وللرّجل المؤمن الّذي يمثّله مَنْ يأمر بالعدل، وهو على صراطٍ مستقيمٍ.

(الآية ٧٧) - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٧٧﴾:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: عالم المُلْك هو العالم المحَسّ لنا، وعالم الملكوت المخفيّ عنّا فلا نراه، ولذلك ربّنا ﷻ عندما تكرّم على سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام]، فللّه ﷻ في كونه ظاهرٌ وغَيْبٌ، الظّاهر له نواميس وقوانين كونيّة يراها النّاس كلّهم، كطلوع الشّمس من المشرق، وغروبها في المغرب، والمطر والهواء والأكسجين والماء، وله أشياء غيبيّة لا يراها أحدٌ، ولا يطّلع عليها أحدٌ، حتّى في ذات الإنسان أشياء غَيْب لا يعلمها أحدٌ من النّاس، وهذا الغيب نُسمّيه: غَيْب الإنسان.

والغيب: هو ما غاب عن المدركات المحسَّة من السّمع والبصر والشَّمِّ والذَّوْق، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنويّة والعلوم.

وهناك غيْبٌ وضع الله ﷻ في كونه مقدّمات تُوصِل إليه وأسباباً لئلّا يكونَ غَيْباً، كالكهرباء والجاذبيّة وغيرها، كانت غَيْباً قبل أنْ تُكتشفَ، وهكذا الاكتشافات والأسرار الّتي يكشفها لنا العلم، كانت غَيْباً عنّا في وقتٍ، ثمّ صارت مُشَاهدة في وقتٍ آخر؛ ذلك لأنّ الله ﷻ لا ينثر لنا أسرار كَوْنه مرّةً واحدةً، بل يُنزِلها بقَدرٍ ويكشفها لنا بحساب، فيقول ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا

﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر]، فالّذي كان غَيْباً في الماضي أصبح ظاهراً مُشَاهداً اليوم؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كشف لنا أسبابه فتوصَّلْنا إليه، الأرض كرويّة، عالم الجاذبيّة، عالم الفضاء، والتّقنيّات الرّقميّة، وما إلى هنالك، فهذا غَيْبٌ له مُقدّمات وصل الإنسان إليها، ضمن وقت ميلاد محدّد وَفَّق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الباحثين إلى اكتشافه، عن طريق العلم.

وهناك نوعٌ آخر من الغيب، وهو الغَيْب المطلق، وهو غَيْبٌ عن البشر كلّهم استأثر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به، وليس له مُقدِّمات وأسباب تُوصِل إليه، كما في النّوع الأوّل، هذا الغَيْب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في شأنه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجنّ: الآية ٢٦ – من الآية ٢٧]، فإذا ما أعلمنا الرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْباً من الغيبيّات فلا نقول: إنّه يعلم الغيب؛ لأنّه لا يعلم إلّا ما أعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الغيب، فهذا غَيْبٌ لا يدركه أحدٌ بذاته أبداً.

ومن هذا الغَيْب المطلق غَيْبٌ استأثر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به، ولا يُطلع عليه أحداً حتّى الرّسل –عليهم السّلام–، ولمّا سُئِل الرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قال: «**مَا المَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(١).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا يُسمُّونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور؛ أي: قصر غيب السّموات والأرض عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلو قلنا مثلاً: (غيب السّموات والأرض لله)، فيحتمل أن يقول قائلٌ: ولغير الله عَزَّ وَجَلَّ،

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب سؤالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السّاعة، الحديث رقم (٥٠).

أمّا: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له وحده لا شريك له، ومعنى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وما بينهما وما وراءهما، ولكنّ المشهور من مخلوقات الله ﷻ: السّماء، والأرض.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد؛ لأنّه الغيب الّذي استأثر الله ﷻ به، ولا يُجلّيها لوقتها إلّا هو، فناسب الحديث عن الغيب أنْ يأتيَ بهذا الغَيْب المطلق الّذي لا يعلمه إلّا الله ﷻ، فما هو لَمْح البصر؟ عندنا أفعالٌ متعدِّدةٌ تدلّ كلّها على الرّؤية العامّة، وإنْ كان لكلٍّ منها معنىً خاصٌّ بها، نقول: رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح، فرأى مثلاً؛ أي: بجُمع عينه، ورمق بأعلى، ولحظَ بجانب، فكلُّها مرتبطةٌ بحركة الحدقة، ولمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشّيء المرئيّ، فإنْ أردتَ أن ترى ما فوقك تحرّكتْ الحدقة إلى أعلى، وإنْ أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحرّكتْ الحدقة إلى أسفل.. وهكذا، هذه الحركة هي لَمْح البصر، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع، فشبَّه الحقّ ﷻ أمر السّاعة عنده جلّ وعلا بلمح البصر، ولكنّ اللّمح حدث، والأحداث تحتاج إلى أزمان، وقد تطول الأزمان في ذاتها ولكنّها تقصر عند الرّائي، وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضيّة بما توصَّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطيء ليعطي الرّائي فرصة متابعتها بدقّة، فنراهم مثلاً يُعيدون لنا مَشْهداً كرويّاً لنرى تفاصيله كلّها، فنجد المشهد الّذي مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامنا بطيئاً في زمنٍ أطول، في حين أنّ الزّمن في السّرعة يتجمّع تجمّعاً لا ندركه نحن بأيّ معيار، لا بالدّقيقة ولا بالثّانية، فهي جزئيّات حركة في جزئيّات زمان، فلَمْح البصر الّذي هو تحرُّك حَدقة العين تحتاج إلى وقتٍ وإلى

زمنٍ متداخل، وليس هكذا أمْر السّاعة، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان، وأقرب تشبيه لِفَهْم الإنسان، فإذا قيل لك: ما أمر فلان؟ وما شأنه؟ تأخذ في سَرْد الأحداث، فإذا قلنا: ما أمْر السّاعة؟ ما شأنها ساعةَ تقوم، حيث يموت الأحياء أوّلاً، ثمّ يحيا الجميع من لَدُنْ آدم ﵇، ثمّ حَشْرٌ وحسابٌ وثوابٌ وعقابٌ، أحداثٌ كثيرةٌ وعظيمةٌ لخلْقٍ متعدّدين من الإنس والجنّ، يحدث هذا كلّه كلمح البصر بالنّسبة إلينا، ولكن إيّاك أنْ تتصوّر أنّ هذا يحتاج إلى وقتٍ بالنّسبة إلى الله ﷻ، فالأشياء بالنّسبة إليه ﷻ لا تُعالج، وإنّما هي ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، حتّى ﴿كُن﴾ مكوّنة من حرفين: الكاف لفظٌ وله زمن، والنّون لفظٌ وله زمن، إنّما أَمْر السّاعة أقرب من الكاف والنّون، لذلك قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا في فَهْمنا، والله ﷻ حينما تكلّم عن أهل القبور، قال: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النّازعات]، في حين أنّنا نرى أنّهم غابوا كثيراً في قبورهم، فكيف يُقَاسُ الزّمن؟ يُقاس بتتبُّعك للأحداث، فحينما لا يُوجد حَدَثٌ لا يُوجَد زمنٌ، وهذا ما نراه في حال النّائم الّذي لا يستطيع تحديد الزّمن الّذي نامه إلّا على غالب ما يكون في البشر، ولذلك في قصّة أهل الكهف الّذين ناموا ثلاث مئة وتسع سنين، قالوا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ [الكهف: من الآية ١٩]، فهذا هو الغالب في عُرْف النّاس؛ ذلك لأنّهم استيقظوا فلم يجدوا شيئاً حولهم يدلّ على زمنٍ طويل، الحال كما هو لم يتغيَّر فيهم شيءٌ، فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيوخاً بعد أن كانوا فتية لَعلِموا بمرور الزّمن، فالزّمن بالنّسبة إلى عدم الحدث زمنٌ مَلْغيّ، أو نقول: إنّ أَمْر السّاعة في أنّ الحقّ ﷻ يجعلها جامعةً

للنّاس إلّا كلمْح البصر، فكلّ ما يحدث فيها لا نقيسه بزمنٍ، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: أي: يكون أمر السّاعة كذلك؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على كلّ شيءٍ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات، فقدرة الله جل جلاله هي القدرة العُلْيا الّتي لا تحتاج إلى زمن لفعل الأحداث.

(الآية ٧٨) - ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾:

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ﴾: المراد الأرحام؛ لأنّها في البطون، والمظروف في مظروف يعدّ مظروفاً، كما لو قلت: في جيبي كذا من النّقود أو في حافظتي كذا من النّقود، العبارتان معناهما واحد.

﴿أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾: جمع أمّ، والقياس يقتضي أن نقول في جمع أُمّ: أُمّات، ولكنّه قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ بزيادة الهاء، وساعةَ يكون الجنين في بطن أمّه تكون حياته حياة تبعيّة، فكلّ أجهزته تابعة لأمّه، فإذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يولد هذا الجنين جعل له حياةً ذاتيّةً مستقلّةً، وعند الولادة نرى أطبّاء التّوليد يقولون: الجنين في الوضع الطّبيعيّ أو في غير الوضع الطّبيعيّ، فما معنى الوضع الطّبيعيّ للجنين عند الولادة؟ الوضع الطّبيعيّ أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يُخرجه خَلْقاً آخر: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، كأنّه كان خلقاً لكنّه كان تابعاً لأمّه، فيُخرجه الله سبحانه وتعالى خَلْقاً آخر مُسْتقلّاً بذاته، وبمجرّد نزوله تبدأ عمليّة التّنفّس،

ومن هذه اللّحظة ينفصل الجنين عن أمّه، وتكون له ذاتيّة، فإذا ما تعسَّر خروج باقي جسمه تكون له فرصة التّنفّس وهذا من لُطْف الله ﷻ؛ لأنّ الجنين في هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقي جسمه، أمّا إذا حدث العكس فكان الرّأس إلى أعلى، ونزل الجنين بقدميْه، فبمجرد نزول الرِّجْليْن ينفصل عن أمّه، ويحتاج إلى حياة ذاتيّة ويحتاج إلى تنفّس، فإذا ما تعسَّرت الولادة حدث اختناق، ربّما يؤدّي إلى موت الجنين، فالعلم أَخذ قضيّةً من قضايا الكون مجزومٌ بها وعليها دليلٌ، فالهاء تدلّ على أنّه كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بأمّه، وعندما خرج من بطن أمّه أصبحت حياته منفصلة، أصبحت الأمّ وحدها، والجنين وحده، فالهاء في كلمة: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ تدلّ على هذا المعنى.

﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾: ذلك لأنّ وسائل العلم والإدراك لم تعمل بَعْد، فإذا أراد الله ﷻ لهذا المولود أنْ يعلم يخلق له وسائل العلم، وهي الحواسّ الخمس: السّمع والبصر والشَّمّ واللّمس والتّذوّق، هذه هي الحواسّ الظّاهرة الّتي بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف، وبها يُدرِك ما حوله، فالطّفل المولود لا يعلم شيئاً، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ؛ لأنّ وسائل العلم والإدراك لديه لم تُؤدِّ مهمّتها بَعْد.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾: وقد بيَّن لنا علماء وظائف الأعضاء أنّ هذا التّرتيب القرآنيّ للأعضاء هو التّرتيب الطّبيعيّ، فالطّفل بعد الولادة يسمع أوّلاً، ثمّ بعد حوالي عشرة أيّام يُبصر، ويستطيع أيّ إنسانٍ تجربة ذلك، ومن السّمع والبصر -وهما السّادة على الحواسّ جميعها- تتكوّن المعلومات الّتي في الأفئدة، هذا التّرتيب القرآنيّ الوجوديّ، وهو التّرتيب الطّبيعيّ الّذي وافق العلمَ الحديث.

ونلاحظ في الآية إفراد السّمع، وجمع الأبصار والأفئدة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، فلماذا لم يأْتِ السّمع جَمْعاً؟ الجواب: لأنّ المتحدّث هنا هو الله ﷻ؛ لذلك تأتي الألفاظ دقيقة معجزة، لماذا السّمع هنا مفرد؟ فَرْقٌ بين السّمع وغيره من الحواسّ، فحين يوجد صوتٌ في هذا المكان يسمعه الجميع، فليس في الأذن ما يمنع السّمع، وليس عليها قفلٌ نقفله إذا أردنا ألّا نسمع، فكأنّ السّمع واحدٌ عند الجميع، أمّا المرئيّ فمختلف؛ لأنّنا لا ننظر جميعاً إلى شيءٍ واحدٍ، بل المرائي عندنا مختلفة فهذا ينظر إلى السّقف، وهذا ينظر إلى الأعمدة، إلى آخره، فالمرائي لدينا مختلفةٌ، كما أنّ للعين قفلاً طبيعيّاً يمكن إسْداله على العين فلا ترى، فكأنّ الأبصار لدينا مختلفةٌ متعدّدةٌ، وكذلك الحال في الأفئدة، جاءت جَمْعاً؛ لأنّها متعدّدةٌ مختلفةٌ، فواحدٌ يَعِي ويُدرك، وآخر لا يعي ولا يدرك، فإفراد السّمع هنا آيةٌ من آيات الدّقّة في التّعبير القرآنيّ المعجز؛ لأنّ المتكلّمَ هو ربّ العزّة ﷻ، ونلاحظ أيضاً تقديم السّمع على باقي الحواسّ؛ لأنّه أوّل الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أنْ يُولدَ إلى أنْ يفارق الحياة، ولا يغيب عنه حتّى لو كان نائماً؛ لأنّه بالسّمع يتمّ الاستدعاء من النّوم، وقد قُلْنا في قصّة أهل الكهف: إنّهم ما كان لهم أن يناموا في سُباتٍ عميقٍ ثلاث مئة وتسع سنين إلّا إذا حجب الله ﷻ عنهم هذه الحاسّة، فلا تزعجهم الأصوات، فقال ﷻ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]؛ أي: قُلْنا للأذن: تعطّلي هذه المدّة حتّى لا تزعجهم أصوات الصّحراء، وتُقلق مضاجعهم، والله ﷻ يريد لهم السُّبات والنّوم العميق.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج

(الميلاد) أم هي موجودةٌ قبله؟ يجب أنْ نُفرّق بين السّمع وآلته، فقبل الإخراج؛ أي: قبل ولادة الجنين، تتكوّن للجنين آلات البصر والسّمع والتّذوّق وغيرها.. لكنّها آلاتٌ لا تعمل، فالجنين في بطن أمّه تابعٌ لها، وليست له حياةٌ ذاتيّةٌ، فإذا ما نزل إلى الدّنيا واستقلّ بحياته يجعل الله سبحانه وتعالى له هذه الآلات تعمل عملها، فمعنى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾؛ أي: جعل لكم الاستماع، لا آلة السّمع.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: تُوحي الآية بأنّ السّمع والأبصار والأفئدة ستعطي لنا كثيراً من المعلومات الجديدة والإدراكات الّتي تنفعنا في حياتنا وفي مُقوّمات وجودنا، وننفع بها غيرنا، وهذه النّعم تستحقّ منا الشّكر، فكلّما سمعنا صَوْتاً أو حكمةً حمدنا الله سبحانه وتعالى أن جعل لنا أُذناً تسمع، وكلّما أبصرنا منظراً بديعاً حمدنا الله سبحانه وتعالى أنْ جعلَ لنا عيناً ترى، وكلّما شممنا رائحةً زكيّةً حمدنا الله جل جلاله أنْ جعل لنا أنفاً نشمُّ.. وهكذا تستوجب النّعم شُكْر المنعم سبحانه وتعالى، ولكي نقف على نِعَم الله سبحانه وتعالى علينا أن ننظر إلى مَنْ حُرِموا منها، ونتأمّل حالنا وحالهم، وما نحن فيه من نِعَم الحياة، وما هُمْ فيه من حِرْمَان.

(الآية ٧٩) - ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾:

ينقلنا الله سبحانه وتعالى هنا إلى صورةٍ أخرى من صُوَر الكون، بعد أن حدّثنا عن الإنسان وما حوله، فالإنسان قبل أنْ يخلقه الله جل جلاله في هذا الوجود أعدَّ له مُقوِّمات حياته، فالشّمس والقمر والنّجوم والأرض والسّماء والمياه والهواء.. كلّ

هذه أشياء وُجِدتْ قبل الإنسان، لِتُهيّئ له الوجود في هذا الكون، والله سبحانه وتعالى يريد منّا بعد أنْ كفلَ لنا استبقاء الحياة بالرّزق، واستبقاء النّوع بالزّواج والتّكاثر، يريد منّا إثراء عقائدنا بالنّظر في ملكوت الله سبحانه وتعالى وما فيه من العجائب؛ لنستدلّ على أنّه سبحانه وتعالى هندسَ كَوْنه هندسةً بديعة متداخلة، وأحكمه إحكاماً لا تصادم فيه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾: إيّاك أنْ تقول: إنّها رَفْرفة الأجنحة، فنحن نرى الطّائر يُثبّت أجنحته في الهواء، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض، فهناك ما يمسكه من الوقوع؛ لذلك قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: من الآية ١٩]؛ أي: أنّها في حالة بَسْط الأجنحة، وفي حالة قبْضِها تظلّ مُعلّقة لا تسقط، وكذلك نجد من الطّيور ما له أجنحةٌ طويلةٌ، لكنّه لا يطير، فليست المسألة مسألة أجنحة، بل هي آيةٌ من آيات الله سبحانه وتعالى تمسك هذا الطّير في جَوِّ السّماء، فتراه حُرّاً طليقاً لا يجذبه شيءٌ إلى الأرض، ولا يجذبه شيءٌ إلى السّماء، بل هو حُرٌّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع، وينزل إنْ أراد النّزول، فهذه آيةٌ مُحسَّة لنستدلّ بها على قدرة الله سبحانه وتعالى غير المحسَّة إلّا بإخبار الله عز وجل عنها، فإذا ما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: من الآية ٤١]، آمنّا وصَدّقنا.

﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾: أي: في الهواء المحيط بالأرض، والمتأمّل في الكون يجد أنّ الهواء هو العامل الأساسيّ في ثبات الأشياء في الكون، فالجبال والعمارات وغيرها، ما الّذي يمسكها أنْ تقع؟ إيّاك أن تظنّ أنّه الإسمنت والحديد وهندسة البناء.. لا، بل يمسكها الهواء الّذي يحيط بها من كلّ جانب، بدليل أنّنا لو

فَرَّغنا جانباً منها من الهواء لانهارتْ فوراً نحو هذا الجانب؛ لأنّ للهواء ضغطاً، فإذا ما فرَّغْتَ جانباً منها قَلَّ فيه الضّغط فانهارتْ، فالهواء هو الضّابط لهذه المسألة، وبالهواء يتوازن الطّير في السّماء، ويسير كما يهوى، ويتحرّك كما يحبّ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: أي: أنّ الطّير الّذي يطير في السّماء فيه آياتٌ؛ أي: عجائب، عجائب صَنْعة وعجائب خَلْق، يجب أنْ نتفكَّرُ فيها ونعتبر بها، ولكي نقف على هذه الآية في الطّير نرى ما حدث لأوّل إنسان حاول الطّيران، إنّه العربيّ عبّاس بن فرناس، عمل لنفسه جناحين، وألقى بنفسه من مكانٍ مرتفعٍ، فماذا حدث لأوّل طائرٍ بشريٍّ؟ طار مسافةً قصيرةً، ثمّ هبط وتكسّر؛ لأنّه نسيَ أنّ المسألة ليست مجرّد الطّيران، فهناك الهبوط الّذي نسي الاستعداد له، وَفاتَه هذا الأمر، الّذي يكون بالذّيل الّذي يحفظ التّوازن عند الهبوط، فالطّير في السّماء آيةٌ تستحقّ النّظر والتّدبُّر؛ لنعلمَ منها قدرة الخالق ﷻ.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: يؤمنون بوجود الله ﷻ واجب الوجود، يؤمنون بحكمته ودقَّة صنعته، وأنّها لا مثيلَ لها من صنعة البشر مهما بلغتْ من الدّقّة والإحكام.

(الآية ٨٠) - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾: كلمة: (سكن) مأخوذةٌ من السّكون، والسّكون ضدّ الحركة، فالبيت نُسمّيه سكناً؛ لأنّ الإنسان يلجأ إليه

ليرتاح فيه من حركة الحياة خارج البيت، والسّكن قد يكون مادّيّاً كالبيت، وقد يكون معنويّاً، كما قال ﷻ في حَقِ الأزواج: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الرّوم: من الآية ٢١]، فالزّوجة سكَنٌ معنويٌّ لزوجها، وهذا يُسمّونه: سكن القلب.

فإنْ قال قائلٌ: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، يعني: نحن الّذين صنعناها وأقمناها، فكيف جعلها الله ﷻ لنا؟ نقول: وكيف صنعها الإنسان؟ ومِمَّ بناها؟ صنعها من خشب، أو بناها من طينٍ أو طوب، هذه المواد كلّها من مادّة الأرض، وهي من عطاء الله ﷻ، وكذلك العقل الّذي يُفكّر ويرسم، والقوّة الّتي تبني وتُشيّد كلّها من الله ﷻ.

﴿جَعَلَ لَكُم﴾ إمّا أنْ يكون جَعْلاً مباشراً، وإمّا أنْ يكون غير مباشر، فالله ﷻ جعل لنا هذه الموادّ، هذا جَعْلٌ مباشر، وأعاننا وقوّانا على البناء، وهذا جَعْلٌ غير مباشر، لكن في أيّ الأماكن تُبنى البيوت؟ البيوت لا تُبنَى إلّا في أماكن الاستقرار الّتي تتوفّر لها مُقوّمات الحياة، فقبل أن نُنظّم مدينة سكنيّة نبحث أوّلاً عن مُقوّمات الاستقرار فيها من مأكل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه وكهرباء... إلى آخره، فإن وُجِدَت هذه المقوّمات فلا مانعَ من البناء، وإن لم توجد كما في الصّحراء ومناطق البدو، فلا يناسبها البيوت والبناء الدّائم، بل يناسبها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، فنرى البدو يتّخذون من الجلود بُيُوتاً مثل: الخيمة والفسطاط؛ لأنّهم كثيرو التّنقُّل يتغون مواطن الكلأ والعشب، ويرحلون طَلَباً للمرعى والماء، حياتُهم دائمة التّنقّل من مكانٍ لآخر، فيناسبهم بيتٌ من جلدٍ أو صوفٍ أو

وَبَرٍ خفيف الحَمْل، يضعونه أيْنما حَطُّوا رحالهم، ويرفعونه أينما ساروا.

﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾: الظّعْن: هو التّنقُّل من مكانٍ لآخر. فكلمة: (سكن) تفيد الاستقرار، وتُوفِّر مُقوِّمات الحياة؛ ولذلك قال الحقّ ﷻ لآدم ؑ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: من الآية ٣٥]؛ أي: المكان الّذي فيه راحتكم، وفيه نعيمكم، فحدّد له مكان إقامة وسكَن، ومكان الإقامة هذا قد يكون عَامّاً، وقد يكون خاصّاً، مثل لو قُلْت: أسكن دمشق، هذا سكَنٌ عامٌّ، فلو أردتَ السّكن الحقيقيّ الخاصّ بك، لَقُلْتَ: أسكن في شارع كذا، وفي البناء رقم كذا، وفي شقّة رقم كذا، وربّما كان لك حجرةٌ خاصّةٌ من هذه الشّقّة، فهذا سكَنٌ خاصٌّ بك، فسكنُك الحقيقيّ الّذي تشعر فيه بالهدوء والرّاحة والخصوصيّة.

﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾: الأصواف للغنم، والأوبار للإبل، والشّعر للماعز، فما الفرْق بين هذه الأنواع الثّلاثة في الاستعمال؟ يستعمل النّاس كلّاً من الصّوف والوبر؛ لأنّ الشُّعيرات فيها دقيقةٌ جدّاً يمكن نَدْفها وغَزْلها والانتفاع بها في الفُرش والبسط والملابس وغيرها ممّا يحتاجه النّاس، أمّا شعر الماعز فالشّعيرات فيه ثخينةٌ لا يمكن نَدْفها أو غَزْلها، فلا يمكن الانتفاع به في هذه المنسوجات، وقوله ﷻ:

﴿أَثَٰثٗا﴾: الأثاث: هو ما يوجد في البيت ممّا تتطلّبه حركة الحياة كالبسط والمفارش والملابس والسّتائر.

﴿وَمَتَٰعًا﴾: المتاع: هو ما يُستمتع ويُنتفع به، والفرْق بينهما أنّ الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغيّر كثيراً، أمّا المتاع فقد يتغيّر حسب الحاجة، فقد يحتاج الإنسان إلى تغيير التّلفاز القديم ليأتي بآخر حديث، لكن قلّما يُغيّر الثّلّاجة أو

الغسّالة مثلاً.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: لأنّ الإنسان قد يغترّ حين يستوفي متطلّبات حياته، وقد تلهيه هذه النّعم عن مطلوب المُنعِم ﷻ، فينشغل بالنّعمة عن المُنعِم، فتأتي هذه الآية مُحذِّرة، إيّاك أنْ تغترّ بالمتاع والأثاث؛ لأنّها متاعٌ إلى حين، متاعٌ موقوتٌ لا يدوم، ومهما استوفيت حظّك منها في الدّنيا فإنّها صائرةٌ إلى أمرين: إمّا أن تتركها بالموت، وإمّا أنْ تتركك بالفقر، فهي ذاهبةٌ ذاهبةٌ، فتذكّروا دائماً قوله ﷻ: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، فمتاع النّعمة موقوت، لكنّ متاع المُنعِم ﷻ خالدٌ.

(الآية ٨١) - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾: تكلّم الحقّ ﷻ عن أصحاب البيوت الّذين يناسبهم الاستقرار، ويجدون مُقوّمات الحياة، وتكلّم عن أهل التّرحال والتّنقُّل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم، ثمّ تحدّث ﷻ هنا عن هؤلاء الّذين لا يملكون شيئاً، ولا حتّى جلود الأنعام، ماذا يفعل هؤلاء؟ الحقّ ﷻ جعل لهم الظّلّ يستظِلّون به من وهج الشّمس، وجعل لهم من الكهوف والسّراديب في الجبال ما يسكنون فيه، وهكذا استوعبتْ الآيات الحالات جميعها الّتي يمكن أن يكون عليها بشر، فقد نثر الله ﷻ نعمه على النّاس، بحيث يأخذ كلّ واحدٍ منهم ما يناسبه منها، ونلاحظ هنا أنّ الآية ذكرتْ الظّلّ الّذي يقينا حَرَّ الشّمس، ولم تذكر مثلاً البرد؛ ذلك لأنّ القرآن

الكريم نزل بجزيرة العرب وهي بلادٌ حارّةٌ، وحاجتها إلى الظّلّ أكثر من حاجتها إلى الدِّفء.

﴿ظِلَٰلٗا﴾: الظّلال جمع ظِلّ، وهو الواقي من الشّمس وإشعاعاتها، وقد يُوصَف الظّلّ بأنّه ظِلٌّ ظليلٌ؛ أي: الظّلّ نفسه مُظلّل، وهذا ما نراه في صناعة الخيام مَثلاً، حيث يجعلون لها سقفاً من طبقةٍ واحدةٍ تتلقّى حرارة الشّمس، وإنْ حجبت أشعة الشّمس فلا تحجب حرارتها، وهنا يلجؤون إلى جَعْل السّقف من طبقتين بينهما مسافةٌ لتقليل الحرارة، فالظّلّ نفسه مُظلّل، وكذلك الحال في ظِلّ الأشجار حيث يظلّل الورق بعضه بعضاً، فتشعر تحت ظِلّ الأشجار بجوٍّ لطيفٍ باردٍ، حيث يُغطّيك ظِلٌّ ظليلٌ يحجب عنك ضوء الشّمس، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضّيق.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾: الأكنان: جمع كِنْ، وهو الكهف أو المغارة في الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمي بها، والكِنّ من السّتر؛ لأنّها تستر النّاس.

﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾: السّرابيل: هي ما يُلبس من الثّياب أو الدّروع.

﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾: أي: تحميكم من الحرّ، فقال هنا: الحرّ، أيضاً، لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية، فقال: "المعنى تقيكم الحرّ وتقيكم البرد، ففي الآية اكتفاءٌ بالحرّ عن البرد؛ لأنّ الشّيء إذا جاء يأتي مقابله، فليس بالضّرورة ذِكر الحالتين، فإحداهما تعني الأخرى"، هذا دفاعٌ مشكورٌ منهم، ومعنىً مقبولٌ حول هذه الآية، لكن لو نظرنا إلى باقي الآيات الّتي تحدّثتْ في هذا الموضوع لوجدناها: واحدةٌ تتكلّم عن الحرّ، وهي هذه

الآية، وأخرى تتكلّم عن البرد في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ [النّحل: من الآية ٥]؛ أي: من جلود الأنعام وأصوافها نتّخذ ما يقينا البرد، وما نستدفئ به، وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى، والمتأمّل في تدفئة الإنسان يجد أنّ ما يرتديه من ملبوسات لا يعطي للإنسان حرارةً تُدفِئه، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط، فحرارة الإنسان ذاتيّة من داخله، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق ﷻ الإنسان، والأطبّاء يقولون: إنّ الجسم السّليم حرارته (٣٧) درجة لا تختلف إنْ عاش عند خطّ الاستواء أو عاش في بلاد الأسكيمو في القطب الشّماليّ، فهذه هي الحرارة العامّة للجسم، في حين أنّ أجهزة الجسم المختلفة ربّما اختلفتْ درجة حرارتها، كُلٌّ حَسب ما يناسبه: فالكبد مثلاً درجة حرارته أربعون درجة، وتختلّ وظيفته إذا نقصت عن هذه الدّرجة، في حين أنّ درجة حرارة جَفْن العين مثلاً تسع درجات، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبّة العين، ويفقد الإنسان البصر، فسبحان الله الّذي حفظ حرارة هذه الأعضاء في الجسم لا يطغى أحدها على الآخر، لذلك حينما يسافر الإنسان إلى أيّ بلدٍ في إحدى مناطق البرودة الشّديدة أوّل النّصائح له ألّا يمسك أذنه بيده، لماذا؟ قالوا: لأنّ درجة حرارة اليد أقلّ من درجة حرارة الأذن، ووَضْع اليد الباردة على الأذن قد تُسبِّب كثيراً من الأضرار، فكلّ ما نستخدمه من ملابس وأغطية تقينا برد الشّتاء لا تعطينا حرارة، بل تحفظ علينا حرارتنا الطّبيعيّة فلا تتسرّب، وبذلك تتمّ التّدفئة، ويستطيع الإنسان أنْ يضعَ يده على فراشه قبل أن ينام ليجده بارداً، أمّا في الصّباح فيجده دافئاً، فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمه، وليس العكس.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾: البأس: الحرب، والسّرابيل الّتي تقي من البأس هي الدّروع الّتي يلبسها الجنود في الحرب لتقيهم الضّربات، ولكنّ هذه الآية في سياق الحديث عن بعض نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا في الاستقرار والسّكن، وما جعله لنا من بيوتٍ وظلالٍ، حياة دَعَة وسلام ونعمة، فما الدّاعي لذكر الحرب هنا؟ ذلك لأنّ الحياة لها منطق سلامة الجميع، فإن اختلّ منطق السّلامة فعلى النّاس أنْ يقفوا في وجه مَنْ يُخِلّ بسلامة المجتمع، وأن يكونوا على استعدادٍ لذلك في كلّ وقتٍ، ولا بُدّ في وقت السِّلْم أنْ نَعُدَّ العُدّة للحرب لنندفع العدوان؛ لذلك تحدّث عن الحرب وعُدّتها، وهو يتحدّث عن السّكون والاستقرار والنّعمة.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾: كأنّ من تمام نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ نحفظها ممّنْ يُفسدها علينا، ونقف له بالمرصاد ونضرب على يده؛ لأنّه لو تركنا هؤلاء المفسدين في مجتمعنا فسوف يُفسِدون علينا هذه النِّعم، وسنظلّ مُهدّدين، لا نشعر بلذّة الحياة ومُتعِها، فلا تتمّ النّعمة إلّا بحفظ السّلامة العامّة للمجتمع.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾: أي: نُلْقي زمام الاستسلام لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الّذي أسلمنا له، ونحن لَا نُلقي زمامنا إلّا لمنْ نثق فيه، وهو الرّبّ الرّحيم والحكيم، فالإنسان يُلقي زمامه في حاجاته ليس لمن يساويه بل لمن خلقه.

(الآية ٨٢) - ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢﴾:

أي: لا تحزن يا محمّد إذا أعرض قومك، فلست مأموراً إلّا بالبلاغ، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيةٍ أخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشّعراء]؛ أي: مُهلكها، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾

[الشّعراء]، لكنّ الدّين لا يقوم على السّيطرة على القالب، وفَرْقٌ بين السّيطرة على القالب والسّيطرة على القلب، فيمكنك بمسدّسٍ في يدك أنْ تُرغمني على ما تريد، لكنّك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبي على الإيمان بشيءٍ، والله ﷻ يريد مِنّا القلوب لا القوالب، لذلك قال تبارك وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، ولو أراد مِنّا القوالب لجعلها راغمةً خاضعةً لا يشذّ منها واحدٌ عن مراده ﷻ.

﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: أي: البلاغ التّامّ الكامل الّذي يشمل جزئيّات الحياة وحركاتها، فقد جاء المنهج الإلهيّ شاملاً للحياة بداية بقول: لا إله إلّا الله، حتّى إماطة الأذى عن الطّريق، فلم يترك شيئاً إلّا حدّثنا فيه، فهذا بلاغٌ مبينٌ محيطٌ بمصالح النّاس، فالله ﷻ أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

(الآية ٨٣) - ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾:

﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: وقد حكى القرآن الكريم عنهم في آياتٍ أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧﴾ [الزّخرف]، وقال عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: من الآية ١٤]؛ لأنّ الإيمان بالله ﷻ والاعتراف بنِعَمِهِ مسألةٌ شاقّةٌ عليهم، ولو كانت مجرّد كلمة تُقال لقالوها، ما أسهل أنْ يقولوا: لا إله إلّا الله، لكنّهم يعلمون أنّ: لا إله إلّا الله لها مطلوبات، فما دام لا إله إلّا الله، فلا يُشرّع إلّا الله ﷻ، ولا يأمر إلّا الله ﷻ، ولا يَنْهى إلّا الله ﷻ، ولا يُحِلُّ إلّا الله ﷻ، ولا يُحرّم إلّا الله ﷻ.

﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: بعض العلماء يقولون: أكثرهم يعني كلّهم، لا، بل هذا أسلوبٌ قرآنيٌّ لصيانة الاحتمال، وللاحتياط للقلّة الّتي تفكّر في الإسلام، ويراودها أمر هذا الدّين الجديد من هؤلاء الكفّار، فكان لا بُدَّ أنْ يُراعي القرآن الكريم أمر هذه القلّة، ويترك لهم الباب مفتوحاً، فالاحتمال هنا قائمٌ.

(الآية ٨٤) - ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤﴾:

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾: يُنبّهنا الحقّ ﷻ هنا إلى أنّ المسألة ليست ديناً وتنتهي القضيّة آمن مَنْ آمن، وكفر مَنْ كفر، إنّما ينتظرنا بعثٌ وحسابٌ وثوابٌ وعقابٌ، ومرجعٌ إلى الله ﷻ ووقوفٌ بين يديه، فإنْ لم تذكر الله ﷻ بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للقائك به لاحقاً.

﴿شَهِيدٗا﴾: الشّهيد: هو نبيُّ الأمّة الّذي يشهد عليهم بما بلّغهم من منهج الله ﷻ، وقال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٣]، فكأنّ أمّة سيّدنا محمّد ﷺ أعطاها الله ﷻ أمانة الشّهادة على الخَلْق؛ لأنّها بلّغتهم، فكلّ مَنْ آمن برسول الله ﷺ مطلوبٌ منه أن يُبلّغ ما بلّغه الرّسول ﷺ، ليكون شاهداً على مَنْ بلّغه أنّه بلّغه.

﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: فحينما يشهد عليهم الشّهيد لا يُؤْذَن لهم في الاعتذار، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾ [المرسلات]،

أو حينما يقول أحدهم: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون: من الآيتين ٩٩ - ١٠٠]، فلا يُجاب لذلك؛ لأنّه لو عاد إلى الدّنيا لفعل كما كان يفعل من قبل، فيقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: من الآية ٢٨].

﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾: مادّة (استعتب) من العتاب، والعتاب مأخوذٌ من العَتْب، وأصله الغضب، فتجد في نفسك موجدةً وغضباً على مَنْ أساء إليك، فإن استقرّ العَتْب -الّذي هو الغضب والموجدة- في النّفس، فقد تعتب على مَنْ أساء إليك وتُوضّح له ما أغضبك، فربّما كان له عُذْرٌ، أو أساء عن غير قصدٍ منه، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك، فنقول: عتَب فلانٌ على فلانٍ فأعتبه؛ أي: أزال عَتْبه، وقوله ﷻ هنا: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ أي: لا يطلب أحدٌ منهم أنْ يرجعوا عمّا أوجب العَتْب وهو كفرهم، فلم يَعُد هناك وقتٌ للعتاب؛ لأنّ الآخرة دار حساب، وليست دار عملٍ أو توبةٍ، لم تَعُدْ دارَ تكليف.

(الآية ٨٥) - ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾:

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾: كأنّ العذاب سيُنصب أمامهم، فيرونه قبل أن يباشروه، وهكذا يجمع الله ﷻ عليهم ألواناً من العذاب؛ لأنّ إدراكات النّفس تتأذّى بالمشاهدة قبل أنْ تتألّم الأحاسيس بالعذاب؛ لذلك قال ﷻ: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾: أي: لا يُمْهَلُون ولا يُؤجّلون.

(الآية ٨٦) - ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾:

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾: ذلك حينما يجمع الله سُبحانه وتعالى المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس والجنّ والأصنام، وكلّ مَنْ أشركوه مع الله تبارك وتعالى وَجْهاً لوجهٍ يوم القيامة، وتكون بينهم هذه المواجهة، حينما يرى المشركون شركاءهم الّذين أضلّوهم وزيّنوا لهم المعصية، وزيّنوا لهم الشّرك والكفر بالله سُبحانه وتعالى، يقولون: هؤلاء هم سببُ ضلالنا وكُفْرنا، كما قال الله تبارك وتعالى عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة]، ويقول جلّ وعَلا: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: من الآية ٣١].

﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾: أي: ردُّوا عليهم بالمثل، وناقشوهم بالحجّة، كما قال المولى سُبحانه وتعالى في حَقِّ الشّيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، فردّوا عليهم القول: ما كان لنا عليكم من سلطان، نحن دعوناكم فاستجبتم لنا، ولم يكن لنا قوّةٌ تُرغمكم على الفعل، ولا حُجّةٌ تُقنعكم بالكفر؛ ولذلك يتّهمونهم بالكذب.

﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي: كاذبون في هذه الدّعوى.

(الآية ٨٧) - ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾:

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: السَّلَم: أي: الاستسلام، فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهْلة، تعمل أو لا تعمل، إنّما الآن: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: من الآية ١٦]؟ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: من الآية ١٦]، الأمر والملك لله عَزَّ وَجَلَّ، وما داموا لم يُسلِموا طواعيةً واختياراً، فَلْيُسلِموا له قَهْراً ورَغْماً عن أنوفهم، وهنا تتّضح لنا ميْزة من ميْزات الإيمان، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل الإنسان مختاراً فاختار الإيمان، أمّا هنا يستسلمَ قَهْراً يوم تتكشّف الحقيقة على أنّه لا إله إلّا الله، وسوف يُواجهني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في يومٍ لا اختيار لي فيه.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: كلمة: الضّلال تردُ بمعانٍ متعدّدة، منها: ضلَّ؛ أي: غاب عنهم شفعاؤهم، فأخذوا يبحثون عنهم فلَم يجدوهم، ومن هذا المعنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السّجدة: من الآية١٠]؛ أي: يغيبوا في الأرض، حيث تأكل الأرض ذرّاتهم، وتُغيِّبهم في بطنها، وكذلك نقول: الضّالّة؛ أي: الدّابّة الّتي ضلَّتْ؛ أي: غابتْ عن صاحبها، ومن معاني الضّلال: النّسيان، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٢]، ومن معانيه: التّردّد، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضّحى]، فلم يكُنْ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهجٌ ثمّ تركه وانصرف عنه وفارقه، ثمّ هداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتحيرّاً مُتردّداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقول الرّاجحة من أفعالٍ تتنافى مع العقل السّليم والفطرة النَّيِّرة، فكانت حيرة الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها.

فقوله ﷻ: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾: أي: غاب عنهم.

﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾: أي: يكذبون من ادّعائهم آلهة وشفعاءَ من دون الله ﷻ.

(الآية ٨٨) - ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨﴾:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هنا فرْقٌ بين الكفر والصَّدِّ عن سبيل الله ﷿، فالكفر ذنبٌ ذاتيٌّ يتعلّق بالإنسان نفسه، لا يتعدّاه إلى غيره، فَاكفُرْ كما شئت -والعياذ بالله- أنت حرٌّ!! أمّا الصّدُّ عن سبيل الله ﷻ فذنبٌ مُتعدٍّ، يتعدَّى الإنسان إلى غيره، حيث يدعو غيره إلى الكفر، ويحمله عليه ويُزيّنه له، فالذّنب هنا مضاعفٌ، ذنبٌ لكفره في ذاته، وذنبٌ لصدّه غيره عن الإيمان، لذلك يقول ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: من الآية ١٣]، فإنْ قال قائلٌ: كيف وقد قال ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٦٤]؟ نقول: لا تعارضَ بين الآيتين، فكلّ واحدٍ سيحمل وِزْره، فالّذي صَدَّ عن سبيل الله ﷿ يحمل وِزْرَيْن، أمّا مَنْ صدَّه عن سبيل الله ﷻ فيحمل وِزْر كفره هو.

﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾: العذاب الأوّل على كفرهم، وزِدْناهم عذاباً على كفر غيرهم مِمَّنْ صدُّوهم عن سبيل الله ﷿، ولذلك فالنّبيّ ﷺ يقول: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ

بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً، عُمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً»(١)، فإيّاك أنْ تقعَ عليك عيْن المجتمع أو أُذنه وأنت في حال مخالفةٍ لمنهج الله ﷻ وأمور سيّئة وسلبيّات؛ لأنّ هذه المخالفة ستؤثّر في الآخرين، وستكون سبباً في مخالفةٍ أخرى بل مخالفات، وسوف تحمل أنتَ قِسْطاً من هذا.

﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾: والإفساد: أنْ تعمدَ إلى شيءٍ صالحٍ أو قريبٍ من الصّلاح فتُفسده، ولو تركتَه وشأنه لربّما يهتدي إلى منهج الله ﷻ، فأنت أفسدتَ الصّالح ومنعت القابل للصّلاح أن يُصلح.

(الآية ٨٩) - ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾:

﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾: يعني من جنسهم؛ أي أنّه جزء من أجزائهم وعضو من أعضائهم، كما قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النّور]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ [فصّلت: من الآية ٢١]، والشّهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شكَّ أنّ حجّته قويّة وبيّنته واضحة.

﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾: أي: شهيداً على أمّتك، كأنّه ﷺ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند الكوفيّين، ومن حديث جرير بن عبد الله ﷺ، الحديث رقم (١٩٢٠٠).

شهيدٌ على الشّهداء.

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾: الكتاب: القرآن الكريم.

﴿تِبۡيَٰنٗا﴾: أي: بياناً تامّاً لكلّ ما يحتاجه الإنسان، وكلمة: ﴿شَيۡءٖ﴾ تُسمّى جنس الأجناس؛ أي: كلّ ما يُسمّى (شيء) فبيانُه في كتاب الله سبحانه وتعالى، ونقول: إنّ القرآن الكريم جاء معجزةً، وجاء منهجاً في الأصول، وقد أعطى الحقّ سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حقّ التّشريع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، فسُنّة الرّسول صلى الله عليه وسلم إذا كانت قَوْلاً أو فِعْلاً أو تقريراً فهي ثابتةٌ بنصّ الكتاب، وهي شارحةٌ له ومُوضّحة، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات، فأين هذا في كتاب الله عز وجل؟ نقول: في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، وقد بيَّن الرّسول صلى الله عليه وسلم هذه القضيّة حينما أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه قاضياً لأهل اليمن، وأراد أن يستوثق من إمكانيّاته في القضاء، فسأله: «كَيْفَ تَقْضِي إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟»، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ؟»، قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ؟»، قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو، قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرِي فَقَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِمَا يُرْضِي رَسُولَهُ»[١]، فالاجتهاد مأخوذٌ من كتاب الله سبحانه وتعالى، وكلّ ما يستجدّ أمامنا من قضايا لا نصّ فيها، لا في الكتاب ولا في السُّنَّة، فقد أبيح لنا الاجتهادُ فيها، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: تتمّة مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، الحديث رقم (٢٢١٠١).

ﭐلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النّحل: من الآية ٤٣]، ولا يُرَدّ الاجتهاد إلى وسائل التّواصل ولا لمن أراد أن يتكلّم كيف يشاء، ولا إلى من لا يعرف سورة الفاتحة من سورة الكوثر، ولا يعرف (بسم الله الرّحمن الرّحيم) من (أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم)، ولا يعرف المتواتر من الآحاد، ولا يعرف الحديث الصّحيح من الحسن، بل الاجتهاد يُرَدّ إلى أهل الاجتهاد، قال ﷻ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النّساء: من الآية ٨٣]، فكلّ ما صدر عن الرّسول ﷺ وعن الإجماع وعن الأئمّة المجتهدين موجودٌ في القرآن الكريم، فهو صادق، ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فهي كثيرةٌ، فما الّذي يتعرّض له القرآن الكريم؟ يتعرّض القرآن الكريم للأحكام التّكليفيّة المطلوبة من العبد الّذي آمن بالله ﷻ، وهناك أمورٌ كونيّةٌ لا يتأثّر انتفاع الإنسان بها بأنْ يعلمها، فهو ينتفع بها سواء علمها أم جهلها، فكوْنُ الأرض كُرويّة الشّكل، وكَوْنها تدور حول الشّمس، وغير هذه الأمور من الكونيّات إنْ علمها الإنسان فَبِهَا وَنعمتْ، وإنْ جهلها لا يمنعه جهله من الانتفاع بها، كما قال القرآن الكريم: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، والأهلّة: جمع هلال، وهو ما يظهر من القمر في بداية الشّهر، حيث يبدو مثل قلامة الظّفر، ثمّ يزداد تدريجيّاً إلى أنْ يصل إلى مرحلة البدر عند تمام استدارته، ثمّ يتناقص تدريجيّاً إلى أنْ يعودَ إلى ما كان عليه، هذه عجيبةٌ يرونها بأعينهم، ويسألون عنها، ولكن كيف رَدَّ عليهم القرآن الكريم؟ لم يُوضّح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال، وأنّ الأرض إذا حالتْ بين الشّمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشّمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة، فهذا التّفصيل لا تستوعبه عقولهم عند

النّزول، وليس لديهم من الثّقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونيّة؛ لذلك يقول لهم: اصرفوا نظركم عن هذه، وانظروا إلى حكمة الله الخالق سبحانه وتعالى في الأهلّة: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، فردّهم إلى أمرٍ يتعلّق بدينهم التّقليديّ، فاهتمّ ببيان الحكمة منها، وفي الوقت ذاته ترك هذه المسألة للزّمن وللعلم يشرحها لهم، حيث سيجدون في القرآن الكريم ما يُعينهم على فَهْم هذا الموضوع، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨]؛ أي: من كلّ شيءٍ تكليفيّ، إنْ فعله المؤمن أثيب، وإنْ لم يفعله يُعاقب، أمّا الأمور الكونيّة فيعطيهم منها على قدر وَعْيهم لها، ويترك للزّمن والعلم مهمّة الإبانة بما يحدث فيه من فكرٍ جديدٍ وعقلٍ رشيدٍ، لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كلّه في وقت النّزول، ولو فعل ذلك لاستقبلت القرون الأخرى القرآن الكريم بغير عطاءٍ، فالعقول تتفتّح على مَرِّ العصور وتتفتّق عن فكر جديد، ولا يصحّ أنْ يظلَّ العطاء الأوّل هو نفسه لا يتجدّد، لا بُدَّ أن يكون لكلّ قرنٍ عطاءٌ جديدٌ يناسب ارتقاءات البشر في علومه الكونيّة، والرّسول صلى الله عليه وسلم حينما رأى النّاس يُؤبّرون النّخل؛ أي: يُلقّحونه، وهو ما يُعرف بعمليّة الإخصاب، حيث يأخذون من الذّكر ويضعون في الأنثى، فماذا قال لهم؟ قال: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ»، فَخَرَجَ شِيصاً، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟»، قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»(١)، فهذا أمرٌ دنيويٌّ خاضعٌ للتّجربة ووليد بَحْثٍ

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون مَا ذَكَرَهُ صلى الله عليه وسلم من معايش الدّنيا على سبيل الرّأي، الحديث رقم (٢٣٦٣).

معمليٍّ، وليس من مهمّة الرّسول ﷺ توضيح هذه الأمور الّتي يتّفق فيها النّاس وتتّفق فيها الأهواء، إنّما يوضّح الأحكام التّكليفيّة الّتي تختلف فيها الأهواء فحسمها الحقّ سبحانه وتعالى بالحكم.

﴿وَهُدًى﴾: وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم هنا بأنّه: (هُدىً)، فإذا كان القرآن الكريم قد نزل تبياناً فكان التّوافق يقتضي أن يقول: وهادياً، لكن لم يَصف القرآن الكريم بأنّه: هادٍ، بل: هُدىً، وكأنّ القرآن الكريم هو الهدى نفسه؛ لأنّ (هادياً) ذاتٌ ثبت لها الهداية، إنّما (هُدىً): يعني هو جوهر الهدى، كما نقول: فلانٌ عادلٌ، وفي المبالغة نقول: فلانٌ عَدْلٌ، كأنّ العَدْل مجسّمٌ فيه، وليس مجرّد واحد ثبتت له صفة العدل، وكذلك مثل قولنا: عالمٌ وعليمٌ، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف: من الآية ٧٦].

فمعنى الهدى: الدّلالة على الطّريق الموصل للغاية من أقرب الطّرق.

﴿وَرَحْمَةً﴾: مرّةً يُوصَف القرآن الكريم بأنّه رحمة، ومرّةً بأنّه: ﴿شِفَاءٌ﴾، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٢]، والشّفاء: أن يُوجد داءٌ يعالجه القرآن الكريم، والرّحمة: هي الوقاية الّتي تمنع وجود الدّاء، وما دام القرآن الكريم كذلك، فمَنْ عمل بمنهجه فقد بُشِّر بالثّواب العظيم من الله سبحانه وتعالى، الثّواب الخالد في نعيمٍ دائمٍ.

(الآية ٩٠) - ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾:

هذه الآية العظيمة جامعةٌ لمفاتيح الخير كلّها، ونجد في هذه الآية ثلاثة

أوامر: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القُرْبى، وثلاثة نَواهٍ: تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولمّا نزلت هذه الآية قال ابن مسعود ﷺ: "وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِحَلَالٍ وَحَرَامٍ وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾"؛ لأنّها جمعتْ الفضائل كلّها الّتي يمكن أن تكون في القرآن الكريم، وقد كان رسول الله ﷺ يُحبّ أن يُسلِم عثمان بن مظعون، إلّا أنّ سيّدنا عثمان بن مظعون تريَّث في الأمر، عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِفِنَاءِ بَيْتِهِ بِمَكَّةَ جَالِسٌ، إِذْ مَرَّ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَكَشَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلا تَجْلِسُ؟»، قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُهُ إِذْ شَخَصَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَنَظَرَ سَاعَةً إِلَى السَّمَاءِ، فَأَخَذَ يَضَعُ بَصَرَهُ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى يَمِينِهِ فِي الْأَرْضِ، فَتَحَرَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ جَلِيسِهِ عُثْمَانَ إِلَى حَيْثُ وَضَعَ بَصَرَهُ، وَأَخَذَ يُنْغِضُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْقِهُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَابْنُ مَظْعُونٍ يَنْظُرُ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ، وَاسْتَفْقَهَ مَا يُقَالُ لَهُ، شَخَصَ بَصَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا شَخَصَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَتْبَعَهُ بَصَرَهُ حَتَّى تَوَارَى فِي السَّمَاءِ، فَأَقْبَلَ إِلَى عُثْمَانَ بِجِلْسَتِهِ الْأُولَى، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ كُنْتُ أُجَالِسُكَ وَآتِيكَ، مَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ كَفِعْلِكَ الْغَدَاةَ، قَالَ: «وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟»، قَالَ: رَأَيْتُكَ تَشْخَصُ بِبَصَرِكَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعْتَهُ حَيْثُ وَضَعْتَهُ عَلَى يَمِينِكَ، فَتَحَرَّفْتَ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَنِي، فَأَخَذْتَ تُنْغِضُ رَأْسَكَ كَأَنَّكَ تَسْتَفْقِهُ شَيْئًا يُقَالُ لَكَ، قَالَ: «وَفَطِنْتَ لِذَاكَ؟»، قَالَ عُثْمَانُ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ آنِفًا، وَأَنْتَ جَالِسٌ»، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾، قَالَ عُثْمَانُ: فَذَلِكَ حِينَ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي، وَأَحْبَبْتُ مُحَمَّداً[1]، ويُروى أنّ النّبيّ ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب، وكان معه أبو بكر وعليّ رضي الله عنهما، قال عليّ كرّم الله وجهه: فإذا بمجلس عليه وقار ومَهابة، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان بن ثعلبة فقال: إلى أيّ شيءٍ تدعونا يا أخا قريش؟ فقال ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾، فقال مقرون: إنّك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال، أفِكتْ قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك، وعَنْ عِكْرِمَةَ رضي الله عنه، قَالَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾، قَالَ: "أَعِدْ"، فَأَعَادَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: "وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ"، وَقَالَ لِقَوْمِهِ: "وَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ هَذَا الَّذِي يَقُولُ شَيْئاً

---

(١) مسند الإمام أحمد: ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العبّاس رضي الله عنهما عن النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٢٩١٩).

مِنْ هَذَا، وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعَلَى، وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ"(١)، ومع شهادته هذه إلّا أنّه لم يؤمن، فقالوا: حَسْبُه أنّه شهد للقرآن الكريم وهو كافرٌ، وهكذا دخلتْ هذه الآيةُ قلوبَ هؤلاء القوم، واستقرّتْ في أفئدتهم؛ لأنّها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ، دعَتْ لكلّ خيرٍ، ونَهتْ عن كلّ شرٍّ، وهذا هو ديننا الإسلاميّ.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾: العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل؛ لأنّه لا يكون إلّا بين شيئين متناقضين، لذلك سُمِّي الحاكم العادل مُنْصِفاً؛ لأنّه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكلٍّ منهما نصفَ تكوينه، وكأنّه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة، هذا هو الإنصاف، ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان، والميزان تختلف دِقّته حَسْب الموزون، فحساسيّة ميزان الشّعير والقمح غير حساسيّة ميزان الجواهر مثلاً، وتتناهى دقّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطّبّيّة، حيث أقلّ زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدّواء إلى سُمٍّ، وقد شاهدنا تطوّراً كبيراً في الموازين، حتّى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره، والعدل دائرٌ في أقضية الحياة كلّها من القمّة في شهادة أن لا إله إلّا الله إلى إماطة الأذى عن الطّريق، فالعدل مطلوبٌ في أمور التّكليف كلّها، في الأمور العقديّة الّتي هي عمل القلب، وكذلك مطلوبٌ في الأمور العمليّة الّتي هي أعمال الجوارح في حركة الحياة، فكيف يكون العدل في الأمور العقديّة؟ لو نظرنا إلى معتقدات الكفّار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود إلهٍ في الكون، فأنكروا

---

(١) الاعتقاد للبيهقيّ: باب القول في إثبات نبوّة محمّد ﷺ، ج١، ص ٢٦٨.

وجوده ﷻ مطلقاً، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء، فجاء العدل في الإسلام، فالإله واحدٌ لا شريك له، مُنزّهٌ عَمّا يُشبه الحوادث، كما وقف موقفَ العدل في صفاته ﷻ، فله سَمْعٌ، ولكن ليس كأسماع المُحدثات، لا ننفي عنه ﷻ مثل هذه الصّفات فنكون من المعطّلة، ولا نُشبّهه ﷻ بغيره فنكون من المشبِّهة، بل نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، ونقف موقف العَدْل والوسطيّة، كذلك من الأمور العقديّة الّتي تجلَّى فيها عدل الإسلام قضيّة الجبر والاختيار، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول: إنّ الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْلٍ لله ﷻ في أعمال العبد؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً، ومن يقول: لا؛ بل الأعمال من الله ﷻ والعبد مُجْبَرٌ عليها، فيأتي الإسلام بالعدالة والوسطيّة في هذه القضيّة، فيقول: بل الإنسان يعمل أعماله الاختياريّة بالقوّة الّتي خلقها الله ﷻ فيه للاختيار.

وفي التّشريع والأحكام حدث تباينٌ كبيرٌ بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى ﷻ في القصاص مثلاً: في شريعة موسى عليه السلام طغتْ المادّيّة على بني إسرائيل حتّى قالوا لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النّساء: من الآية ١٥٣]، فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به، فكان المناسب لهم القِصَاص، ولو تركهم الحقّ ﷻ لَكَثُر فيهم القتل، فهم لا ينتهون إلّا بهذا الحُكْم الرّادع: مَنْ قتَل يُقتلُ، والقتل أنْفى للقتل، وقد تعدّى بنو إسرائيل في طلبهم رؤية الله ﷻ، فكوْنُك ترى الإله تناقضٌ في الألوهيّة؛ لأنّك حين تراه عينُك فقد حدّدتَه في حيّزٍ، فكونه لا يُرَى، هذا عَيْن الكمال فيه ﷻ، وكيف نطمع في رؤيته ﷻ، ونحن لا نستطيع رؤية حتّى بعض مخلوقاته، فالرّوح الّتي بين جَنْبي كلٍّ مِنّا ماذا نعرف عن طبيعتها

وعن مكانها في الجسم؟ وبها نتحرّك ونزاول أعمالنا، وبها نفكّر، وبها نعيش، أين هي؟ فإذا ما فارقتْ الرّوح الجسم وأخذ الله ﷻ سرّه تحوّل الإنسانُ إلى جيفةٍ يُسارع النّاس في مواراتها التّراب، هل رأيت هذه الرّوح؟ هل سمعتها؟ هل أدركتها بأيّ حاسّةٍ من حواسِّك؟ فإذا كانت الرّوح وهي مخلوقةٌ لله ﷻ يعجز العقل عن إدراكها، فكيف بمَنْ خلق هذه الرّوح؟ فمن عظمته ﷻ أنّه لا تُدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، كذلك هناك أشياءٌ ممّا يتطلّبها الدّين كالحقّ مثلاً، وهو معنىً من المعاني الّتي يدّعيها النّاس كلّهم، ويطلبون العمل بها، هذا الحقّ ما شَكْله؟ ما لونه؟ طويلٌ أم قصيرٌ؟ فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحقّ، وهو مخلوقٌ لله ﷻ، فكيف نتصوّر الله ﷻ ونطمع في رؤيته؟! ومن إسراف بني إسرائيل في المادّيّة أن جعلوا لله ﷻ في التّلمود جماعة من النّقباء، وجعلوه ﷻ قاعداً على صخرةٍ يُدلّي رِجْليْه في قصعةٍ من المرمر، ثمّ أتى حوتٌ.. إلخ، سبحان الله؛ ألهذا الحدِّ وصلتْ بهم المادّيّة؟ ومن هنا كان الكون في حاجةٍ إلى طاقةٍ روحيّةٍ، تكون فيها الرّوحانيّة ليحدث نوعٌ من التّوازن في الكون، فجاءت شريعة عيسى عليه السلام بعد مادّيّةٍ مُفْرطةٍ وإسرافٍ في الموسَويّة، فكيف يكون حُكْم القصاص فيها وهي تهدف إلى أنْ تسموَ بروحانيّات النّاس؟ جاءت شريعة عيسى عليه السلام وعدّلت بهذا الموقف، لذلك نجد أنّ الإسلام عندما يقول: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، فالعدل اعتقاداً وبكلّ أمرٍ، فالإسلام جاء بالعدل والوسطيّة في كلّ أمرٍ، وأعطى وليّ المقتول حقّ القصاص ودعاه في الوقت ذاته إلى العفو، فقال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٨]، ونلحظ أنّ القرآن الكريم جعل كثيراً من الأمور الّتي تتعلّق بإزالة

الضّغائن، كلّ هذا من أمر الإسلام بالعدل، فالعدل تُقام عليه أمور الدّنيا كلّها، وحينما يُعطي المولى ﷻ هذا الأمر للنّبيّ ﷺ ويقول: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، فكلّ عدلٍ في الحكم، وكل عدلٍ في العقائد، وكلّ عدلٍ في الشّرائع، وكلّ عدلٍ في أيّ أمرٍ من الأمور فإنّما جاء من دين الوسطيّة والاعتدال، دين العدل، ولذلك عندما قال سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قوله المشهور لابن عمرو بن العاص رضي الله عنه: "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟!"، هذه العدالة والوسطيّة الّتي رفع الإسلام البشريّة إليها، لم يستطع أحدٌ حتّى هذه اللّحظة ولن يستطيع أحدٌ أن يصل إلى معناها الحقيقيّ وإلى تطبيقها كما طبّقها رسول الله ﷺ، وكما طبّقها الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم جميعاً، وكذلك في الاقتصاد الّذي هو عصب الحياة، الّذي به يتمّ استبقاء الحياة بالطّعام والشّراب والملْبس وغيره، يجب أن يكون هناك عدلٌ في حركة الإنتاج والاستهلاك، حتّى تستمرّ الحياة، وتمنع البطالة والفساد، وقد وزّع الله ﷻ المواهب بين العباد، وطلب العدل، فالعدل في كلّ أمرٍ في الكون يُصلح الكون، وعندما يختلّ ميزان العدل، يبدأ الفساد، وتبدأ المشكلات، من ضياع الحقوق، ومن الخصومات في المحاكم، من العلاقة بين الرّجل والمرأة، والعلاقة داخل الأسرة، كلّ ما يتعلّق بموضوع العدل تدور عليه أقضية الحياة كلّها، وليس فقط القضاء الّذي نجد فيه الفصل في الخصومات بين النّاس، وهذا الدّين يأمر بالعدل، فهو: أمرٌ دائرٌ في حركات التّكليف كلّها، سواء كان تكليفاً عَقَديّاً، أم تكليفاً بواسطة الأعمال في حركة الحياة، فالأمر قائمٌ على الوسطيّة وخير الأمور الوسط.

﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾: ما الإحسان؟ إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]، وقوله جلّ جلاله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٦]، فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحقّ، وتتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ﷻ، عملاً بقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]، والنّاس في الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستِعداده الخُلقيّ، وأوّل هذه المراتب كظم الغيظ، فالإنسان يكظم غَيْظه في نفسه، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والرّدّ بالمثل، ولكنّه يظلّ يعاني ألم الغيظ بداخله وتتأجّج ناره في قلبه، لذلك يحسُن التّرقّي إلى المرتبة الأعلى، وهي مرتبة العفو، فيأتي الإنسان ويقول: لماذا أدَع نفسي فريسة لهذا الغيظ؟ فيميل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه، فيعفو عمَّنْ أساء إليه، ويُخرِج المسألة كلّها من قلبه، فإنِ ارتقى الإنسان في العفو، سما إلى المرتبة الثّالثة، وهي مرتبة أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك، وتزيد عمّا فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الرّدِّ بالمثل، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ﷻ، فالّذي اعتدى اعتدى بقدرته، وانتقم بما يناسبه، ومن ترقّى في درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله ﷻ، وأيْن قدرتُك من قدرة ربّك ﷻ؟ فالإحسان أجمل بالمؤمن، وأفضل من الانتقام.

والإحسان يشمل أموراً كثيرةً، منها الإحسان بالعطاء، الإحسان المادّيّ، الكرم، اللّطف، فهذا كلّه من جانب كلمة الإحسان، والإحسان: أنْ تصنع فوق ما فرض الله ﷻ عليك، بشرط أن يكونَ من جنس ما فرضه جلّ جلاله عليك،

فالإحسان كما قال النّبيّ ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١)؛ أي: أنّك تشعر برقابة الله عزّ وجلّ، فتكون محسناً في كلّ شيءٍ، مع النّاس ومع العمل ومع الصّلاة... إلخ.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: إيتاء: أي: إعطاء.

تحدّثنا سابقاً عن موضوع العطاء، والعالم حَلَقات مقترنة، فكلّ قادرٍ لو أعطى الأقرباء المحتاجين حوله من خيْره، وأفاض عليهم ممّا أفاض الله سبحانه وتعالى عليه لَعَمَّ الخير المجتمع كلّه، وما وجدنا فقيراً محتاجاً؛ ذلك لأنّ هذه الدّوائر ستشمل المجتمع بمجمله، وقد تتداخل هذه الدّوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل، فلا نرى في مجتمعنا فقيراً، وقد حثّتْ الآية على القريب، وحنَّنَتْ عليه القلوب؛ لأنّ البعيد عنك قريبٌ لغيرك، وداخلٌ في دائرة عطاء أخرى، وقد يكون الفقير قريباً لعدّة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش للنّاس كلّهم.

هذه هي مجموعة الأوامر الواردة في هذه الآية، ولا يوجد مجتمعٌ يتحلّى بهذه الأوامر إلّا ويرتقي ارتقاءً عظيماً، إنّ مجتمعاً فيه هذه الصّفات لَمجتمعٌ سعيدٌ آمِنٌ يسوده الحبّ والإيمان والإحسان، إنّه لجديرٌ بالصّدارة بين أمم الأرض.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾: هذه مجموعةٌ من النّواهي تمثّل مع

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: من الآية ٣٤]، الحديث رقم (٤٧٧٧).

الأوامر السّابقة منهجاً قرآنيّاً قويماً يضمن سلامة المجتمع، وأُولى هذه النّواهي النّهي عن الفحشاء أو الفاحشة، والمتتبّع لآيات القرآن الكريم سيجد أنّ الزّنا الذّنب الوحيد الّذي سمّاه القرآن الكريم فاحشةً، أو كلّ شيءٍ يخدش حُكْماً من أحكام الله ﷻ، ولكن لماذا الزّنا بالذّات؟ نقول: لأنّ الذّنوب الأخرى غير الزّنا إنّما تتعلّق بمحيطات النّفس الإنسانيّة، أمّا الزّنا فيتعلّق بالنّفس الإنسانيّة ذاتها، ويترتّب عليه اختلاط الأنساب وبه تُدَنَّسُ الأعراض، وبه يشكُّ الرّجل في أهله وأولاده، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلّا الله ﷯؛ لذلك نصَّ عليه القرآن الكريم صراحةً في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ [الإسراء]، ومن أقوال العلماء في الفاحشة: إنّها الذّنب العظيم الّذي يخجل صاحبه منه ويستره عن النّاس، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به، كما قال بعض العلماء، والزّنا على رأس ذلك.

﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾: هو الذّنب يتجرّأ عليه صاحبه، ويُجاهر به، ويستنكره النّاس.

فلدينا هنا مرتبتان من الذّنب:

الأولى: أنّ صاحب الذّنب يتحرَّج أن يعرفه المجتمع فيستره في نفسه، مثل الزّنا، وهذا هو الفحشاء.

الثّانية: ما يفعله صاحبه علناً وينكره المجتمع؛ لأنّه يُنافي قيم المجتمع، ويُنَافي الذّوق السّليم، وهذا هو المنكر.

﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾: هو الظّلم في أيّ لَوْنٍ من ألوانه، وهو داخلٌ في أشياء كثيرة أعظمها ما يقع في العقيدة من الشّرك بالله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ

عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: من الآية ١٣]، فالبغي هو تجاوز الحقّ، وهو الظّلم، وأخذ حقوق الآخرين، فأيّ بغيٍ على الآخر هي من ظلم الإنسان لنفسه ولغيره؛ لأنّه يُقَدِّم شهوةً عاجلةً ومُتعةً زائفة، على نعيمٍ دائمٍ ومقيمٍ.

فالآية جمعتْ مجموعةً من الأوامر والنّواهي الّتي تضمن سلامة المجتمع، والأخلاق أعمُّ من أن تكون في الاعتقادات، وأعمُّ من أن تكون في المعجزة إيماناً بها، وأعمُّ من أن تكون في التّكاليف، وأعمُّ من أن تكون في أمرٍ لا حَدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم.

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: الوعظ: تذكيرٌ بالحكم، فعندنا أوّلاً إعلامٌ بالحكم لكي نعرفه، ولكنّه عُرْضة لأنْ نغفلَ عنه، فيكون الوعظ والتّذكير به، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتّى لا نغفل، وعادة لا تكون العِظَة إلّا فيما له قيمة، وما دام الشّيء له قيمةٌ فلا تصطفي له إلّا مَنْ تحبّ، كذلك الحقّ سبحانه وتعالى يحبّ خَلْقه وصَنْعته؛ لذلك يَعِظهم ويُذكِّرهم باستمرارٍ بهذه الأوامر والنّواهي لكي يكونوا دائماً على الجادّة ليتمتّعوا بنعم المسبِّب في الآخرة، كما تمتّعوا بنعمة الأسباب في الدّنيا.

(الآية ٩١) - ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾:

﴿وَأَوْفُوا﴾: الوفاء: أنْ تفِيَ بما عاهدتَ عليه، والعهود لا تكون في المفروض عليك، إنّما تكون في المباحات، فأنت حُرٌّ أن تلقاني غداً وأنا كذلك،

لكن إذا اتّفقنا وتعاهدنا على اللّقاء غداً في السّاعة كذا ومكان كذا فقد تحوَّل الأمر من المباح إلى المفروض، وأصبح كُلٌّ مِنَّا مُلزَماً بأن يفي بعهده، ومعلومٌ أنّ مصالح العبادِ في الدّنيا قائمةٌ على الوفاء بالعهد، وقد ينظر بعضهم إلى الوفاء بالعهد على أنّه مُلْزَمٌ به وحده، أو أنّه عِبْءٌ عليه دون غيره، لكنّه في الحقيقة عليه وعلى غيره، فكما طلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين، فكلّ تكليفٍ لك لا تنظر إليه هذه النّظرة، بل تنظر إليه على أنّه لمصلحتك.

﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: عهد الله: هو الشّيء الّذي تُعاهد الله عليه، وأوّل عَهْدٍ لك مع الله سبحانه وتعالى هو الإيمان به، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله جل جلاله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلّفك به، وإيّاك أن تُخِلّ بأمرٍ من أموره؛ لأنّ الإخلال بأيّ أمرٍ تكليفيٍّ من الله سبحانه وتعالى يُعَدُّ نَقْصاً في إيمانك؛ لأنّك حينما آمنت بالله عز وجل شهدتَ بما شهد الله سبحانه وتعالى به لنفسه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨]، فأوّل مَنْ شهد الله سبحانه وتعالى لنفسه، وهذه شهادة الذّات للذّات، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: شهادة المشاهدة، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: بالدّليل والحجّة، فأوّل عَهْدٍ بيننا وبين الله سبحانه وتعالى أنّنا آمنّا به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مُربّياً، فلنستمع إلى ما يطلبه منّا، فإنْ لم نستمع ونُنفّذ فلنعلم أنّ العهد الإيمانيّ الأوّل قد اختلَّ، ولذلك فالحقّ سبحانه وتعالى لم يُكلِّف الكافر؛ لأنّه ليس بينه وبينه عهد الإيمان، إنّما يُكلّف مَنْ آمن، فتجد كلّ آيةٍ من آيات الأحكام تبدأ بهذا النّداء الإيمانيّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٣]، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٣].

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾: الأَيْمان: جمع يمين، وهو الحلف

الّذي نحلفه ونُؤَكِّد عليه، فنقول: والله، وعهد الله.. إلخ، فلا يليق بنا أنْ ننقضَ ما أكَّدناه من الأَيْمان، بل نحن مُلزَمون أنْ نُوفِيّ بها؛ لأنّنا إنْ وفَّينا بها وفّى الآخرون في المقابل العهد الّذي بيننا وبينهم، فالعهد بين النّاس بعضهم بعضاً مأخوذٌ من باطن العهد الإيمانيّ بالله ﷻ؛ لأنّنا حينما نتعاهد نُشهد الله ﷻ على هذا العهد، فنقول: بيني وبينك عَهْد الله، فنُدخل بيننا الحق ﷻ لِنُوثّق ما تعاهدنا عليه.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: أي: شاهداً ورقيباً وضامناً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: أي: يجب أن نعلم أنّ الله ﷻ مُطّلعٌ علينا، يعلم خفايا الضّمائر وما تُكِنّه الصّدور، فلنحذر حينما نُعطي العهد أن نُعطيه ونحن ننوي أن نخالفه، فلا يجوز أنْ نُعطي العهد خِدَاعاً، فالله ﷻ يعلم ما نفعل.

(الآية ٩٢) - ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾: يضرب الحقّ ﷻ في هذه الآية لنا مثلاً توضيحيّاً للّذين ينقضون العهد والأَيْمان، ولا يُوفون بها، بهذه المرأة القرشيّة الحمقاء ريْطة بنت عامر الّتي كانت تأمر جواريها بغزل الصّوف من الصّبح إلى الظّهر، ثمّ تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظّهر حتّى العصر، والمتأمّل في هذا المثل

يجد فيه دروساً متعدّدة، والغَزْل عمليّةٌ كان يقوم بها النّساء قديماً، فكُنَّ يُحضِرْن المادّة الّتي تصلح للغزل، مثل الصّوف أو الوبر، ومثل القطن الآن، وهذه الأشياء عبارةٌ عن شعيراتٍ دقيقة تختلف في طولها من نوعٍ لآخر، يُسمُّونها التّيلة، فيقولون: (هذه تيلةٌ قصيرةٌ، وهذه طويلةٌ)، والغَزْل هو أن نُكوِّن من هذه الشّعيرات خَيْطاً طويلاً ممتدّاً وانسيابيّاً دون عُقَد فيه لكي يصلح للنّسجْ بعد ذلك، وتتمّ هذه العمليّة بآلةٍ بدائيّةٍ تُسمّى المغزل، تقوم المرأة بخلط هذه الشّعيرات الدّقيقة ثمّ بَرْمِها بالمغزل، ليخرج في النّهاية خيطٌ طويلٌ مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه، والآية هنا ذكرتْ المرأة في هذا العمل؛ لأنّه عملٌ خاصٌّ بالنّساء في وقت نزول الآيات دون الرّجال، فكانت المرأة تُمارس مثل هذه الصّناعات البسيطة الّتي تكوِّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره، فالقرآن الكريم ضرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجاهليّة، هذا العمل الّذي يحتاج إلى جَهْدٍ ووقتٍ في الغزل، ويحتاج إلى أكثر منه في نَقْضه وفكِّه، فهذه عمليّةٌ شاقّةٌ جدّاً؛ ولذلك أطلقوا عليها: حمقاء قريش.

﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾: كلمة: ﴿قُوَّةٍ﴾ هنا تدلُّنا على المراحل الّتي تمرُّ بها عمليّة الغَزْل، وكم هي شاقّة، بداية من جَزِّ الصّوف من الغنم أو الوبر من الجِمال، ثمّ خَلْط أطراف كلّ تيلةٍ من هذه الشّعيرات، بحيث يكون طرف كلّ تيلة منها في وسط الأخرى لكي يتمّ التّلاحم بينها بهذا المزج، ثمّ تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخرج لنا في النّهاية بضعة سنتيمترات من الخيط، ولو قارنّا بين هذه العمليّة اليدويّة، وبين ما توصّلتْ إليه صناعة الغزل الآن لَتبيَّن لنا كم كانت شاقّةً عليهم، فكأنّ القرآن الكريم شبَّه الّذي يُعطِي العهد ويُوثِّقه بالأيمان

المؤكّدة، ويجعل الله ﷻ وكيلاً وشاهداً على ما يقول بالّتي غزلتْ هذا الغزل، وتحمّلت مشقّته، ثمّ راحتْ فنقضت ما أنجزته، وفكَّتْ ما غزلته.

وكذلك كلمة: ﴿قُوَّةٍ﴾ تدلُّنا على أنّ كلّ عملٍ يحتاج إلى قوّة، هذه القوّة إمّا أنْ تُحرِّك السّاكن أو تُسكِّن المتحرِّك؛ لذلك قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: من الآية ٦٣]؛ لأنّ ساكن الخير نريد أن نحرّكك إليه، ومتحرّك الشّرّ نريد أن نكفّك عنه، وهذه يسمّونها في عالم الحركة: (قانون العطالة)، المتحرّك يظلّ مُتحرّكاً إلى أنْ يعرضَ له شيءٌ يُسكِّنه، والسّاكن يظلّ ساكناً إلى أنْ يعرِضَ له شيءٌ يُحرِّكه، ومن هنا يتعجَّب كثيرون من الأقمار الصّناعيّة الّتي تدور أعواماً عدّة في الفضاء، ويتساءلون: ما الوقود الّذي يُحرِّك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام؟ والواقع أنّه لا يوجد وقودٌ يحرّكها، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذْب، فإذا ما استقرّ القمر أو السّفينة الفضائيّة في منطقة عدم الجذب تدور وتتحرّك بنفسها من غير وقود، فهناك الشّيء المتحرّك يظلّ متحرّكاً، والسّاكن يظلّ ساكناً.

والحقّ ﷻ بهذا المثَل المشَاهَد يُحذِّرنا من إخلاف العهد ونقْضه؛ لأنّه ﷻ يريد أن يصونَ مصالح الخلق؛ لأنّها قائمةٌ على التّعاقد والتّعاهد والأيْمان الّتي تُبرَم بين النّاس، فَمَنْ خان العهد أو نقضَ الأيْمان لا يُوثَق فيه، ولا يُطْمَأنُّ إلى حركته في الحياة، ويُسقطه المجتمع من نظره، ويعزله عن حركة التّعامل الّتي تقوم على الثّقة المتبادلة بين النّاس.

﴿أَنكَٰثًا﴾: جمع نِكْث، وهو ما نُقِض وحُلَّ فَتْله من الغزل.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾: الدَّخَل: أنْ تُدخِلَ في الشّيء شيئاً

أدنى منه من جنسه على سبيل الغِشِّ والخداع، كأن تُدْخِل في الذّهب عيار (٢٤) قيراطاً مثلاً ذهباً من عيار (١٨) قيراطاً، أو كأن تُدخِلَ في اللّوز نَوى المشمش على أنّه منه، فكأنّ الأَيْمان القائمة على الصّدق والوفاء يُعطيها صاحبها وهو ينوي بها الخداع والغشّ، فيحلف لصاحبه وهو يقصد التّغرير به.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾: هذه هي العلّة في أنْ نتّخذَ الأَيْمان دَخَلاً فيما بيننا، الأَيْمان الزّائفة الخادعة؛ ذلك لأنّ الّذي باع نوى المشمش مثلاً على أنّه لوز، فقد أَرْبى؛ أي: أخذ أزيْد من حقّه وأنقص حَقَّ الآخرين، فالعلّة في الخداع بالأَيْمان الطّمع وطلب الزّيادة على حساب الآخرين، وقد تأتي الزّيادة بصورةٍ أخرى، كأن تُعاهِد شخصاً على شيءٍ ما، وقد أدَّيْتَ له بالعهود والأيْمان والمواثيق، ثمّ يجيء لك مَنْ هو أقوى منه، سواء كان بالقهر والسّلطان أم بالإغراء، فتنقض العهد الأوّل؛ لأنّ الثّاني أرْبى منه وأزيد، وفي مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حِذْره، فمَنْ يُدريك لعلّه يُفعل بك كما فعلت، ويُكال لك بالمكيال ذاته الّذي كِلْتَ به لغيرك، فاحذر إذا تجرّأتَ على خَلْق الله سبحانه وتعالى أن يُجرِّئَ الله سبحانه وتعالى عليك مَنْ يسقيك من الكأس ذاته، وإذا كان الإنسان صاحب حرفةٍ أو صناعةٍ، فعليه ألّا يَغُشَّ النّاس، ويتذكَّر أنّ له عندهم مصالح، وفي أيديهم له حرفٌ وصناعات، فإذا تجرَّأَ عليهم جرَّأهم الله سبحانه وتعالى عليه؛ لأنّه جل جلاله يقول: أنا القيُّوم؛ أي: القائم على أمركم، فناموا أنتم فأنا لا أنام، فهذه مسألةٌ يجب أن نلحظها جيّداً، فمَنْ تجرّأ على النّاس جرَّأهم الله عز وجل عليه، ومَنْ أخلص في عمله وأتقنه قذف الله سبحانه وتعالى في قلوب الخلق أنْ يُتقنوا له حاجته.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾: أي: يختبركم الله سبحانه وتعالى بهذا العهد، فهو سبحانه وتعالى يعلم ما

أنتم عليه ساعة أنْ عقدتم العهد، أَفِي نيّتكم الوفاء، أم في نيّتكم الغدر والخداع؟ وهَبْ أنّك تنوي الوفاء ثمّ عرضَ لك ما حال بينك وبينه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم حقائق الأمور ولا يخفى عليه شيءٌ، فالابتلاء هنا لا يعني النّكبة والبلاء، بل يعني مجرّد الاختبار، والنّكبة والبلاء على الّذي يفشل في الاختبار، فالعبرة هنا بالنّتيجة.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾: فيوم القيامة تجتمع الخصوم، وتتكشَّف الحقائق، ويأتي القضاء فيما اختُلِفَ فيه في الدّنيا، وهَبْ أنّ إنساناً عمَّى على قضاء الأرض في أشياء، نقول له: إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمّي على قضاء السّماء، وانتظر يوماً نجتمع ويحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه.

(الآية ٩٣) - ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾:

﴿وَلَوۡ﴾: لو: حرف امتناعٍ لامتناع؛ أي: امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشّرط، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: من الآية ٢٢]، فقد امتنع الفساد لامتناع تعدّد الآلهة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: فلو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجعلَ العالم كلّه أمةً واحدةً على الحقّ لا على الضّلال، أمّةً واحدةً في الإيمان والهداية، كما جعل الأجناس الأخرى أمّةً واحدةً في الانصياع لمرادات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منها؛ ذلك لأنّ أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يأتي إلى الحياة مخلوقة بالحقّ خَلْقاً تسخيريّاً، فلا يوجد جنسٌ من الأجناس يتأَبَّى عمّا قُصِد منه، لا الجماد ولا النّبات ولا الحيوان، هذه الأكوان كلّها تسير سَيْراً سليماً كما أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منها،

والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختلّ في الكون، ذلك لما له من حرّيّة الاختيار، يفعل أو لا يفعل، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحجّ: من الآية ١٨]، هكذا تسجد هذه المخلوقات كلّها لله ﷻ دون استثناء، إلّا في الإنسان فقال ﷻ: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، فلماذا حدث هذا الاختلاف عند النّاس؟ لأنّهم أصحاب الاختيار، فيستطيع الواحد منهم أن يفعلَ أو لا يفعل، فهل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ﷻ، أم أرادها الله ﷻ؟ قالوا: بأن الله ﷻ زاول قدرته المطلقة في خَلْق الأشياء المُسخّرة، بحيث لا يخرج شيءٌ عمّا أريد منه، وكان من الممكن أنْ يأتيَ الإنسان على هذه الصّورة من التّسخير، لكنّه في هذه الحالة لن يزيد شيئاً، ولن يضيف جديداً في الكون، أليستْ الملائكة قائمة على التّسخير، ووصفهم الله ﷻ بأنّهم: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]؟! فالتّسخير يُثبِت القدرة لله ﷻ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شيءٌ، لكنّ الاختيار يُثبت المحبوبيّة لله ﷻ، وهذا فَرْقٌ يجب أنْ نتدبّره، فكأنّ الحقّ ﷻ خلق الإنسان وكرّمه بأنْ جعلَه مختاراً في أنْ يطيعَ أو أنْ يعصيَ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً، وهو قادرٌ على المعصية، فقد أثبتَ المحبوبيّة لربّه ﷻ، ولا بُدَّ أنْ تتوفّرَ للاختيار شروطٌ، أوّلها العقل، فهو آلة الاختيار، كذلك لا يُكلّف المجنون، فإذا توفّر العقل فلا بُدَّ له من النُّضْج والبلوغ، ويتمّ ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مِثْله، وأصبحتْ له ذاتيّة مولّدة، وهذه سِمَة اكتمال الذّات؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التّكوين،

وليس أَهْلاً للتّكليف، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذّات، فلا بُدَّ له أن يكون مختاراً غَيْرَ مُكْرهٍ، فإنْ أُكْرِه على الشّيء فلن يُسأَل عنه، فإنِ اختلَّ شَرْطٌ من هذه الثّلاثة فلا معنى للاختيار، وبذلك يضمن الحقّ ﷻ للإنسان السّلامة في الاختيار، والله ﷻ وإن كرَّم الإنسان بالاختيار، فمن رحمته به أنْ يجعلَ فيه بعض الأعضاء اضطراريّة مُسخّرة لا دَخْلَ له فيها، ولو تأمّلنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهريّة، وتتوقّف عليها حياة الإنسان، فكان من رحمة الله جلَّ وعَلا بنا أنْ جعل هذه الأعضاء تعمل وتُؤدِّي وظيفتها دون أنْ نشعرَ، فالقلب مثلاً يعمل بانتظامٍ في اليقظة والمنام دون أن نشعرَ به، وكذلك التّنفّس والكُلَى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته ﷻ مُسخّرةً، كالجماد والنّبات والحيوان، ومن لُطْفِ الله ﷻ بخَلْقه أنْ جعلَ هذه الأعضاء مُسخّرة؛ لأنّه لو كان الإنسان مختاراً في عمل هذه الأعضاء، فكيف سيتنفّس مثلاً وهو نائمٌ؟! فمن رحمة الله ﷻ أنْ جعل الإنسان مختاراً في الأعمال الّتي تعرِضُ له، ويحتاج فيها إلى النّظر في البدائل، ولذلك يقولون: الإنسان أبو البدائل، فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديْه هذه البدائل ولا يعرفها، فإذا آذيتَ حيواناً فإنّه يُؤذيك، وليس لديه بديلٌ آخر، ولكن إذا آذيْت إنساناً، فيحتمل أن يردّ عليك بالمثل، أو بأكثر ممّا فعلتَ، أو أقلّ، أو يعفو ويصفح، والعقل هو الّذي يُرجّح أحد هذه البدائل، فلو شاء الله ﷻ أن يجعل النّاس أمّةً واحدةً لجعلها، كما قال ﷻ: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ [الرّعد: من الآية ٣١]، ولكنّه ﷻ لم يشأْ ذلك، بدليل قوله ﷻ:

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾: وهذه الآية يقف عندها

المتمحِّكون، والّذين قَصُرَتْ أنظارهم في فهْم كتاب الله ﷻ، فيقولون: بما أنّ الله ﷻ هو الّذي يضِلّ النّاس، فلماذا يُعذِّبهم؟! ونتعجَّب من هذا الفهم المبتور لكتاب الله ﷻ، ونقول لهؤلاء: لماذا أخذتُمْ جانب الضّلال وتركتُم جانب الهدى؟ لماذا لم تقولوا: بما أنّ الله ﷻ بيده الهداية، وهو الّذي يهدي، فلماذا يُدخِلنا الجنّة؟ فهذه كلمةٌ يقولها المسرفون؛ لأنّ معنى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يحكم على هذا من خلال عمله بالضّلال، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان، فلا نقول: اللّجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً، فليست هذه مهمّتها، بل مهمّتها أن تنظر أوراق الإجابة، ومن خلالها تحكم اللّجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك، وكذلك الله ﷻ لا يجعل العبد ضالّاً، بل يحكم على عمله أنّه ضلال وأنّه ضَالّ، فالمعنى: يحكم بضلال مَنْ يشاء، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء، وليس لأحدٍ أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم، بدليل قوله ﷻ بعدها:

﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: فالعبد لا يُسأل إلّا عَمَّا عملتْ يداه، والسّؤال هنا معناه حرّيّة الاختيار في العمل، وكيف تسأل عن شيءٍ لا دَخْل لك فيه؟ فلنفهم عن الله ﷻ مُرَادَهُ من الآية.

(الآية ٩٤) - ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾: وردتْ كلمة (الدّخَل) في الآية قبل

السّابقة، وقلنا: إنّ معناها: أن تُدخِلَ في الشّيء شيئاً أدْنى منه من جنسه على سبيل الغشِّ والخداع، وإن كان المعنى واحداً في الآيتين فإنّ الآية السّابقة جاءت لتوضيح سبب الدَّخَل وعلّته، وهي أن تكون أُمّة أَرْبى من أمّة، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر، أمّا في هذه الآية فجاءت لتوضيح النّتيجة من وجود الدَّخَل، وهي:

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾: ففي الآية نَهْيٌ عن اتّخاذ الأَيْمان للغشّ والخداع والتّدليس؛ لأنّ نتيجة هذا الفعل فسادٌ يأتي على المجتمع من أساسه، وفَقْدان للثّقة المتبادلة بين النّاس الّتي يقوم عليها التّعامل، وتُبنَى حركة الحياة، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾، وبذلك يسقط حقُّه مع المجتمع، ويحيق به سوء فِعْله، ويجني بيده ثمار ما أفسده في المجتمع، وبانتشار هذا الخلُق السّيئ تتعطّل حركة الحياة، وتضيع الثّقة والأمانة، فهذه زَلَّة وكَبْوة بعد ثباتٍ وقوّة، بعد أنْ كان أَهْلاً للثّقة صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقبِل عليه النّاس، ويُحبُّون التّعامل معه بما لديْه من شرف الكلمة وصِدْق الوعد، فإذا به يتراجع للوراء، ويتقهقر للخلف، ويفقد هذه المكانة، ولذلك نجد أهل المال والتّجارة يقولون: فلانٌ اهتزَّ مركزه في السّوق؛ أي: زَلَّتْ قدمه بما حدث منه من نقْضٍ للعهود، وحِنْثٍ في الأيمان، وغير ذلك ممّا لا يليق بأهل الثّقة في السّوق، أمّا الوفاء بالعهود والمواثيق والأَيْمان فيجعل قدم الإنسان في حركة الحياة ثابتةً لا تتزحزح ولا تهتزّ.

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: السّوء: أي: العذاب الّذي يسُوء صاحبه في الدّنيا من مهانةٍ واحتقارٍ بين النّاس، وكسَادٍ في الحال، بعد أنْ سقط من نظر المجتمع،

وهدم جِسْر الثّقة بينه وبين مجتمعه.

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الحديث هنا عن الّذين ينقضون العهود والأَيْمان ولا يُوفُونَ بها، فهل في هذا صَدٌّ عن سبيل الله؟

نقول: أوّلاً إنّ معنى سبيل الله ﷻ: كلّ شيءٍ يجعل حركة الحياة منتظمة تُدَار بشرفٍ وأمانةٍ وصِدْقٍ ونفاذ عهدٍ، ومن هنا، فالّذي يُخلف العهد، ولا يفي بالمواثيق يعطي للمجتمع قدوةً سيّئةً تجعل صاحب المال يضنُّ بماله، وصاحب المعروف يتراجع، فلو أقرضتَ إنساناً وغدرَ بكَ فلا أظنُّك مُقرِضاً لآخر، فلا شَكَّ أنّ في هذا صدّاً عن سبيل الله ﷻ، وتزهيداً للنّاس في فعْل الخير.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة في الدّنيا، وبعد أنْ زَلَّتْ بهم القدم، ونزل بهم من عذاب الدّنيا ألوانٌ ما زال ينتظرهم عذابٌ عظيمٌ؛ أي: في الآخرة.

(الآية ٩٥) - ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥﴾:

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾: الحقّ ﷻ في هذه الآية ينهانا ويُحذِّرنا: إيّاك أنْ تجعلَ عهد الله ﷻ الّذي أكّدته للنّاس، وجعلت الله ﷻ عليه كفيلاً، عرضةً للنّقض، فبعد أن كنت حُرّاً في أن تعاهد أو لا تعاهد، بمجرّد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك.

أو أنّ المراد بعهد الله ﷻ؛ أي: شرعه الّذي تعاهدتَ على العمل به والحفاظ عليه، وهو العهد الإيمانيّ الأعلى، وهو أن تؤمنَ بالله ﷻ وبصدق

الرّسول ﷺ في البلاغ عن الله ﷻ، وتلتزم بكلّ ما جاء به الرّسول ﷺ من أحكامٍ، إيّاك أنْ تقابله بشيءٍ آخر تجعله أغْلى منه؛ لأنّك إنْ نقضْتَ عهد الله ﷻ لشيءٍ آخر من متاع الدّنيا الزّائل فقد جعلتَ هذا الشّيء أغلى من عهد الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ الثّمن مهما كان سيكون قليلاً.

ثمّ يأتي تعليل ذلك في قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: فالخير في الحقيقة ليس في متاع الدّنيا مهما كثُر، بل فيما عند الله سبحانه وتعالى، وقد أوضح ذلك في قوله جل جلاله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النّحل: من الآية ٩٦]، ولنا وقفةٌ مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، فهذا أسلوب توكيدٍ بالقصر بإعادة الضّمير (هو)، فلم يَقُلِ الحقّ سبحانه وتعالى: (إنّما عند الله خيرٌ لكم)، فيحتمل أنّ ما عند غيره أيضاً خيْرٌ لكم، أمّا في تعبير القرآن الكريم: ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ أي: الخير فيما عند الله سبحانه وتعالى على سبيل القَصْر، كما في قوله جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشّعراء]، فجاء بالضّمير (هو) ليؤكّد أنّ الشّافي هو الله سبحانه وتعالى لوجود مَظنّة أن يكون الشّفاء من الطّبيب أو الدّواء، أمّا في الأشياء الّتي لا يُظَنّ فيها المشاركة فتأتي دون هذا التّوكيد بـ (هو) كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾ [الشّعراء]، فلم يقل: (هو يميتني هو يُحيين)؛ لأنّه لا يُميت ولا يُحيي إلّا الله سبحانه وتعالى، فلا حاجةَ للتّوكيد هنا.

فما الّذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد؟ الّذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد أنْ يرى مصلحةً سطحيّةً فوق ما تعاقد عليه تجعله يخرج عمّا تعاهد عليه إلى هذه السّطحيّة، ولكنّه لو عقل وتدبَّر الأمر لعلم أنّ ما يسعى

إليه ثمنٌ بَخْسٌ، ومكسبٌ قليلٌ زائلٌ إذا ما قارنه بما ادُّخِر له في حالة الوفاء؛ لأنّ ما أخذه حظّاً من دنياه لا بُدّ له من زوال، والعقل يقول: إنّ الشّيء، إذا كان قليلاً باقياً يفضل الكثير الّذي لا يبقى، فما بالنا إذا كان القليل هو الّذي يفنى، والكثير هو الّذي يبقى؟!

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: في الآية دِقَّة الحساب، ودِقَّة المقارنة، ودِقَّة حَلِّ المعادلات الاقتصاديّة، وأقف هنا عند النّبيّ ﷺ، عندما أُهدِيَ إليه شاةً فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنّهم ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا»؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا، قَالَ ﷺ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»[1]، فعلّمنا النّبيّ ﷺ أن ننظر إلى الباقي الحقيقيّ، وليس إلى الباقي الشّكليّ، فالباقي الحقيقيّ هو ما يبقى في ميزان الآخرة.

(الآية ٩٦) - ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾:

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾: يُوضِّح المولى سبحانه وتعالى أنّ حظَّ الإنسان من دُنْياه عَرَضٌ زائلٌ، فإمَّا أن تفوته بالموت، أو يفوتك هو بما يجري عليك من أحداث، أمّا ما عند الله سبحانه وتعالى فهو بَاقٍ لا نفاد له.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾: كلمة: ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ تدلُّ على أنّ الإنسان سيتعرّض لِهزّاتٍ نفسيّةٍ نتيجة ما يقع فيه من التّردّد بين الوفاء بالعهد أو نَقْضه، حينما يلوح له بريق المال وتتحرَّك بين جنباته شهوات النّفس، فيقول له الحقّ

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع، باب ٣٣، الحديث رقم (٢٤٧٠).

تبارك وتعالى: اصبر، لا تكُنْ عَجُولاً، وقارن المسائل مقارنةً هادئةً، وتحمَّل كلّ مشقّةٍ نفسيّةٍ، وتغلّب على شهوة النّفس؛ لتصل إلى النّتيجة المحمودة.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾: أي: على مشقّات الوفاء بالعهود.

﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: أي: أجراً بالزّيادة في الجزاء على أحسن ما يكون؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً فله الجزاء، أمّا المباح فالمفروض ألّا جزاء له، ولكنّ فضل الله ﷻ يجزي عليه أيضاً.

(الآية ٩٧) - ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: الحقّ ﷻ يُعطينا قضيّةً عامّةً، هي قضيّة المساواة بين الرّجل والمرأة، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرّجال، وليس للمرأة تدخُّلٌ في إعطاء العهود، حتّى إنّها لمّا دخلتْ في عهدٍ مع النّبيّ ﷺ يوم بيعة العقبة جعل واحداً من الصّحابة يُبايع النّساء نيابةً عنه، فالمرأة بعيدةٌ عن هذا المعترَك؛ لأنّ هذا من خصائص الرّجال عادةً، فأراد الله ﷻ أن يقول لنا: نحن لا نمنع أن يكونَ للأنثى عملٌ صالحٌ، ولا تظنّوا أنّ المسألة منسحبةٌ على الرّجال دون النّساء، فالعمل الصّالح مقبولٌ من الذّكر والأنثى على حدٍّ سواء، شريطة أنْ يتوفَّر له الإيمان، ولذلك يقول ﷻ:

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: وبذلك يكون العمل له جَدْوى ويكون مقبولاً عند الله تبارك وتعالى، والله ﷻ يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

﴿ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة]، وهذا خاصٌّ بأمور الدّنيا، فالّذي يحسن شيئاً ينال ثمرته، لكن في جزاء الآخرة نقول لهؤلاء: لا حَظَّ لكم اليوم، خذوا أجركم مِمَّنْ عملتُم له، فقد عملتُم الخير للإنسانيّة، للشّهرة وخلود الذّكْر، وقد أخذتم ذلك في الدّنيا، فقد خَلَّدوا ذِكْراكم، ورفعوا شأنكم، ولم يبخسوكم حَقَّكم في الشُّهْرة والتّكريم، فالإيمان شَرْطٌ لقبول العمل الصّالح، فإذا ما توفّر الإيمان فقد استوى الذّكَر والأنثى في الثّواب والجزاء.

﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾: هذه هي النّتيجة الطّبيعيّة للعمل الصّالح الّذي يبتغي صاحبه وجه الله سبحانه وتعالى والدّار الآخرة، فيجمع الله عز وجل له حظّين من الجزاء، حظّاً في الدّنيا بالحياة الطّيّبة الهانئة، وحظّاً في الآخرة، والحياة الطّيّبة لا تُقاس بالأشكال ولا بالأموال، وإنّما تُقاس بالرّضى، فقد تعيش حياةً طيّبةً وأنت أفقر النّاس، وقد يكون أغنى النّاس في حياةٍ غير طيّبة؛ لأنّه غير راضٍ، دائماً يطمع، ويخاف من زوال النّعمة.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: الجزاء على العمل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النّجم].

(الآية ٩٨) - ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾:

﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾: الاستعاذة: اللّجوء والاعتصام بالله سبحانه وتعالى من شيءٍ تخافُه، فأنت لا تلجأ ولا تعتصم، ولا تستجير ولا تستنجد إلّا إذا

استشعرتَ في نفسك أنّك ضعيفٌ عن مقاومة عدوّك، فإذا كان عدوّك الشّيطان بما جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له من قوّةٍ وسلطانٍ، وما له من مداخل للنّفس البشريّة فلا حَوْلَ لك ولا قُوّة في مقاومته إلّا أنْ تلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القويّ الّذي خلقك وخلق هذا الشّيطان، وهو القادر وحده على رَدّه عنك؛ لأنّ الشّيطان في معركةٍ مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة، وقد أقسم الشّيطان للحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص]، فما عليك إلّا أن تكون من هؤلاء، ما عليك إلّا أنْ ترتمي في حضن ربّك عَزَّوَجَلَّ وتعتصم به، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القويّ القادر على أنْ يدفعَ عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك، فلا تُقاوم الشّيطان بقوّتك أنت؛ لأنّه لا طاقة لك به، ولا تدعه ينفرد بك؛ لأنّه إن انفرد بك وأبعدك عن الله عَزَّوَجَلَّ فسوف تكون له الغلبة، ولذلك نقول دائماً: لا حَوْلَ ولا قوّةَ إلّا بالله؛ أي: لا حول: لا تحوُّل عن المعصية، ولا قوّة؛ أي: على الطّاعة إلّا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي مقام الاستعاذة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نذكر قاعدةً إيمانيّةً علّمنا إيّاها الرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثه الشّريف: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ»(١)، فيلزم المؤمن أنْ يُعيذ من استعاذ بالله عَزَّوَجَلَّ، وإنْ كان في أحبّ الأشياءِ إليه، والرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لنا القدوة في ذلك، وفي الآية الكريمة أسلوب شرطٍ، اقترن جوابه بالفاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾، فإذا رأينا الفاء فلنعلم أنّ ما بعدها مترتّبٌ على ما قبلها، كما لو

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحديث رقم (٢٢٤٧).

قُلْتَ: إذا قابلتَ محمّداً فقُلْ له: كذا، فلا يتمّ القول إلّا بعد المقابلة، أمّا في الآية الكريمة فالمراد: إذا أردت قراءة القرآن الكريم فاستعِذْ؛ لأنّ الاستعاذة هنا تكون سابقةً على القراءة، كما جاء في قَول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: من الآية ٦]، فالمعنى: إذا أردتُمْ إقامة الصّلاة فاغسلوا وجوهكم، وكذلك هنا إذا أردتَ قراءة القرآن الكريم فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم؛ لأنّ القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، ولو آمنّا أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الّذي يتكلّم لعلمنا أنّ قراءة القرآن الكريم تختلف عن أيّ قراءةٍ أخرى، فأنت كي تقرأ القرآن الكريم تقوم بعمليّات متعدّدة بعد الطّهارة والوضوء وستر العورة.. إلخ:

أوّلها: استحضار قداسة المُنْزِل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الّذي آمنتَ به وأقبلتَ على كلامه.

ثانيها: استحضار صدق الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بلاغ القرآن الكريم المنزَّل عليه.

ثالثها: استحضار عظمة القرآن الكريم، بما فيه من أوجه الإعجاز، وما يحويه من الأحكام والآداب.

فلا بدّ لنا من ثلاث عمليّات نستعد بها لقراءة كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قرآنه الكريم، وكلٍّ منها عملٌ صالحٌ لن يدعنا الشّيطانُ نؤدّيه دون أنْ يتعرَّض لنا، ويُوسوس لنا، ويصرفنا عمّا نحن مُقبِلون عليه، وساعتها لن نستطيع منعه إلّا إذا استعنّا عليه بالله عَزَّ وَجَلَّ، واستعذنا منه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبذلك نكون في معيّة الله جَلَّ جَلَالُهُ منزِّل القرآن الكريم، وفي رحاب عظمة المنزَّل عليه محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدقاً، ومع استقبال ما في القرآن الكريم من إعجاز وأحكام وآداب، ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الشّيطان قبل قراءة القرآن الكريم.

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: أي: الملعون المطرود من رحمة الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ الشّيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أنْ نُجرّبه لنعرف طبيعته وكيفيّة التّعامل معه، بل له معنا سوابق عداء منذ أبينا آدم عليه السلام، وقد حذّر الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام منه فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ [طه: من الآية ١١٧]، وسبق أنْ رُجم ولُعِن وأُبعِد من رحمة الله عز وجل، فقد هدّدنا بقوله: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: من الآية ٦٢]، فهناك عداوةٌ مسبقةٌ بيننا وبينه منذ خُلِق الإنسان، وإلى قيام السّاعة.

(الآية ٩٩) - ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾:

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾: لحكمة أرادها الخالق سبحانه وتعالى أنْ جعل للشّيطان سلطاناً معيَّناً، والسّلطان، إمّا سلطان حجّة تقنعك بالفعل، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به، وإمّا سلطان قَهْرٍ وغلبة يُجبرك على الفعل، ويحملك عليه قَهْراً دون اقتناع به، فتنفيذ المطلوب له قوّتان: قوّة الحجّة الّتي تُضيء لنا وتُوضّح أمامنا معالم الحقّ، وقوّة القهر الّتي تُجبرنا على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناعٍ وإنْ لم نرهَا، والحقيقة أنّ الشّيطان لا يملك أيّاً من هاتين القوّتين، لا قوّة الحجّة والإقناع، ولا قوّة القهر، وهذا واضحٌ في قول الحقّ سبحانه وتعالى يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم]، هذا حوارٌ يدور يوم القيامة بعد أن انتهتْ المسألة

وتكشّفتْ الحقيقة، وجاء وقت المصارحة والمواجهة، يقول الشّيطان لأوليائه مُتنصِّلاً من المسؤوليّة: ما كان عندي من سلطانٍ عليكم، لا سلطان حجّة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضىً، ولا سلطان قَهْرٍ أُجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فأتيتموني طائعين: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، يُوضّح الله سبحانه وتعالى أنّ تسلّط الشّيطان لا يقع على مَنْ آمن به ربّاً، ولجأ إليه واعتصم به، وما دُمْتَ آمنتَ بالله سبحانه وتعالى فأنت في مَعيّته وحِفْظه، ولا يستطيع الشّيطان -وهو مخلوقٌ لله سبحانه وتعالى- أنْ يتسلّط عليك أو أن يغلبك، فالحصن الّذي يقينا كيْدَ الشّيطان هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتّوكّل عليه عزّ وجلّ، فعلى مَنْ يتسلّط الشّيطان؟ يُوضِّح الحقّ سبحانه وتعالى الجانب المقابل، فيقول:

(الآية ١٠٠) - ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾:

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾: معنى: ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾: أي: يتّخذونه وَليّاً يطيعون أوامره، ويخضعون لوسوسته، ويتّبعون خطواته: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾؛ أي: مشركون بالله سبحانه وتعالى، أو يكون المعنى: وهُمْ به؛ أي: بسببه أشركوا؛ لأنّه أصبح له أوامر ونواه وهم يطيعونه، فكأنّهم عبدوه من دون الله سبحانه وتعالى بما قدّموه من طاعته في أمره ونَهْيه، وقد سَمَّى الله سبحانه وتعالى طريقة الشّيطان في الإضلال والغواية وَسْوسةً، والوسوسة في الحقيقة هي صَوْت الحُليّ حينما يتحرّك في أيدي النّساء، فيُحدِث صوتاً رقيقاً فيه جاذبيّة وإغراء تهيج له النّفس، وكذلك الشّيطان يدخل إلى الإنسان عن طريق الإغراء والتّزيين، فإذا

حدّثتْك نفسك بالمعصية تركك لها، فعند هذه النّقطة تنتهي مُهمّته، ولكن هل النّفس لا تفعل المعصية إلّا بوسوسة الشّيطان؟ لا، فالنّفس الأمّارة بالسّوء قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشّيطان، وقد يُوسْوِسُ الشّيطان لها، وينزغها نَزغاً ويُؤلِّبها، ويُزّين لها معصية ما كانت على بالها، فكيف نُفرّق بين هاتين المعصيتين؟ النّفس حينما ترغب في معصيةٍ أو شهوةٍ تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها، وإذا قاومتَ نفسك، وحاولتَ صَرْفها عن هذه الشّهوة ألحَّتْ عليك بها، وطلبتها بعينها، فشهوة النّفس ثابتة؛ لأنّها تشتهي شيئاً واحداً تُلحّ عليه، ولكن حينما يُوسوِسُ الشّيطان لك بشهوةٍ فيجد منك مقاومةً وقدرةً على مجابهته يصرف نظرك إلى أخرى؛ لأنّه يريدك عاصياً بأيّ شكلٍ من الأشكال، فتراه يُزِيّن لك معصيةً أخرى وأخرى، إلى أنْ ينال منك ما يريد، ومن ذلك ما نراه في الرّشوة مثلاً، فإنْ رفضتَ رشوة المال زيَّن لك رشوة الهديّة، وإنْ رفضتَ رشوة الهديّة زيَّنَ لك الرّشوة بقضاء مصلحة مقابلة، وهكذا يظلّ هذا اللّعين وراءك حتّى يصل إلى نقطة ضَعْف فيك، فهو ليس كالنّفس يقف بك عند شهوةٍ واحدةٍ، ولكنّه يريد أن يُوقِع بك على أيّ صورةٍ من الصّور، ولكي نقفَ على مداخل الشّيطان ونكون منه على حَذر يجب أنْ نعلم أنّ الشّيطان على علمٍ كبيرٍ وصل به إلى صفوف الملائكة، بل سَمَّوه (طاووس الملائكة)، ويمكن أن نقف على شيءٍ من علم الشّيطان في دِقّة قَسَمه، حينما أقسم للحقّ ﷻ أن يُغوي بني آدم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص]، هكذا عرف الشّيطان أنْ يُقسِم القسَم المناسب، فلم يَقُلْ: بقوّتي ولا بحجّتي سأغوي الخَلْق، بل عرف لله ﷻ

صفة العزّة، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عزيزٌ لا يُغلب؛ لذلك ترك لخَلْقه حرّيّة الإيمان به والاختيار، فقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، فالمعنى: فبعزّتك عن خَلْقك: يؤمن مَنْ يؤمن، ويكفر مَنْ يكفر، سوف أدخل من هذا الباب لإغواء البشر، ولكنّي لا أجرؤ على الاقتراب ممَّنْ اخترتَهم واصطفيتَهم، لن أتعرَّضَ لعبادك المخلصين، ولا دَخْلَ لي بهم، ولا سلطان لي عليهم، كذلك يجب أن نعلم أنّ الشّيطان دقيقٌ في تخطيطه، وهذا من مداخله وتلبيسه الّذي يدعونا إلى الحذر من هذا اللّعين، فالشّيطان لا حاجة له في أن يذهب إلى الأماكن السّيّئة، فقد كفاه أهلُها مشقّة الوَسْوسة، ووفّروا عليه المجهود، هؤلاء هم أولياؤه وأحبابه بما هم عليه من معصية الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكنّه في حاجة إلى أن يكون في المساجد ليُفسِد على أهل الطّاعة طاعتهم: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: من الآية ١٦]، وقد أوضح هذه القضيّة الإمام الجليل أبو حنيفة النّعمان، وكان مشهوراً بالفِطْنة، وعلى درايةٍ بمداخل الشّيطان وتلبيسه، وهذا كلّه جعل له باعاً طويلاً في الإفتاء، وقد عرض عليه أحدهم هذه المسألة: قال: يا إمام، كان لديّ مالٌ دفنته في مكان كذا، وجعلتُ عليه علامةً، فجاء السَّيْل وطمس هذه العلامة، فلم أَهتدِ إليه، فماذا أفعل؟ فتبسَّم أبو حنيفة وقال: يا بُنيّ، ليس في هذا علمٌ، ففي أيّ بابٍ من أبواب الفقه سيجد أبو حنيفة هذه القضيّة؟! ولكنّي سأحتال لك، وفعلاً تفتّقتْ قريحة الإمام عن هذه الحيلة الّتي تدلّ على عِلْمه وفقهه، قال له: إذا جئتَ في اللّيل فتوضّأ، وقُمْ بين يدي ربّك مُتهجِّداً، وفي الصّباح أخبرني خبرك، وفي صلاة الفجر قابله الرّجل مُبتسِماً، يقول: لقد وجدتُ المال، فقال: كيف؟ قال الرّجل: حينما وقفتُ بين

يديْ ربّي في الصّلاة تذكّرت المكان وذهبتُ فوجدت مالي، فضحك الإمام وقال: والله لقد علمتُ أنّ الشّيطانَ لن يدعَك تُتِمّ ليلتك مع ربّك.

(الآية ١٠١) - ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: قوله سُبحانه وتعالى: ﴿بَدَّلْنَآ﴾، ومنها: أبدلت واستبدلْتُ؛ أي: رفعتُ آية وطرحتُها، وجئت بأخرى بدلاً منها، وقد تدخل الباء على الشّيء المتروك، كما في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: من الآية ٦١]؛ أي: تتركون ما هو خير، وتستبدلون به ما هو أدنى.

﴿ءَايَةً﴾: ما معنى الآية؟ كلمة: ﴿ءَايَةً﴾ لها مَعَانٍ متعدّدة منها:

١- الشّيء العجيب الّذي يُلفت الأنظار، ويُبهر العقول، كما نقول: هذا آيةٌ في الجمال، أو في الشّجاعة، أو في الذّكاء؛ أي: وصل فيه إلى حَدٍّ يدعو إلى التّعجُّب والانبهار.

٢- ومنها الآيات الكونيّة، حينما نتأمّل في كون الله سُبحانه وتعالى من حولنا نجد آياتٍ تدلُّ على إبداع الخالق سُبحانه وتعالى وعجيب صنعته، ونجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونيّة، يقول سُبحانه وتعالى عن هذا النّوع من الآيات: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصّلت: من الآية ٣٧]، وقال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ٣٢﴾ [الشّورى]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]، ونلاحظ أنّ هذه الآيات الكونيّة ثابتةٌ دائمة لا تتبّدل، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣﴾ [الفتح: من الآية ٢٣].

٣- ومن معاني الآية: المعجزة، وهي الأمر العجيب الخارق للعادة، ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١٥٤﴾ [الشّعراء: من الآية ١٥٤]، وتأتي المعجزة على أيدي الأنبياء -عليهم السّلام- لتكون حُجّة لهم، ودليلاً على صدق ما جاؤوا به من عند الله ﷻ، ونلاحظ في هذا النّوع من الآيات أنّه يتبدّل ويتغيّر من نبيٍّ لآخر؛ لأنّ المعجزة لا يكون لها أثرها إلّا إذا كان في شيءٍ نبغ فيه القوم؛ لأنّ هذا هو مجال الإعجاز، فلو أتيناهم بمعجزةٍ في مجالٍ لا عِلْمَ لهم به، لقالوا: لو أنّ لنا عِلْماً بهذا لأتيْنا بمثله؛ لذلك تأتي المعجزة فيما نبغُوا فيه، وعَلِموه جيّداً حتّى اشتهروا به، فلمّا نبغَ قوم موسى ﷺ في السّحر كانت معجزته من نوع السّحر الّذي يتحدّى سحرهم، فلمّا جاء عيسى ﷺ ونبغ قومه في الطّبّ والحكمة كانت معجزته من النّوع نفسه، فكان ﷺ يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ﷻ، فلمّا بُعِث سيّدنا محمّد ﷺ، ونبغ قومه في البلاغة والفصاحة والبيان، وكانوا يقيمون لها الأسواق، ويُعلّقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازاً بها، فكان لا بُدَّ أنْ يتحدّاهم بمعجزةٍ من جنس ما نبغوا فيه وهي القرآن الكريم، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كُلٌّ منها حال القوم، وتتحدّاهم بما اشتهروا به، لتكون أَدْعى للتّصديق، وأثبت للحجّة.

٤- ومن معاني كلمة: ﴿ءَايَةً﴾: آيات القرآن الكريم الّتي نُسمّيها حاملة الأحكام، قال سبحانه وتعالى: ﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَـٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [فصّلت: من الآية ٣]، فإذا كانت الآية هي الأمر العجيب، فما وجه العجب في آيات القرآن الكريم؟ وهذا النّوع الأخير من الآيات، الّتي هي آيات الكتاب الكريم، والّتي نُسمّيها حاملة الأحكام، هل تتبدّل هي الأخرى كسابقتها؟ نقول: آيات القرآن الكريم

لا تتبدّل؛ لأنّ أحكام الله سبحانه وتعالى المطلوبة مِمَّن عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأحكام المطلوبة مِمَّنْ تقوم عليه السّاعة، وقد سُبق الإسلام باليهوديّة والنّصرانيّة، فعندما أُمِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأمرِ الله سبحانه وتعالى، وهو تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، اعترض على ذلك اليهود، وقالوا: ما بال محمّد لا يثبتُ على حالٍ، فيأمر بالشّيء اليوم، ويأمر بخلافه غداً؟! فإنْ كانت القبلة الصّحيحة هي الكعبة فصلاتكم لبيت المقدس باطلةٌ، وإنْ كان بيت المقدس هو الصّحيح، فصلاتكم للكعبة باطلةٌ، لذلك نزلت هذه الآية، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، فالمراد بقوله الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: أي: جِئْنا بآيةٍ تدلُّ على حكمٍ يخالف ما جاء في التّوراة، فقد كان استقبال الكعبة في القرآن الكريم بدل استقبال بيت المقدس في التّوراة.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾: أي: يُنزِّل كلّ آيةٍ حَسْب ظروفها: أمّةً وبيئةً ومكاناً وزماناً.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾: أي: اتّهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب المتعمّد، وأنّ هذا التّحويل من عنده صلى الله عليه وسلم؛ لأنّه يريد مكّة، وليس وَحْياً من الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض، ونقول: نعم، أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض في الدّين الواحد، أمّا إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام؛ أي: التّشريعات وليس العقائد، فالعقيدة واحدةٌ في الرّسالات كلّها، قال سبحانه وتعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ

وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فآيات القرآن الكريم لا تتبدّل، ولكن يحدث فيها نَسْخٌ، كما قال ﷻ: ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٠٦]، وإليكم أمثلة للنّسْخ في القرآن الكريم:

- حينما قال الله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التّغابن: من الآية ١٦]، جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل، فالمشرّع ﷻ حين يرى أنّ الاستطاعةَ لا تكفي يُخفّف عنَّا الحكم، حتّى لا يُكلِّفنا فوق طاقتنا، كما في صيام المريض والمسافر مثلاً، وقد قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، وقال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطّلاق: من الآية ٧]، فليس لنا بعد ذلك أنْ نلويَ الآيات ونقول: إنّ الحكم الفلانيّ لم تَعُدْ النّفس تُطيقه ولم يَعُد في وُسْعنا، فالحقّ ﷻ هو الّذي يعلم الوُسْع ويُكلّف على قَدْره، فإنْ كان قد كلّف ﷻ فقد علم الوُسْع، بدليل أنّه ﷻ إذا وجد مشقّةً خفَّف عنكم من تلقاءِ نفسه ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٦]، ففي بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوّتهم، قال ﷻ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٥]؛ أي: نسبة واحد إلى عشرة، وحينما علم الحقّ ﷻ فيهم ضَعْفاً، قال: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٦]؛ أي: نسبة واحد إلى اثنين، فالله ﷻ هو الّذي يعلم حقيقة وُسْعنا، ويُكلِّفنا بما نُطيق، ويُخفِّف عَنَّا عند الحاجة إلى التّخفيف، فلا يصحّ أنْ نُقحِم أنفسنا في هذه القضيّة، ونُقدّر نحن الوُسْع بأهوائنا.

- ومن أمثلة النّسخ أنّ العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أنّ الوالد مُنْتهٍ ذاهب، ويجعلون الحظّ كلّه للأبناء على اعتبار أنّهم المقبلون على الحياة، وحينما أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصيةً، فقال جلّ جلاله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٠]، فلمّا استقرّ الإيمان في النّفوس جعلها ميراثاً ثابتاً، وغَيَّر الحكم من الوصية إلى خيرٍ منها وهو الميراث، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النّساء: من الآية ١١]، فالحقّ سبحانه وتعالى حينما يُغيّر آيةً ينسخها بأفضل منها، وهذا واضحٌ في تحريم الخمر مثلاً، حيث نرى هذا التّدريج المحكم الّذي يراعي طبيعة النّفوس البشريّة، وأنّ هذا الأمر من العادات الّتي تمكّنَتْ من النّفوس في شبه الجزيرة العربيّة، ولا بُدَّ لها من هذا التّدرُّج، فهذا ليس أمراً عَقَديّاً يحتاج إلى حُكْمٍ قاطعٍ لا جدال فيه، فانظر إلى هذا التّدرّج في تحريم الخمر: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النّحل: من الآية ٦٧]، أهل التّذوّق والفهم عن الله سبحانه وتعالى حينما سمعوا هذه الآية قالوا: لقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أمراً يتعلّق بالخمر في هذه الآية لا بدّ أنّه آتٍ؛ ذلك لأنّه وصف الرّزق بأنّه حَسَن، وسكت عن السَّكَر فلم يصفه بالحُسْن، فدلَّ ذلك على أنّ الخمر سيأتي فيه كلامٌ فيما بعد، وحينما سُئِل النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن الخمر رَدَّ القرآن الكريم عليهم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: من الآية ٢١٩]، جاء هذا على سبيل النّصح والإرشاد، لا على سبيل الحكم والتّشريع، فعلى كلّ مؤمنٍ يثق بكلام ربّه عزّ وجلّ أن يرى له مَخْرجاً من أَسْرْ هذه العادة السّيّئة، ثمّ لُوحِظ أنّ بعض النّاس يُصلّي وهو مخمورٌ، حتّى

قال بعضهم في صلاته: (أعبد ما تعبدون)، فجاء الحكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النّساء: من الآية ٤٣]، ومُقتضى هذا الحكم أنْ يصرفهم عن الخمر معظم الوقت، فلا تتأتّى لهم الصّلاة دون سُكْرٍ إلّا إذا امتنعوا عنها قبل الصّلاة بوقتٍ كافٍ، وهكذا عوَّدهم على تركها معظم الوقت، كما يحدث الآن مع الطّبيب الّذي يعالج مريضه من التّدخين مثلاً، فينصحه بتقليل الكمّيّة تدريجيّاً حتّى يتمكّن من التّغلّب على هذه العادة، وبذلك وصل الشّارع الحكيم سُبحانه وتعالى بالنّفوس إلى مرحلة ألفَتْ فيها تَرْك الخمر، وبدأت تنصرف عنها، وأصبحت النّفوس مُهيّئةً لتقبُّل التّحريم المطلق، فقال سُبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: من الآية ٩٠]، فالحقّ سُبحانه وتعالى نسخ آيةً وحُكْماً وهو قوله سُبحانه وتعالى: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾، بما هو أحسن منه، والعجيب أنْ نرى من بعض النّاس مَنْ يتعصّب للقرآن الكريم، فلا يقبل القول بالنّسخ فيه، كيف والقرآن الكريم نفسه يقول: ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٠٦]؟! قالوا: لأنّ هناك شيئاً يُسمَّى البداء، ففي النّسخ كأنّ الله سُبحانه وتعالى أعطى حُكْماً ثمّ تبيّن له خطؤه، فعدل عنه إلى حُكْمٍ آخر، حاشا لله سُبحانه وتعالى، ونقول لهؤلاء: لقد جَانَبَكم الصّواب في هذا القول، فمعنى النّسخ إعلان انتهاء الحكم السّابق بحكمٍ جديد أفضل منه، وبهذا المعنى يقع النّسخ في القرآن الكريم، ومنهم مَنْ يقف عند قول الحقّ سُبحانه وتعالى: ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٠٦]، فيقول: ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾ فيها عِلّة للتّبديل، وضرورة تقتضي النّسخ وهي الخيريّة، فما عِلّة التّبديل في قوله: ﴿أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾؟

أوّلاً: في قوله ﷻ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾، قد يقول قائلٌ: ولماذا لم يأْتِ بالخيريّة من البداية؟ نقول: لأنّ الله ﷻ حينما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٢]، وهذه منزلةٌ عاليةٌ في التّقوى، لا يقوم بها إلّا الخواصّ من عباد الله ﷻ، شَقَّتْ هذه الآية على الصّحابة، وقالوا: ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغابن: من الآية ١٦]، وجعل الله ﷻ التّقوى على قدر الاستطاعة، وهكذا نُسخت الآية الأولى مطلوباً، ولكنّها بقيت ارتقاءً، فَمنْ أراد أنْ يرتقي بتقواه إلى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ فبها ونِعْمت، ومَنْ لم يستطع أَخَذَ بالثّانية، ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرةً أخرى لوجدنا الأولى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٢]، وإنْ كانت تدعو إلى كثيرٍ من التّقوى إلّا أنّ العاملين بها قِلَّة، في حين أنّ الثّانية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغابن: من الآية ١٦]، وإنْ جعلتَ التّقوى على قَدْر الاستطاعة إلّا أنّ العاملين بها كثيرٌ، ومن هنا كانت الثّانية خَيْراً من الأولى، كما نقول: قليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطعٍ.

ثانياً: أمّا في قوله ﷻ: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾؛ أي: أنّ الأولى مِثْل الثّانية، فما وَجْه التّغيير هنا، وما سبب التَّبديل؟ نقول: سببه هنا اختبار المكلّف في مدى طاعته وانصياعه، إنْ نُقِل من أمر إلى مثله، حيث لا مشقَّة في هذا، ولا تيسيرَ في ذاك، هل سيمتثل ويُطيع، أم سيُجَادل ويناقش؟ مثل هذه القضيّة واضحة في حادث تحويل القبلة، حيث لا مشقّة على النّاس في الاتّجاه نحو بيت المقدس، ولا تيسير عليهم في الاتّجاه نحو الكعبة، الأمر اختبار للطّاعة والانصياع لأمر الله ﷻ، فكان من النّاس مَنْ قال: سمعاً وطاعة ونفّذوا أمر الله ﷻ فوراً دون

جدال، وكان منهم مَن اعترض وأنكر واتّهم رسول الله ﷺ بالكذب على الله جلَّ وعَلا، ومن ذلك أيضاً ما نراه في مناسك الحجّ ممّا سنَّه لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبّل الحجر الأسعد وهو حجرٌ، ونرمي الجمرات وهي أيضاً حجر، فهذه أمورٌ لا مجال للعقل فيها، بل هي لاختبار الطّاعة والانقياد للمشرّع تبارك وتعالى.

﴿بَلْ﴾: حرفٌ يُفيد الإضراب عن الكلام السّابق وتقرير كلام جديد، فالحقّ سبحانه وتعالى يُلغي كلامهم السّابق: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، ويقول لهم: لا، ليس بمفترٍ ولا كذّابٍ، فهذا اتّهامٌ باطلٌ، بل أكثرهم لا يعلمون.

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: هنا ليس بالضّرورة أنْ تقابل بالأقلّ، فيمكن أن نقول: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأيضاً: أكثرهم يعلمون، كما جاء في قول الحقّ سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحجّ: من الآية١٨]، هكذا بالإجماع، تسجد لله سبحانه وتعالى جميع المخلوقات إلّا الإنسان، فمنه كثيرٌ يسجد، يقابله أيضاً كثيرٌ حَقَّ عليه العذاب، فلم يقُلْ القرآن الكريم: (وقليلٌ حَقَّ عليه العذاب)، وعلى فَرض أنّ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهناك أقلّيّة تعلم صِدْق رسول الله ﷺ في البلاغ عن ربّه، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله ﷺ حينما اتّهموه بالكذب، ويعلمون صِدْق كلّ آيةٍ في مكانها، وحكمة الله سبحانه وتعالى المرادة من هذه الآية، فَمنْ هم هؤلاء الّذين يعلمون في صفوف الكفّار والمشركين؟ قالوا: لقد كان بين هؤلاء قَوْمٌ أصحاب عقولٍ راجحةٍ،

وفَهْمٍ للأمور، ويعلمون وجه الحقّ والصّواب في هذه المسألة، ولكنّهم أنكروها، كما قال ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النّمل: من الآية ١٤]، وأيضاً من هؤلاء أصحاب عقولٍ يفكّرون في الهدى، ويُراودهم الإسلام، وكأنّ لديهم مشروعَ إسلامٍ يُعِدّون أنفسهم له، وهم على علمٍ أنّ كلام الكفّار واتّهامهم لرسول الله ﷺ باطلٌ وافتراءٌ، وأيضاً منهم مؤمنون فعلاً، ولكن تنقصهم القوّة الذّاتيّة الّتي تدفع عنهم، والعصبيّة الّتي تردّ عنهم كَيْد الكفّار، وليس عندهم أيضاً طاقةٌ أنْ يهاجروا، فهم ما يزالون بين أهل مكّة، إلّا أنّهم مؤمنون ويعلمون صِدْق رسول الله ﷺ وافتراء الكفّار عليه، لكن لا قدرة لهم على إعلان إيمانهم، وفي هؤلاء يقول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ [الفتح: ٢٤ – من الآية ٢٥]؛ أي: تدخلوا على أهل مكّة وقد اختلط الحابل بالنّابل، والمؤمن بالكافر، فتقتلوا المؤمنين دون علمٍ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ [الفتح: من الآية ٢٥]؛ أي: لو كانوا مُميَّزين، الكفّار في جانب، والمؤمنون في جانبٍ آخر، لَعذَّبْنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً.

فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتّهمونك بالكذب والافتراء، فإنَّ غير الأكثريّة يعلم أنّهم كاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾، وما داموا اتّهموك بالافتراء فقُلْ ردّاً عليهم:

(الآية ١٠٢) - ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: يردّ الحقّ سبحانه وتعالى في هذه الآية على الكفّار افتراءهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتّهامهم له بالكذب المتعمّد، وأنّه جاء بهذه الآيات من نفسه، فقال له: يا محمّد، قُلْ لهؤلاء: بل نزّله روح القُدس.

﴿ٱلْقُدُسِ﴾: أي: المطهّر، من إضافة الموصوف للصّفة، كما نقول: حاتم الجود مثلاً، والمراد بـ ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ سفير الوحي جبريل عليه السلام، وقد قال جل جلاله عنه في آيةٍ أخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشّعراء]، وقال سبحانه وتعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التّكوير: ١٩ - ٢١].

﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: أنّ جبريل عليه السلام لم يأْتِ بهذا القرآن من عنده هو، بل من عند الله سبحانه وتعالى بالحقّ، فمُحمّد صلى الله عليه وسلم لم يَأْتِ بالقرآن الكريم من عنده، وكذلك جبريل عليه السلام، فالقرآن الكريم من عند الله جل جلاله، ليس افتراءً على الله عز وجل، لا من محمّد صلى الله عليه وسلم، ولا من جبريل عليه السلام.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: ليُثبِّتَ الّذين آمنوا على تصديق ما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم من الآيات، أنّ الله سبحانه وتعالى أعلمُ بما يُنزّل من الآيات، وأنّ كلّ آيةٍ منها مُناسِبةٌ لزمانها ومكانها وبيئتها، وفي هذا دليلٌ على أنّ المؤمنين طائعون مُنصَاعون لله سبحانه وتعالى مُصدِّقون للرّسول صلى الله عليه وسلم في كُلِّ ما بلّغ عن ربّه سبحانه وتعالى.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾: قال سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، فالقرآن الكريم هداية وبشرى؛ لأنّه يبشّر المسلمين بإيمانهم بأنّهم سيُجزَون بالجنّة وما فيها من عملٍ.

ولا بدّ أن نقف هنا عند النّاسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، فهو يجري فيه أحاديث كثيرةٌ من النّاس، وبعض النّاس ليس لديه علمٌ، فأنت عندما تناقش طبيباً مختصّاً في الجراحة العصبيّة في الدّماغ فهناك حدودٌ لنقاشك معه بأن يُبيّن لك، أمّا إذا كان الّذي يُحاور هذا الطّبيب هو طبيبٌ مثله مختصٌّ أيضاً بجراحة عامّة أو بجراحة عصبيّة أو بجراحة الدّماغ، فإنّ النقاش يختلف عن النّقاش مع المتلقّي الآخر غير المختصّ بهذا الأمر، فعلم النّاسخ والمنسوخ في القرآن الكريم يجب أن يكون ضمن الضّوابط الّتي بيّنها رسول الله ﷺ وتحدّثنا عنها كيف أنّ الآية السّابقة نسخت الآية الأولى حُكْمَاً، وبقيت تلاوةً؛ لأنّ القرآن الكريم نزلَ مُنَجّماً، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، وقوله سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فالتّثبيت أولى أن ينزل القرآن الكريم مُنَجّماً وليس دفعةً واحدةً، وباعتبار أنّ القرآن الكريم صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ فاقتضى التّدرّج في بعض الأحكام أن يكون هناك ناسخٌ ومنسوخٌ في القرآن الكريم، وليس كما يدّعي بعض الّذين يحاولون النّقاش والتّعالم على العلماء وعلى كتاب الله سبحانه وتعالى، والإجابات الّتي أوردناها هي الرّدّ القاطع، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

(الآية ١٠٣) - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ﴾: في هذه الآية اتّهامٌ آخر

لرسول الله ﷺ، وافتراءٌ جديدٌ عليه، لا يأنف القرآن الكريم من إذاعته، فمَنْ سمع الاتّهام والافتراء يجب أن يسمع الجواب، فالقرآن الكريم يريد أنْ يفضحَ أمر هؤلاء، وأنْ يُظهِر إفلاس حُجَجِهم وما هم فيه من تخبُّطٍ، وقد سبق أنْ قالوا عن رسول الله ﷺ: (مجنون)، وبرَّأه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، والخلُقُ العظيم لا يكون في مجنون؛ لأنّ الخلُق الفاضل لا يُوضع إلّا في مكانه، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم]، وسبق أنْ قالوا: (ساحرٌ)، وهذا دليلٌ على أنّهم مغفّلون يتخبَّطون في ضلالهم، فلو كان سيّدنا محمّدٌ ﷺ ساحراً، فَلِمَ لم يسحرهم كما سحر المؤمنين به، وتنتهي المسألة؟ وسبق أنْ قالوا: (شاعر)، مع أنّهم أدرى النّاس بفنون القول شِعْراً ونثراً وخطابةً، ولم يُجرِّبوا على سيّدنا محمّد ﷺ شيئاً من ذلك، لكنّه الباطل حينما يَلجّ في عناده، ويتكبّر عن قبول الحقّ، وهنا جاؤوا بشيءٍ جديدٍ يُكذِّبون به رسول الله ﷺ، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ أي: إنّ رسول الله ﷺ يتردّد على أحد أصحاب العلم ليعلّمه القرآن الكريم، فقالوا: إنّه غلامٌ لبني عامر بن لؤي اسمه (يعيش)، وكان يعرف القراءة والكتاب، وكان يجلب الكتب من الأسواق، ويقرأ قصص السّابقين، مثل: عنترة وذات الهمّة.. وغيرها من كتب التّاريخ، وقد تضاربتْ أقوالهم في تحديد هذا الشّخص الّذي يزعمون أنّ رسول الله ﷺ تعلّم على يديه، فقالوا: اسمه: (عدّاس)، وقال آخرون: (سلمان الفارسيّ)، وقال آخرون: (بَلْعام)، وكان حدّاداً روميّاً نصرانيّاً يعلم كثيراً عن أهل الكتاب.. إلخ، والحقّ تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء، ويُظهِر إفلاسهم الفكريّ، وإصرارهم على تكذيب رسول الله ﷺ فيقول:

﴿لِّسَانُ﴾: اللّسان هنا: اللّغة الّتي يُتَحدَّث بها.

﴿ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾: يميلون إليه، وينسبون إليه أنّه يُعلِّم رسول الله ﷺ.

﴿أَعۡجَمِىٌّ﴾: أي: لغته خفيّة، لا يُفصح ولا يُبين الكلام، كما نرى الأجانب يتحدّثون العربيّة مثلاً.

ونلاحظ هنا أنّ القرآن الكريم لم يقُلْ: (عجميّ)؛ لأنّ العجم جنس يقابل العرب، وقد يكون من العجم مَنْ يُجيد العربيّة الفصيحة، كما رأينا سيبوَيْه صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النّحو حتّى الآن وهو عَجميّ.

أمّا الأعجميّ فهو الّذي لا يُفصح ولا يُبين في الكلام، حتّى وإنْ كان عربيّاً، وقد كان في قبيلة لؤي رجل اسمه زياد يُقال له: (زياد الأعجمي)؛ لأنّه لا يُفصح ولا يُبين، مع أنّه من أصلٍ عربيٍّ، فكيف يتأتّى لهؤلاء الأعاجم الّذين لا يُفصحون، ولا يكادون ينطقون اللّغة العربيّة أنْ يُعلِّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزةٍ في الفصاحة والبلاغة والبيان؟ كيف يتعلّم من هؤلاء، ولم يثبت أنّه ﷺ التقى بأحدٍ منهم إلّا (عدّاس)، يُقال: إنّه قابله مرّةً واحدةً، ولم يثبت أنّه ﷺ تردَّد إلى معلّمٍ، لا من هؤلاء، ولا من غيرهم؟ كما أنّ ما يحويه القرآن الكريم من آياتٍ وأحكامٍ ومعجزات ومعلومات يحتاج في تعلُّمه إلى وقتٍ طويل يتتلمذ فيه محمّد ﷺ على يد هؤلاء، وما جرّبْتم على محمّد ﷺ شيئاً من هذا كلّه، وهل يُعقل أنّ ما في القرآن الكريم يمكن أن يطويه صَدْرُ واحدٍ من هؤلاء؟! لو حَدَثَ لكان له من المكانة والمنزلة بين قومه ما كان للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام من منزلة، ولأشاروا إليه بالبنان ولذَاع صِيتُه، واشتُهر أمره، وشيءٌ من ذلك لم يحدث.

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾: أي: لغته ﷺ، ولغة القرآن الكريم عربيّة واضحة مُبينة، لا لَبْسَ فيها ولا غموض، وقد تحدّثنا سابقاً عن موضوع العروبة واللّغة العربيّة، وأنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ۝٢﴾ [يوسف]، وقال في آياتٍ أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ [الرّعد: من الآية ٣٧]، واللّغة هي أساس، فاللّغة العربيّة هي لغة قدّسها القرآن الكريم؛ لأنّها الوعاء لكلام الله سبحانه وتعالى، فالجامع الّذي لا يستطيع أحدٌ أن يُنكره هو جامع اللّغة، والمحافظة على اللّغة العربيّة هو جزءٌ لا يتجزّأ من المحافظة على ديننا وعلى عبادتنا وعلى كتاب ربّنا سبحانه وتعالى، لكنّ الحقيقة أنّ الّذي حفظ اللّغة العربيّة من الضّياع هو القرآن الكريم وليس العكس، فالقرآن الكريم هو الّذي حفظ هويّة هذه الأمّة، وسيبقى القرآن الكريم خالداً بخلود الدّنيا حتّى يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ۝٩﴾ [الحجر]، فَمِنْ حفظ الله سبحانه وتعالى لكتابه حُفِظَت هذه اللّغة، ومن حِفظ هذه اللّغة العربيّة حُفِظَت هويّة الأمّة، لذلك ما علينا إلّا أن نعلّم أجيالنا وأبناءنا اللّغة العربيّة وأن نحافظ على الفصحى، وأن نحافظ على تعلّم وحفظ كتاب الله سبحانه وتعالى حتّى يستقيم لساننا العربيّ، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ كما قال سبحانه وتعالى.

(الآية ١٠٤) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝١٠٤﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: ينفي الحقّ سبحانه وتعالى عن هؤلاء صفة الإيمان، فكيف يقول بعدها:

﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾: أليسوا غير مؤمنين، وغير مُهْتدين؟ قُلْنا: إنّ الهداية نوعان:

١- هداية دلالة وإرشاد، وهذه يستوي فيها المؤمن والكافر، فقد دَلَّ الله سُبحانه وتعالى الجميع، وأوضح لهم الطّريق، ومنها قوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصّلت: من الآية ١٧]؛ أي: أرشدناهم ودَلَلْناهم.

٢- وهداية المعونة والتّوفيق، وهذه لا تكون إلّا للمؤمن، ومنها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد].

فمعنى: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هداية معونة وتوفيق، وليست هداية دلالة وإرشاد، ويصحّ أن نقول أيضاً: إنّ الجهة هنا مُنفكّة إلى شيءٍ آخر، فيكون المعنى: لا يهديهم إلى طريق الجنّة، بل إلى طريق النّار، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النّساء: ١٦٨ - من الآية ١٦٩]، بدليل قوله سُبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ ولأنّه سُبحانه وتعالى في المقابل عندما تحدّث عن المؤمنين قال: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [محمّد]؛ أي: هداهم لها وعرَّفهم طريقها.

(الآية ١٠٥) - ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾:

﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾: كأنّ الحقّ سُبحانه وتعالى يقول: وإن افتريتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم واتّهمتموه بالكذب، الحقيقة أنّكم تُكذِّبون بآيات الله سُبحانه وتعالى، ولا تؤمنون بها.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾: نلاحظ في تذييل هذه الآية أنّ الحقّ سُبحانه وتعالى لم يَقُلْ: (وأولئك هم الكافرون)، بل قال: ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، ليدلّ على شناعة

الكذب، وأنّه صفةٌ لا تليق بمؤمنٍ، ولذلك حينما سأل أبو الدّرداء ﷺ رسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل يسرق المؤمن؟ قال: «قد يكون ذلك»، قال: فهل يزني المؤمن؟ قال: «بلى، وإن كره أبو الدّرداء»، قال: هل يكذب المؤمن؟ قال: «إنّما يفتري الكذب من لا يؤمن»(١)؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ [النّور: من الآية ٢]، وقال جلّ جلاله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: من الآية ٣٨]، فما دام قد شرَّع حُكْماً، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر وارداً ومحتمل الحدوث، والحديث يُوضّح لنا فظاعة الكذب وشناعته، وكيف أنّه أعظم من هذه المنكرات كلّها، فقد جعل الله سبحانه وتعالى لكلٍّ منها عقوبةً معلومةً في حين ترك عقوبة الكذب ليدلّ على أنّها جريمةٌ أعلى من العقوبة وأعظم، فالكذب صفةٌ لا تليق بالمؤمن، ولا تُتصوّر في حَقِّه؛ ذلك لأنّه إذا اشتُهِر عن واحدٍ أنّه كذّاب لما اعتاده النّاس من كذبه، فنخشى أن يقول مرّةً: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ، فيقول قائل: إنّه كذّاب وهذه كذبةٌ من أكاذيبه.

(الآية ١٠٦) - ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾:

سبق وأنْ تحدّث الله سبحانه وتعالى عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين، ثمّ تحدّث عن الّذين يُخلِفون العهد ولا يُوفون به، ثمّ تحدّث عن الّذين افترَوْا على رسول الله ﷺ، والّذين كذَّبوا بآيات الله سبحانه وتعالى، وهذه قضايا إيمانيّة كان لا بُدَّ أنْ تُثار،

---

(١) كنز العمّال: ج٣، ص ٨٧٤، الحديث رقم (٨٩٩٤).

وفي هذه الآية الكريمة يوضّح لنا الحقّ ﷻ أنّ الإيمان ليس مجرّد أن تقول: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فالقول وحده لا يكفي، فلا بُدَّ أنْ تشهدَ بذلك، ومعنى تشهد أنْ يُواطِئَ القلب واللّسان كلٌّ منهما الآخر في هذه المقولة، والمتأمّل لهذه القضيّة يجد أنّ القسمة المنطقيّة تقتضي أن يكون لدينا أربع حالات:

الأولى: أنْ يُواطِئَ القلب اللّسان إيجاباً بالإيمان؛ ولذلك نقول: إنّ المؤمن منطقيٌّ في إيمانه؛ لأنّه يقول ما يُضمره قلبه.

الثّانية: أنْ يُواطِئَ القلب اللّسان سلباً؛ أي: بالكفر، وكذلك الكافر منطقي في كفره بالمعنى السابق.

الثّالثة: أنْ يؤمن بلسانه ويُضمِرَ الكفر في قلبه، وهذه حالة المنافق، وهو غير منطقيّ في إيمانه، حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان.

الرّابعة: أن يؤمن بقلبه، وينطق كلمة الكفر بلسانه.

وهذه الحالة الرّابعة هي المرادة في هذه الآية، فالحقّ ﷻ يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمانه، وما سبب هذا الكفر؟ وما جزاؤه؟

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾: هذه جملة الشّرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة، لنقف أوّلاً على تفصيل هذا الكفر، فإمّا أن يكون عن إكراه لا دَخْلَ للإنسان فيه، فيُجبَر على كلمة الكفر، في حين قلبه مطمئنٌّ بالإيمان، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، ثمّ سكت عنه القرآن الكريم ليدلّنا على أنّه لا شيءَ عليه، ولا بأسَ أن يأخذ المؤمن في هذا الأمر إن اضطرّ، وهي رخصةٌ تقي الإنسان موارد الهلاك في مثل

هذه الأحوال، وفي تاريخ الإسلام نماذج متعدّدة أخذت بهذه الرّخصة، ونطقتْ كلمة الكفر وهي مطمئنّةٌ بالإيمان، وفي الحديث الشّريف: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(١)، ويذكر التّاريخ قصّة ياسر وزوجه سُميّة أوّل شهيدين في الإسلام، فكيف استشهدا؟ كانا من المسلمين الأوائل، وتعرّضا لكثيرٍ من التّعذيب حتّى عرض عليهم الكفّار النّطق بكلمة الكفر مقابل العفو عنهما، فماذا حدث من هذين الشّهيدين؟ صَدَعا بالحقّ وأصرَّا على الإيمان حتّى نالا الشّهادة في سبيل الله ﷻ، ولم يأخذا برخصة التّقيّة، وكان ولدهما عمّار أوّل مَنْ أخذ بها، حينما تعرّض لتعذيب المشركين، وقد بلغ رسول الله ﷺ أنّ عمّار بن ياسر كفر، فأنكر ﷺ هذا، وقال: «إِنَّ عَمَّاراً مُلِئَ إِيمَاناً إِلَى مَشَاشِهِ»(٢)، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا وَرَاءَكَ؟»، قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟»، قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»(٣)، وفي حركة الرّدّة حاول مسيلمة الكذّاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادةً بصدق نُبوّته، فأخذ أسيرين من أصحاب النّبيّ ﷺ، فقال لأحدهما: ما تقول في

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الطّلاق، باب طلاق المكره والنّاسي، الحديث رقم (٢٠٤٣).

(٢) مصنّف ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان والرّؤيا، الحديث رقم (٣٠٣٥٠).

(٣) المستدرك على الصّحيحين: كتاب التّفسير، تفسير سورة النّحل، الحديث رقم (٣٣٦٢).

محمّد؟ فقال: رسول الله ﷺ، فقال: ما تقول فيّ؟ فقال: وأنت، فأرسله، وقال للآخر: ما تقول في محمّد؟ فقال: رسول الله ﷺ، فقال: وما تقول فيّ؟ فقال: لا أدري، فلم يزل يسأله وهو يجيبه بذلك حتّى قطّعه إرباً إرباً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أمّا أحدهما فقد أخذ برخصة الله، وأمّا الثّاني فقد صدع بالحقّ، فهنيئاً له**»(١)، فهاتان منزلتان في مواجهة الباطل وأهله، والصَّدْع بالحقّ والصّبر على البلاء أعْلَى منزلةً، وأَسْمَى درجةً من الأَخْذ بالرّخصة؛ لأنّ الأوّل آمن بقلبه ولسانه، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه بالكفر.

وبعد أن تحدّث الحقّ ﷻ عن حُكم مَنْ أُكرِهَ وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان، يتحدّث عن النّوع الآخر:

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾: أي: نطق كلمة الكفر راضياً بها، بل سعيدةً بها نفسه، مُنْشَرِحاً بها صدره، وهذا النّوع هو المقصود في جواب الشّرط.

﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾: فإنْ كانت الآيات قد سكتت عَمَّنْ أُكرِهَ، ولم تجعل له عقوبةً؛ لأنّه مُكرهٌ، فقد بيَّنت أنّ من شرح بالكفر صدراً عليه غضبٌ من الله ﷻ؛ أي: في الدّنيا، ولهم عذابٌ عظيمٌ؛ أي: في الآخرة، وكما رأينا في تاريخ الإسلام نماذج للنّوع الأوّل الّذي أُكْرِه وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صَدْراً، وهم المنافقون، ومنهم مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه، كعبد الله بن سعد بن أبي السّرح من عامر بن لؤي.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصّالحين: باب الصّبر، ج١، ص ١٧١.

(الآية ١٠٧) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: ما استحقّوه من العذاب السّابق.

﴿بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾: استحبّ: أي: آثر وتكلّف الحبّ؛ لأنّ العاقل لو نظر إلى الدّنيا بالنّسبة إلى عمره فيها لوجدها قصيرةً أحقر من أَنْ تُحبَّ لذاتها، ولَوجدَ الأغيار بها كثيرةً تتقلّب بأهلها فلا يدوم لها حالٌ، ينظر فإذا الأحوال تتبدّل من الغنى إلى الفقر، ومن الصّحّة إلى السَّقَم، ومن القوّة إلى الضّعف، ومن الحياة إلى الممات، فكيف تستحبّ الدّنيا على الآخرة؟! والحقّ سبحانه وتعالى يريد منّا أنْ نُعطي كلّاً من الدّنيا والآخرة ما تستحقّه من الحبّ، فنحبّ الدّنيا دون مبالغة في حبّها، نحبّها على أنّها مزرعةٌ للآخرة، وإلّا، فكيف نطلب الجزاء والثّواب من الله عزّ وجلّ؟! لذلك نقول: إنّ الدّنيا أهمّ من أنْ تُنسى، وأتفه من أن تكون غايةً، وقد قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: من الآية ٧٧]، ففهم بعضهم الآية على أنّها دعوةٌ للعمل للدّنيا فقط وأخذ الحظوظ منها، ولكنّ المتأمّل لمعنى الآية يجد أنّ الحقّ سبحانه وتعالى يجعل الدّنيا شيئاً هيّناً مُعرَّضاً للنّسيان والإهمال، فيُذكِّرنا بها، ويحثّنا على أن نأخذ منها بنصيبٍ، فأنا لا أقول لك: لا تنسَ الشّيء الفلانيّ إلّا إذا كنتُ أعلم أنّه عُرْضَة للنّسيان، وهذا جانبٌ من جوانب الوسطيّة والاعتدال في الإسلام، ويكفينا وَصْف هذه الحياة بالدّنيا، فليس هناك وَصْفٌ أقلّ من هذا الوصف، والمقابل لها يقتضي أن نقول: العُلْيا وهي الآخرة، نعم نحن لا ننكر قَدْر الحياة الدّنيا ولا نبخسها حقّها، ففيها الحياة والحسّ والحركة، وفيها العمل الصّالح والذّكْرى الطّيّبة، وهي مزرعة الآخرة،

ولكنّها مع ذلك إلى زوالٍ وفناءٍ، في حين أنّ الآخرة هي الحياة الحقيقيّة الدّائمة الباقية الّتي لا يعتريها زوالٌ، ولا يهدّدها موتٌ، كما قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٤]؛ أي: الحياة الحقيقيّة الّتي يجب أن نحرص عليها ونحبّها، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]، ما معنى: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾، والقرآن الكريم يخاطبهم وهم أحياءٌ يُرزَقُون؟ قالوا: ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾؛ أي: الحياة الحقيقيّة الباقية الّتي لا تزول.

﴿عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: لقائلٍ أن يقول: إنّ الآية تتحدّث عن غير المؤمنين بالآخرة، فكيف يُقَال عنهم: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؟ نقول: من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النّحل: من الآية ٣٨]، وأيضاً منهم مَنْ قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: من الآية ٣٦]، فمن هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة، ولكنّه يُفضّل عليها الدّنيا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: لا يهديهم هداية معونةٍ وتوفيقٍ، والله سبحانه وتعالى يهدي النّاس جميعاً هداية دلالة، لكن من استحبّ الكفر وأغلق قلبه عن الإيمان وكفر فلن يتمكّن أبداً من الحصول على هداية المعونة من الله سبحانه وتعالى.

(الآية ١٠٨) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: طبع: أي: ختم عليها، وإذا تأمّلنا

الختْم وجدنا المقصود منه أنّ الشّيء الدّاخل يظلّ داخلاً لا يخرج، وأنّ الخارج يظلّ خارجاً لا يدخل، وفَرْقٌ بين ختم البشر وختم المولى ﷻ، فقصارى ما نفعله أن نختم الأشياء المهمّة كالرّسائل السّرّيّة مثلاً، أو عندما نريد إغلاق مكانٍ ما نختم عليه بالشّمع الأحمر لنتأكّد من غلقه، ومع ذلك نجد مَنْ يحتال على هذا الختم، ويستطيع فضّه وربّما أعاده كما كان، أمّا إذا ختم الحقّ ﷻ على شيءٍ فلا يستطيع أحدٌ التّحايل عليه ﷻ، فالمراد بقوله ﷻ: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أنّ ما فيها من الكفر لا يخرج منها، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل فيها؛ ذلك لأنّ القلب هو الوعاء الّذي تصبّ فيه الحواسّ الّتي هي وسائل الإدراكات المعلوميّة، وأهمّها السّمع والبصر، فالبسّمع نسمع الوحي والتّبليغ عن الله ﷻ، وبالبصر نرى دلائل قدرة الله ﷻ في كونه وعجيب صُنْعه ممّا يُلفتنا إلى قدرته ﷻ، ويدعونا إلى الإيمان به ﷻ، فإذا ما انحرفتْ هذه الحواسّ عمّا أراده الله ﷻ منها، وبدل أن تمدّ القلب بدلائل الإيمان تعطّلتْ وظيفتها، فالسّمع موجودٌ كآلةٍ تسمع ولكنّها تسمع الفارغ من الكلام، فلا يوجد سَمْعٌ اعتباريٌّ، وكذلك البصر موجودٌ كآلةٍ تُبصر ما حرّم الله ﷻ فلا يوجد بصرٌ اعتباريٌّ، فما الّذي سيصل إلى القلب من خلال هذه الحواسّ؟ فما دام القلب لا يسمع الهداية، ولا يرى دلائل قدرة الله ﷻ في كونه فلن نجد فيه غير الكفر، ولا يمكن أن يجتمع كفرٌ وإيمانٌ في قلبٍ واحدٍ؛ لذلك عندنا قانونٌ موجودٌ حتّى في المادّيّات يسمّونه: (عدم التّداخل)، يمكن أن نشاهده حينما نملأ زجاجة فارغة بالماء، فنرى أنّ الماء لا يدخل إلّا بقدر ما يخرج من الهواء، فكذلك الحال في الأوعية المعنويّة، فإن أردت الإيمان أيّها الكافر فأخرجْ أوّلاً ما

في قلبك من الكفر، واجعله مُجرّداً من كلّ هوى، ثمّ ابحث بعقلك في أدلّة الكفر وأَدلّة الإيمان، وما تصل إليه وتقتنع به أدْخله في قلبك، لكن أنْ تبحث أدلّة الإيمان وفي جوفك الكفر فهذا لا يصحّ، لا بُدَّ من إخلاء القلب أوّلاً، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: من الآية ٤]، وفي الأثر: «أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، تزعم أنّك تحبّني فأخرج حبّ الدّنيا من قلبك، فإنّ حبّي وحبّها لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ»(١)؛ لأنّ للإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان، هكذا شاءت قدرة الله سبحانه وتعالى أن يكون القلب على هذه الصّورة، فلا نجعلْه مزدحماً بالمظروف فيه، كما أنّ طَبْع الله سبحانه وتعالى على قلوب الكفّار فيه إشارةٌ إلى أنّ الحقّ سبحانه وتعالى يُعطي عبده مراده، حتّى وإنْ كان مراده الكفر، وكأنّه سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء: إنْ كنتم تريدون الكفر وتحبّونه وتنشرح له صدوركم فسوف أطبع عليها، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان، بل وأزيدكم منه إنْ أحببتُمْ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٠]، فهنيئاً لكم بالكفر، واذهبوا غَيْرَ مأسوفٍ عليكم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾: الغافل: مَنْ كان لديه أمرٌ يجب أن يتنبّه إليه، لكنّه غفل عنه، وكأنّه كان في انتظار إشارة تُنبّه عقله ليصل إلى الحقّ، ثمّ يُنهي الحقّ سبحانه وتعالى الكلام عن هؤلاء بقوله سبحانه وتعالى:

(الآية ١٠٩) - ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقّاً ولا بُدَّ، فهؤلاء خسروا في الآخرة، بما اقترفوه من

(١) التّرغيب والتّرهيب: باب التّرغيب في الزّهد في الدّنيا، ج٢، ص٢٤٥.

مُوجبات الخسارة، وبما أَتَوْا به من حيثيّات ترتَّبَ عليها الحكم بخسارتهم في الآخرة، والمتتبّع للآيات السّابقة يجد فيها هذه الحيثيّات، بدايةً من قَوْلهم عن رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٠١]، وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النّحل: من الآية ١٠٣]، وعدم إيمانهم بآيات الله ﷻ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ﷻ، واطمئنانهم بالكفر، وانشراح صدورهم به، واستحبابهم الحياة الدّنيا على الآخرة، هذه كلّها حيثيّات وأسباب أوجبتْ لهم الخسران في الآخرة يوم تُصفّى الحسابات، وتنكشف الأرباح والخسائر، وكيف لا تكون عاقبته خُسْراناً مَن اقتراف هذه الجرائم كلّها؟!.

(الآية ١١٠) - ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾:

﴿فُتِنُواْ﴾: أي: ابتلوا وعُذِّبوا عذاباً أليماً؛ لأنّهم أسلموا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: من رحمة الله ﷻ أنّه يفتح باب التّوبة لعباده الّذين أسرفوا على أنفسهم، أن يقبل توبة مَنْ يتوب؛ لأنّه لو لم يفتح الله ﷻ باب التّوبة للمذنب ليئسَ من رحمة الله ﷻ، ولتحوَّل إلى مجرم يشقَى به المجتمع وإن أذنب ولو ذنباً واحداً، لا يَرَى أمامه بارقة أملٍ تدعوه إلى الصّلاح، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع، أمّا إذا رأى باب ربّه ﷻ مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التّائب، ويغفر ذنب المسيء، كما جاء في الحديث الشّريف: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ

لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١)، بل ويزيده ربّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من فضله إنْ أحسن التّوبة، وندم على ما كان منه، بأن يُبدِّل سيئاته حسناتٍ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان]، فتشريع التّوبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعوة إصلاحٍ للمجتمع، وهي رحمةٌ، وقبولها من المذنب رحمةٌ أخرى؛ لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التّوبة: من الآية ١١٨]؛ أي: شرع لهم التّوبة ودلّهم عليها، ليتوبوا هم.

(الآية ١١١) - ﴿۞يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١١١﴾:

﴿۞يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾: قد يكون المعنى في هذه الآية على اتّصالٍ بالآية السّابقة، ومتعلّق بها، فيكون المراد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يحدث هذا: ﴿۞يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾؛ أي: يوم القيامة، أو يكون المعنى: اذكر يا محمّد: ﴿۞يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

وهل للإنسان أكثر من نفسٍ، فتجادل إحداهما عن الأخرى؟ الحقيقة أنّ للإنسان نفساً واحدةً في الدّنيا والآخرة، ولكنّها تختلف في الدّنيا عنها يوم القيامة؛ لأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منحها في الدّنيا الاختيار، وجعلها حرّةً في أن تفعل أو

---

(١) صحيح مسلم: كتاب التّوبة، باب قبول التّوبة من الذّنوب وإن تكرّرت الذّنوب والتّوبة، الحديث رقم (٢٧٥٩).

لا تفعل، فكان من النّفوس: الطّائعة، والعاصية، والمنصاعة، والمكابرة، فإذا ما وقفت النّفس في موقف القيامة، وواجهتْ الحقّ الّذي كانت تخالفه علمت أنّ الموقف لا تفيد فيه مكابرةٌ، ولا حيلة لها إلّا أن تجادل وتدافع عن نفسها، فكأنّ النّفس في يوم القيامة تجادل عن نفس الدّنيا في موقفٍ يُنادي فيه الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: من الآية ١٦]، وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النّفس يوم القيامة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: من الآية ٢٣]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: من الآية ٣]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ [فُصِّلَت: من الآية ٢٩]، فهي نفسٌ واحدةٌ، تُجَادِل عن نفسها في يومٍ لا تجزي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، فكلٌّ مشغولٌ بكَرْبه، مُحاسَبٌ بذنبه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس].

(الآية ١١٢) - ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾: بعد أنْ تكلّم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ والإيمان بصدق رسوله ﷺ في البلاغ عنه، واستقبال منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الكتاب والسّنّة، وتكلّم عن المقابل لذلك من الكفر واللّجاج والعناد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وللرّسول ﷺ وللمنهج، أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يعطينا واقعاً ملموساً في الحياة لذلك كلّه، فضرب لنا هذا المثل، ومعنى المثل: أن يتشابه أمران تشابهاً تامّاً في ناحيةٍ معيّنةٍ بحيث

تستطيع أن تقول: هذا مثل هذا تماماً، والهدف من ضرب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلومٍ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدّث عنه فيمكن أن نقول لك: هو مثل فلانٍ المعلوم لك في الطّول، ومثل فلانٍ في اللّون.. إلى غير ذلك من الصّور المعلومة لك، لذلك فالشّيء الّذي لا مثيلَ له إيّاك أن تضرب له مثلاً، كما قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النّحل: من الآية ٧٤]؛ لأنّه سبحانه وتعالى لا مثيل له، ولا نظير له، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهو جلّ جلاله الّذي يضرب المثل لنفسه، أمّا نحن فلا نضرب المثل إلّا للكائنات المخلوقة له سبحانه، لذلك نجد في القرآن الكريم أمثالاً كثيرةً توضّح لنا المجهول بمعلومٍ لنا، وتوضّح الأمر المعنويّ بالأمر الحسّيِّ الملموس لنا، ومن ذلك ما ضربه الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً في الإنفاق في سبيل الله عزّ وجلّ، وأنّ الله سبحانه وتعالى يُضاعف النّفقة، ويُخلِف على صاحبها أضعافاً مضاعفة، فانظر كيف صوَّر لنا القرآن الكريم هذه المسألة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة]، وهكذا أوضح لنا المثلُ الأمرَ الغيبيَّ المجهولَ بالأمرِ المحسِّ المُشَاهَدِ الّذي يعلمه الجميع، حتّى استقرَّ هذا المجهول في الذّهن، بل أصبح أمراً مُتيقّناً شاخصاً أمامنا.

﴿وَضَرَبَ﴾: كلمة: (ضَرَبَ) مأخوذةٌ من ضَرْب العملة، حيث كانت في الماضي من الذّهب أو الفضّة، ولخوف الغشّ فيها حيث كانوا يخلطون الذّهب مثلاً بالنّحاس، فكان الخبراء في تمييز العملة يضربونها؛ أي: يختمون عليها فتصير مُعتمدةً موثوقاً بها، ونافذةً وصالحةً للتّداول، كذلك إذا ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لشيءٍ مجهولٍ بشيءٍ معلومٍ استقرَّ في الذّهن واعتُمِد، فقال سبحانه وتعالى في هذا

المثل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾، الهدف من ضرب هذا المثل أنّ الحقّ ﷻ يريد أن يوضّح لنا أنّ الإنسان إذا أنعم الله ﷻ عليه بشتّى أنواع النّعم فجحدها، ولم يشكره عليها، ولم يُؤدِ حقّ الله ﷻ فيها، واستعمل نعمة الله ﷻ في معصيته فقد عرَّضها للزّوال، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيّئة، فقيَّد النّعمة بشكرها وأداء حقّ الله ﷻ فيها، لذلك قال الشّاعر:

إذَا كُنْتَ في نعمةٍ فَارْعَها فَإنَّ المَعَاصِي تُزيلُ النِّعَم
وحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإلهِ فَإنَّ الإلَـهَ شَـدِيدُ النِّقَم

ولكن، هل القرية الّتي ضربها الله ﷻ لنا مثلاً هنا هي قريةٌ معيّنةٌ أو المعنى على الإطلاق؟ قد يُراد بالقرية قرية معيّنة كما قال بعض المفسّرين: إنّها مكّة، أو غيرها من القرى، وعلى كلٍّ فتحديدها أمرٌ لا فائدة منه، ولا يُؤثّر في الهدف من ضَرْب المثل بها.

والقرية: اسمٌ للبلد الّتي يكون بها سكّان؛ أي: بلد استقرارٍ، وهي اسمٌ للمكان، فإذا حُدِّث عنها يراد المكين فيها، كما في قوله ﷻ: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ [يوسف: من الآية ٨٢]، فالمراد: اسأل أهل القرية؛ لأنّ القرية كمكانٍ لا تُسأل، هكذا قال علماء التّفسير، على اعتبار أنّ في الآية مجازاً مرسلاً، ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحقّ ﷻ مدداً جديداً، كما قال ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصّلت: من الآية ٥٣].

﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾: آمنةً: أي: في مَأْمَنٍ من الإغارة عليها من خارجها، والأمن من أعظم نِعَم الله ﷻ على البلاد والعباد.

﴿مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾: أي: لديها مُقوِّمات الحياة، فلا تحتاج إلى غيرها، فالحياة فيها مُستقرَّةٌ مريحةٌ، والإنسان لا يطمئنّ إلّا في المكان الخالي من المنغِّصات، الّذي يجد فيه مقومات الحياة كلّها، فالأمن والطّمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها، وحينما امتنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على قريشٍ قال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش]، فطالما شبعت البطون، وأمنتْ النّفوس استقرّت بالإنسان الحياة، والرّسول ﷺ يُعطينا صورةً مُثْلى للحياة الدّنيا، فيقول: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافىً فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»(١).

ويصف الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه القرية بأنّها:

﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾: معلومٌ أنّ النّاس هم الّذين يخرجون لطلب الرّزق، لكن في هذه القرية يأتي إليها الرّزق، وهذا يُرجِّح القول بأنّها مكّة؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال عنها: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: من الآية ٥٧].

﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾: أي: جحدت بهذه النّعم، واستعملتها في مصادمة منهج الله عَزَّوَجَلَّ، فكانت النّتيجة:

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾: وكأنّ في الآية تحذيراً من الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكلّ مجتمعٍ يكفر بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ، ويستعمل النّعمة في مصادمة منهجه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتكون عاقبته كعاقبة هؤلاء.

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب الزّهد، باب ٣٤، الحديث رقم (٢٣٤٦).

﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾: من الذّوق، نقول: ذاق وتذوّق الطّعام، إذا وضعه على لسانه، والذَّوْق لا يتجاوز حليمات اللّسان، فالذّوْق خاصٌّ بطعْم الأشياء، لكنّ الله ﷻ لم يقُلْ: (أذاقها طعم الجوع)، بل قال: ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾، فجعل الجوع والخوف وكأنّهما لباسٌ يلبسه الإنسان، والمتأمّل في الآية يطالع دقّة التّعبير القرآنيّ، فقد يتحوّل الجوع والخوف إلى لباسٍ يرتديه الجائع والخائف، كيف ذلك؟ الجوع يظهر أوّلاً كإحساسٍ في البطن، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون في الجسم من شحوم، فإذا ما انتهتْ الشّحوم تغذّى الجسم على اللّحم، ثمّ بدأ ينحت العظام، ومع شدّة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً، وعلى الجلد هُزَالاً وذبولاً، ثمّ ينكمش ويجفّ، وبذلك يتحوّل الجوع إلى شكلٍ خارجيٍّ على الجلد، وكأنّه لباسٌ يرتديه الجائع، ونستطيع أن نتعرّف على الجوع ليس من بطن الجائع، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته، كما قال ﷻ عن الفقراء الّذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٣]، وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب، إلّا أنّه يظهر على الجسم، فإذا زاد ترتعد الفرائص ويرتعش الجسم كلّه، فيظهر الخوف عليه كثوبٍ يرتديه، وهكذا جَسَّد لنا التّعبير القرآنيّ هذه الأحاسيس الدّاخليّة لتراها العيون، ولكنّه أدخلها تحت حاسَّة التّذوّق؛ لأنّها أقوى الحواسّ، وفي تشبيه الجوع والخوف باللّباس ما يُوحي بشمولهما الجسم كلّه، كما يلفّه اللّباس، فليس الجوع في المعدة فقط، وليس الخوف في القلب فقط.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾: أي: أنّ الحقّ ﷻ ما ظلمهم وما تجنّى عليهم، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ﷻ، وكفرهم بأنعمه،

فحبسها الله ﷻ عنهم، فهم الّذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصُّدود والجحود والنّكران، وتعرَّضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيَّتوا لقتله، حتّى دعا عليهم قائلاً: «**اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»[1]، فاستجاب الحقّ ﷻ لنبيّه ﷺ، وألبسهم لباس الجوع والخوف، حتّى إنّهم كانوا يأكلون من القاذورات، ويخلطون الشّعر والوبر بالدّم فيأكلونه، وظلّوا على هذا الحال سبع سنين حتّى ضَجُّوا، وبلغ بهم الضَّنْك مُنْتهاه، فأرسلوا وفداً منهم لرسول الله ﷺ، وطلبوا منه العفو والصّفح، فكان ﷺ يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطّيّب.

(الآية ١١٣) - ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾:

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾: رأينا كيف كانت النّعمة تامّةً على أهل مكّة، وقد تمثّلت هذه النّعمة في كَوْنها آمنةً مطمئنّةً، وهذه نعمةٌ مادّيّة يحفظ الله ﷻ بها القالب الإنسانيّ، لكنّه ما يزال في حاجةٍ إلى ما يحفظ قِيَمه وأخلاقه، وهذه هي نعمة النّعم، وقد امتنَّ الله ﷻ عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولاً منهم، فما فائدة النّعم المادّيّة في بلدٍ مهزوزة القيم، مُنْحلّة الأخلاق، فجاءهم رسول الله ﷺ ليُقوِّم ما اعوجّ من سلوكهم، ويُصلح ما فسد من قِيَمِهم ومبادئهم.

﴿مِّنْهُمْ﴾: أي: من جنسهم، وليس غريباً عنهم، وليس من مُطْلق العرب، بل من قريشٍ أفضل العرب وأوسطها.

---

(١) صحيح البخاريّ: أبواب الاستسقاء، باب دعاء النّبيّ ﷺ: «**اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»، الحديث رقم (١٠٠٦).

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال، وبما اشتهر به ﷺ بينهم من الصّدق والأمانة، ولكنّهم كما كفروا بالنّعم المادّيّة كفروا أيضاً بالنّعم القيميّة متمثّلةً في رسول الله ﷺ.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: مَنِ الّذي أخذهم؟ لم تقُلْ الآية: (فأخذهم الله بالعذاب)، بل قالت: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، كأنّ العذابَ نفسه يشتاق إليهم، وينقضُّ عليهم، ويسارع لأخذهم، ففي الآية تشخيصٌ يُوحي بشدّة عذابهم، كما قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق].

(الآية ١١٤) - ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١١٤﴾:

قُلْنا: إنّ الرّسول ﷺ حينما اشتدّ الحال بأهل مكّة حتّى أكلوا القاذورات، كان يرسل إليهم ما يأكلونه من الحلال الطّيّب رحمةً منه ﷺ بهم فيقول سبحانه وتعالى:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: أنّ هذا الرّزق ليس من عندي، بل من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: ذلك لأنّهم كانوا قبل ذلك لا يتورّعون عن أكل ما حرّم الله سبحانه وتعالى، ولا عن أكل الخبيث، فأراد أن يُنبِّههم أنّ رِزْق الله سبحانه وتعالى لهم من الحلال الطّيّب الهنيء، فيبدلهم الحلال بدل الحرام، والطّيّب بدل الخبيث.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: وهنا إشارة تحذيرٍ لهم أنْ يقعوا فيما وقعوا فيه من قَبْل من جُحود النّعمة ونكْرانها والكفر بها، فقد جَرَّبوا عاقبة ذلك، فنزع الله سبحانه وتعالى

منهم الأمْنَ، وألبسهم لباسَ الخوف، ونزع منهم الشَّبَع ورَغَد العيش، وألبسهم لباس الجوع، فخذوا عبرةً ممّا سلف: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾.

(الآية ١١٥) - ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾: بعد أنْ قال الحقّ سبحانه وتعالى في الآية السّابقة: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾، أراد أن يُكرِّر معنىً من المعاني سبق ذكره في سورتَي البقرة والمائدة، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة]، وقال سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: من الآية ٣]، وهذه الأشياء كنتم تأكلونها وهي مُحرّمةٌ عليكم، والآن ما دُمْنا ننقذكم، ونجعل لكم معونةً إيمانيّةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلوا هذه الأشياء حلالاً طيّباً، ولكن، لماذا كرَّر هذا المعنى هنا؟ التّكرار هنا لأمرين:

الأوّل: أنّه سبحانه وتعالى لا يريد أنْ يعطيهم صورةً عامّةً بالحكم، بل صورةً مُشخَّصةً بالحالة، فهم كانوا في حالة جوعٍ، ولكن بيّن لهم أنّ الإسلام يُحرِّم الميتة، فأوضح لهم أنّكم بعد ذلك ستأكلون الحلال الطّيّب.

ثانياً: أنّ النّصّ يختلف، ففي سورة البقرة قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٣]، وهنا قال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾، وليس هذا من قبيل

التّفنُّن في الأسلوب، بل المعنى مختلفٌ تماماً؛ ذلك لأنّ الإهلال هو رَفْع الصّوت عند الذّبح، فكانوا يرفعون أصواتهم عند الذّبح، ولكن يقولون: باسم اللّات، أو باسم العُزّى، فيُهلّون بأسماء الشّركاء الباطلين، ولا يذكرون اسم الله ﷻ الوهّاب، فمرَّةً يُهلُّون به لغير الله ﷻ، ومرّةً يُهِلُّون لغير الله ﷻ به، كيف ذلك؟ قالوا: لأنّ الذَّبْح كان على نوعين: مرّةً يذبحون للتّقرُّب إلى الأصنام، فيكون الأصل في الذّبح أنّه أُهِلَّ لغير الله ﷻ به؛ أي: للأصنام، ومرَّة يذبحون ليأكلوا دون تقرُّبٍ لأحد، فالأصل فيه أنّه أُهِلَّ به لغير الله ﷻ، فتكرار الآية لحكمةٍ، وسبحان مَنْ هذا كلامه.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾: الاضطرار: ألّا تجد ما تأكله، والحقّ ﷻ يعطينا هنا رخصةً عندما تكون هناك ضرورة أن نأكل من هذه الأشياء المحرَّمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسُدُّ الجوع، فمَعنى: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾؛ أي: غير مُتجاوزٍ للحدِّ، فلو اضطررْتَ وعندك مَيْتةٌ وعندك طعامٌ حلالٌ، فلا يصحّ أن تأكل الميتة في وجود الحلال.

﴿وَلَا عَادٖ﴾: أي: ولا مُعْتَدٍ على القدر المرخَّص به، وهو ما يمسك الحياة ويسُدُّ الجوع فقط، دون شِبَع منها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: وفي سورة البقرة قال ﷻ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: من الآية ١٧٣]، فالمعنى واحد، ولكن هنا ذكر المغفرة والرّحمة، وهناك ذكر سببهما، وتجد الإشارة هنا إلى ما يتشدَّق به بعض الملاحدة الّذين يبحثون في القرآن الكريم عن مَغْمزٍ، فيقولون: بما أنّ الله ﷻ حرَّم هذه الأشياء، فما فائدتها في الكون؟ نقول: أتظنّون أنّ كلّ موجودٍ في

الكون وُجِد ليُؤكل، أليس له مهمّةٌ أخرى؟ ومن ورائه مصلحةٌ أخرى غير الأَكْل، فإنْ حرَّم الإسلام أكْله فقد أباح الانتفاع به من وجهٍ آخر، فالخنزير مثلاً حَرَّم الله ﷻ أكْله، ولكن خَلقه لمهمّةٍ أخرى، وجعل له دَوْراً في نظافة البيئة، حيث يلتهم القاذورات، فهو بذلك يُؤدِّي مهمّةً في هذه الحياة، وكذلك يجب أنْ نعلمَ أنّ الحقّ ﷻ ما حرَّم علينا هذه الأشياء إلّا لحكمةٍ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادّيّ وتجاربه ما يُقرِّب له المعاني القيميّة الدّينيّة، والشّيء المحرَّم قد يكون مُحرَّماً في ذاته كالميتة لما فيها من ضررٍ، وقد يكون حلالاً في ذاته، ولكنّه مُحرَّمٌ بالنّسبة إلى شخصٍ معيّنٍ، كأن يُمنَع المريض من تناول طعامٍ ما؛ لأنّه يضرُّ بصحّته أو يُؤخِّر شفاءه، وهو تحريمٌ طارئٌ لحين زوال السّبب، وصورةٌ أخرى للتّحريم، وهي أن يكون الشّيء حلالاً في ذاته ولا ضررَ في تناوله، ومع ذلك تحرّمه عقوبةً، كما تفعل في معاقبة الطّفل إذا أساء فتحرمه من قطعة الحلوى مثلاً، فللتّحريم أسبابٌ كثيرةٌ، سوف نرى أمثلةً منها قريباً.

(الآية ١١٦) - ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾: تُظهِره على أوضح وجوهه، فليس كلامهم كذباً فقط، بل صفته، فمَنْ لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء، والمراد بالكذب هنا قولهم:

﴿هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾: فهذا كذبٌ وافتراءٌ على الله ﷻ؛ لأنّه وحده صاحب التّحليل والتّحريم، فإيّاك أنْ تُحلّل شيئاً من عند نفسك، أو تُحرّم شيئاً حَسْب هواك؛ لأنّ هذا افتراءٌ على الله ﷻ: ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾: فإن انطلى الكذب على بعض النّاس، فأخذوا من ورائه منفعةً عاجلةً، فبعد قليلٍ سيُفتضح أمرهم، وينكشف كذبهم، وتنقطع مصالحهم بين الخلق.

ويصف الحقّ ﷻ ما يأخذه هؤلاء من الدّنيا بأنّه:

(الآية ١١٧) - ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾:

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾: أي: ما أخذتموه بكذبكم وافترائكم على الله ﷻ متاعٌ قليلٌ زائلٌ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقي الّذي قال الله ﷻ عنه: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النّحل: من الآية ٩٦]، ليس هذا فقط بل: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

(الآية ١١٨) - ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾:

بعد أن تكلّمت الآيات فيما أحلَّ الله ﷻ وفيما حرَّم، وبيَّنتْ أنّ التّحليل أو التّحريم لله ﷻ، جاءت لنا بصورةٍ من التّحريم، لا لأنّ الشّيء ذاته مُحرَّم، بل هو مُحرَّمٌ تحريم عقوبةٍ، كالّذي مثّلْنا له سابقاً بحرمان الطّفل من الحلوى عقاباً له على سُوء فِعْله.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾: الّذين هم اليهود عاقبهم الله ﷻ بتحريم هذه الأشياء، مع أنّها حلالٌ في ذاتها، وهذا تحريمٌ خاصٌّ بهم كعقوبةٍ لهم.

﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾: المراد ما ذُكِر في سورة الأنعام من قوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام]، ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾: هو الحيوان ليس منفرجَ الأصابع، و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾: هي المصارين والأمعاء، ونرى أنّ هذه الأشياء كلّها المذكورة في الآية حلالٌ في ذاتها، ومُحلَّلةٌ لغير اليهود، ولكنّ الله ﷻ حرَّمها عليهم عقوبةً لهم على ظلمهم وبغيهم، كما قال ﷻ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾ [النّساء]؛ أي: بسبب ظلمهم حرَّمنا عليهم هذه الطّيّبات؛ ذلك لأنّ مَنْ أخذ حكماً افتراءً على الله ﷻ فحرَّم ما أحلَّ الله ﷻ، أو حلَّل ما حرَّم الله ﷻ لا بُدَّ أنْ يُعاقبَ بمثله، فيُحرِّم عليه ما أُحِلّ لغيره، وقد وقع الظّلم من اليهود؛ لأنّهم اجترؤوا على حدود الله ﷻ وتعاليمه، وأوّل الظّلم وقمّته الشّرك بالله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: من الآية ١٣]، والظّلم نَقْل الحقّ من صاحبه إلى غيره، ومن ظلمهم: ما قالوه لموسى ﵇ بعد أن عبر بهم البحر، ومرُّوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم، فقالوا: يا موسى، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال ﷻ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: من الآية ١٣٨]، ومن ظلمهم: أنّهم عبدوا العجل من دون الله ﷻ، ومن ظلمهم لموسى ﵇: أنّهم لم يؤمنوا به، كما قال ﷻ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: من الآية ٨٣]، ومن

ظلمهم: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾ [النّساء: من الآية ١٦١]، فبسبب ظلمهم وأخذهم غير حَقِّهم حرَّم الله ﷻ عليهم أشياء كانت حلالاً لهم.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً، وحرموها من المتعة الحقيقيّة الباقية.

(الآية ١١٩) - ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩﴾:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: الله ﷻ يعطي عبده فرصةً، ويفتح له باب التّوبة والرّجاء، فمن رحمته ﷻ بعباده أنْ شرع لهم التّوبة من الذّنوب، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم، ولو أغلق ﷻ باب التّوبة لَتحوَّل المذنب ولو لمرّةٍ واحدةٍ إلى مجرمٍ يُعربد في المجتمع، وبفتح باب التّوبة يقي الله ﷻ المجتمع من هذه العربدة، ويبيّن الرّسول الكريم ﷺ مكانة التّوبة فيقول: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»(١).

وقوله ﷻ في بداية الآية: ﴿ثُمَّ﴾: تدلُّ على كثرة ما تقدّم من ذنوبٍ،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب التّوبة، باب في الحضّ على التّوبة والفرح بها، الحديث رقم (٢٧٤٧).

ومع ذلك غفرها الله ﷻ لهم لِيُبيِّن للإنسان البَوْن الشّاسع بين رحمة الله ﷻ وإصرار العُصَاة على الكفران بالله ﷻ، وعلى المعصية.

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: أي: بطيشٍ وحُمْقٍ وسَفَهٍ، وتدخل جميعها في الجهل، بمعنى أنْ تعتقد شيئاً وهو غير واقعٍ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم، إنّما الجاهل مَنْ كانت لديه قضيّةٌ مخالفةٌ للواقع وهو متمسِّكٌ بها، والمراد أن ينظر إلى خيرٍ عاجلٍ في نظره، ويترك خيراً آجلاً في نظر الشّرع، وقد ورد هذا المعنى في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النّساء: من الآية ١٧]، وكلمة: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: تعني في لحظة سَفَهٍ وطيْشٍ، فالعاصي يعلم الحكم تماماً، ولكنّه في غفلةٍ عنه، وعدم تبصُّرٍ بالعواقب، ولو فكَّر في عاقبة الأمر ما تجرَّأ على المعصية، لذلك نقول: إنّ صاحب المعصية لا يُقدِم عليها إلّا في غيبة العقل، ولذلك قال ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]، ولو استحضر قسوة الجزاء ما أقدم على معصيته، ولكنّ السّفه والطّيْش غلّف الجزاء وستره عنه.

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾: والتّوبة هنا هي التّوبة النّصوح الصّادقة، الّتي ينوي صاحبها الإقلاع عنها وعدم العَوْدة إليها مرّةً أخرى، ويعزم على ذلك حال توبته، فإذا فعل ذلك قَبِل الله ﷻ منه وتاب عليه، ولا يمنع ذلك أن يعود للذّنب مرّةً أخرى إذا ضعُفَتْ نفسه عن المقاومة، فإنْ عاد عاد إلى التّوبة

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الحدود، باب لا يُشْرَبُ الخمر، الحديث رقم (٦٧٧٢).

من جديد؛ لأنّ الله ﷻ من أسمائه: (التّوّاب)؛ أي: كثير التّوبة، ولم يقل: تائبٌ، بل: توّاب، فلا تنقطع التّوبة في حقّ العبد مهما أذنب، وعليه أنْ يُحدِث لكلّ ذنبٍ توبةً، بل وأكثر من ذلك، إذا تاب العبد وأحسن التّوبة، وأتى بالأعمال الصّالحة بدلاً من السّيّئة، منَّ الله ﷻ عليه بأن يُبدِّلَ سيّئاته حسنات، وهذه معاملة ربٍّ كريمٍ غفورٍ رحيمٍ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: فيه إشارةٌ إلى حرص النّبيّ ﷺ علينا، وسروره بأن يغفر الله ﷻ لنا، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ أي: يا محمّد، إنّ ربّك غفورٌ رحيمٌ، فكأنّه ﷻ يمتنُّ على نبيّه ﷺ أنّه سيغفر للمذنبين من أمّته، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: جَاءَ حَبِيبُ بْنُ الْحَارِثِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَجُلٌ مِقْرَافٌ لِلذُّنُوبِ؟ قَالَ: «**فَتُبْ إِلَى اللهِ يَا حَبِيبُ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَتُوبُ ثُمَّ أَعُودُ؟ قَالَ: «**فَكُلَّمَا أَذْنَبْتَ فَتُبْ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذاً تَكْثُرُ ذُنُوبِي؟ فَقَالَ: «**فَعَفْوُ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ ذُنُوبِكَ يَا حَبِيبَ بْنَ الْحَارِثِ**»(١).

(الآية ١٢٠) - ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾:

بعد أن ذكرتْ الآيات طرفاً من سيرة اليهود، وطرفاً من سيرة أهل مكّة تعرَّضتْ لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام، والسّؤال: لماذا إبراهيم عليه السلام بالذّات دون سائر الأنبياء؟ ذلك لأنّه أبو الأنبياء، وجميعهم

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، من اسمه: محمّد، الحديث رقم (٥٢٥٧).

يتحدّثون أنّهم من نسل إبراهيم عليه السلام، والرّسالات كلّها الّتي أتت بعد سيّدنا إبراهيم عليه السلام تنسب نفسها إليه، فجاءت الآية الكريمة تحلّل شخصيّته عليه السلام، وتُوضِّح صفاته، وتردُّ وتُبطِل مزاعم اليهود في إبراهيم عليه السلام، وصفاته هي:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: الأُمَّةُ في معناها العامّ: الجماعة، وسياق الحديث هو الّذي يُحدِّد عددها، فنقول مثلاً: أمّة الشّعراء؛ أي: جماعة الشّعراء، وقد تكون الأمّة جماعةً قليلة العدد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: من الآية ٢٣]، فسُمّي جماعةٌ من الرّعاة الّذين كانوا موجودين حينها أمّة؛ لأنّهم خرجوا لغرضٍ واحدٍ، وهو سَقْي دوابّهم، وتُطلَق الأمّة على جنسٍ في مكان، كأمّة العرب، أمّة الرّوم، أمّة الفرس.. إلخ، وقد تُطلِق على جماعةٍ تَتْبَعُ نبيّاً من الأنبياء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: من الآية ٢٤]، وحين نتوسّع في معناها نجدها في رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم تشمل الأمم جميعها؛ لأنّه صلى الله عليه وسلم أُرسِل إلى النّاس كافّة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: من الآية ٩٢]؛ أي: جامعة للأمم كلّها، فالمعنى أنّ إبراهيم عليه السلام يقوم مقام أمّة كاملة؛ لأنّ الكمالات المطلقة لله سبحانه وتعالى وحده، والكمالات الموهوبة من الله عز وجل لخلْقه في الرّسل هي كمالاتٌ بشريّةٌ موهوبةٌ من الله سبحانه وتعالى، أمّا ما دون الرّسل فقد وُزِّعت عليهم هذه الكمالات، فأخذ كلّ إنسانٍ واحداً منها، فهذا أخذ الحلم، وهذا الشّجاعة، وهذا الكرم.. إلخ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلّا في الرّسل الكرام، فإذا نظرنا إلى إبراهيم عليه السلام وجدنا فيه من المواهب ما لا يُوجد إلّا في أمّةٍ كاملةٍ، كذلك كان رسولنا محمّد صلى الله عليه وسلم حينما حَدَّد موقعه بين رسالات الله سبحانه وتعالى في الأرض،

يقول: «الخَيْرُ فيَّ وَفِي أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]؛ «الخَيْرُ فيَّ»: هذا هو الكمال البشريّ الّذي أعطاه الله ﷻ إيّاه، «وَفِي أُمَّتِي»: أي: أنّ كلّ واحدٍ منهم أخذ جزءاً من هذا الكمال، فكأنّ كماله ﷺ مُبعثرٌ في أمّته كلّها، لذلك حين نتتبّع تاريخ إبراهيم عليه السلام في كتاب الله ﷻ نجد كلّ موقفٍ من مواقفه يُعطِينا خَصْلةً من خصال الخير، وصِفةً من صفات الكمال، فإذا جمعنا هذه الصّفات وجدناها لا توجد إلّا في أمّةٍ بأسْرها، فهو إمامٌ وقدوةٌ جامعةٌ لخصال الخير كلّها، وأنّه عليه السلام يقوم مقام أمّة في عبادة الله ﷻ وطاعته.

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾: أي: خاشعاً خاضعاً لله ﷻ في عبادته.

﴿حَنِيفًا﴾: الحنف في الأصل: الميْل، وقد جاء إبراهيم عليه السلام والكون على فسادٍ واعوجاجٍ في تكوين القيم، فمالَ إبراهيمُ عليه السلام عن هذا الاعوجاج، وحَادَ عن هذا الفساد، والله ﷻ لا يبعث الرّسل -عليهم السّلام- إلّا إذا عَمَّ الفساد، فميْله عن الاعوجاج والفساد، معناه أنّه كان مستقيماً معتدلاً على الدّين الحقّ، مائلاً عن الاعوجاج، حائداً عن الفساد.

ثمّ يُنهي المولى ﷻ الآية بقوله:

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: وهذه هي الصّفة الرّابعة لخليل الله إبراهيم عليه السلام بعد أن وصفه بأنّه كان أمّةً قانتاً لله حنيفاً، وجميعها تنفي عنه الشّرك بالله عز وجل، فما فائدة نَفْي الشّرك عنه مرّةً أخرى في قوله:﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؟! يجب أنْ نُفرّق بين أنواع الشّرك، فمنه الشّرك الأكبر، وهو أن تجعل لله ﷻ شركاء، وهو

(١) المقاصد الحسنة للسّخاويّ: حرف الخاء المعجمة، الحديث رقم (٤٦٨).

القمّة في الشّرك، ومنه الشّرك الخفيّ، بأن تجعل للأسباب الّتي خلقها الله ﷻ دَخْلٌ في تكوين الأشياء، فالآية هنا: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: الشّرك الخفيّ، عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه قال: بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ رأيت بوجهه أمراً ساءني فقلت: بأبي وأمّي يا رسول الله، ما الّذي أرى بوجهك؟ قال: «**أَمْرٌ أَتَخَوَّفُهُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي**»، قلت: وما هو؟ قال: «**الشِّرْكُ وَشَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ**»، قال: قلت: يا رسول الله، أتُشرك أمّتك من بعدك؟ قال: «**يَا شَدَّادُ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَا وَثَناً وَلَا حَجَراً، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّيَاءُ شِرْكٌ هُوَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»[1]، فعندما تعمل عملاً تريد منه غير الله ﷻ فهذا شركٌ خفيٌّ، فالأوصاف السّابقة نفتْ عنه الشّرك الأكبر، فأراد ﷻ أن ينفي عنه شركَ الأسباب أيضاً، وهو دقيقٌ خفيٌّ، ولذلك عندما أُلقِيَ عليه السلام في النّار لم يلتفت إلى الأسباب وإنْ جاءت على يد الملَك جبريل عليه السلام، فقال له حينما عرض عليه المساعدة: أمّا إليك فلا، وأمّا إلى ربّي فعلمه بحالي يكفي عن سؤالي، فكانت النّتيجة: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء].

(الآية ١٢١) - ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١﴾:

﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾: فيه تلميحٌ لأهل مكّة الّذين جحدوا نعمة الله ﷻ وكفروها، وكانت بلدهم آمنةً مطمئنّةً، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود، وأنتم

(١) المستدرك على الصّحيحين للحاكم: ج٤، ص/٣٦٦، الحديث رقم (٧٩٤٠).

تدَّعُون أنّكم على ملّة إبراهيم ، فإبراهيم لم يكن كذلك، بل كان شاكراً لله على نعمه.

﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾: اصطفاه واختاره للنّبوّة، واجتباء إبراهيم كان عن اختبارٍ، كما قال : ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٤]؛ أي: اختبره ببعض التّكاليف، فأتمّها إبراهيم على أكمل وجهٍ، فقال له ربّه : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٤].

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: كيف ذلك؟! بعد هذه الأوصاف الإيمانيّة كلّها تقول الآيات: ﴿وَهَدَىٰهُ﴾، أليست هذه كلّها هداية؟ نقول: المراد زاده هدايةً؛ أي: هداية المعونة، كما قال : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد].

(الآية ١٢٢) - ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾:

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾: يُبيّن الحقّ أنّ جزاء إبراهيم عظيمٌ في الدّنيا قبل جزاء الآخرة، والمراد بحسنة الدّنيا محبّة أهل الأديان له، وكثرة الأنبياء -عليهم السّلام- في ذرّيّته، والسّيرة الطّيّبة، والذّكر الحسن، وكلّما صلّينا على سيّدنا رسول الله قلنا: اللّهمّ صلِّ على سيّدنا محمّدٍ وعلى آل سيّدنا محمّدٍ كما صلّيت على سيّدنا إبراهيم وعلى آل سيّدنا إبراهيم.. فالذّكر الحسن إلى الآن، وها نحن نتحدّث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتزّ به، وهذا العطاء من الله لإبراهيم في الدّنيا؛ لأنّه بَالَغَ في طاعة ربّه وعبادته، وقد طلب

إبراهيم عليه السلام من ربّه جل جلاله هذه المكانة، فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشّعراء]، ﴿حُكۡمٗا﴾: أي: حكمة أضع بها الأشياء في مواضعها، و﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾: هو الذّكر الطّيّب والثّناء الحسن بعد الموت.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: فإنْ كان هذا جزاء إبراهيم عليه السلام في الدّنيا، فلا شكَّ أنّ جزاء الآخرة أعظم.

(الآية ١٢٣) - ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾:

الآيات السّابقة تحدّثت عن سيّدنا إبراهيم عليه السلام بأنّه كان أمّةً قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعم الله عز وجل، اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم.. إلخ.

﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾: يا محمّد.

﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾: كأنّ قمّة مناقب إبراهيم عليه السلام وحسناته أنّنا أوحينا إليك يا خاتم الرّسل أن تتبع ملّته، وملّة إبراهيم: أي: شريعة التّوحيد.

ثمّ يُؤكّد الحقّ سبحانه وتعالى براءة إبراهيم عليه السلام من الشّرك فيقول: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

(الآية ١٢٤) - ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾:

بعد أن تحدَّث المولى سبحانه وتعالى عن سيّدنا إبراهيم أبي الأنبياء، وذكر جانباً من

صفاته ومناقبه تكلَّم عن بني إسرائيل في قضيّةٍ خالفوا فيها أمر الله ﷻ بعد أن طلبوها بأنفسهم، وكأنّ القرآن الكريم يقول لهم: لقد زعمتم أنّ إبراهيم ؈ كان يهوديّاً، فها هي صفات إبراهيم، فماذا عن صفاتكم أنتم؟ أين أنتم من إبراهيم ؈؟! ويعطينا الله ﷻ مثالاً عن مخالفتهم لربّهم فيما يأمر به، وأنّهم ليسوا كإبراهيم ؈ في اتّباعه، فيذكر ما كان منهم في أمر السّبت.

﴿ٱلسَّبۡتُ﴾: هو يوم السّبت المعروف التّالي للجمعة السّابق للأحد، والسّبت مأخوذٌ من سَبَتَ يَسْبِت سَبْتاً، يعني: سكن واستقرَّ، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩﴾ [النّبأ]، ذلك أنّ بني إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل، ويتفرّغون فيه لعبادة الله ﷻ، وقد اقترح عليهم نبيّهم موسى ؈ أن يكون يوم الجمعة، فهو اليوم الّذي أتمَّ الله ﷻ فيه خَلْق الكون في ستّة أيّامٍ، وهو اليوم الّذي اختاره الخليل إبراهيم ؈، ولكنّهم رفضوا الجمعة واختاروا يوم السّبت، وقالوا: إنّ الله ﷻ خلق الدّنيا في ستّة أيّامٍ بدأها بيوم الأحد، وانتهى منها يوم الجمعة، وارتاح يوم السّبت -وكأنّ الله ﷻ يتعب ويرتاح- سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرّغ لعبادة الله ﷻ يوم السّبت، وهكذا كانت رغبتهم واختيارهم، أمّا أمّة محمّد ﷺ فقد اختار الله ﷻ لها يوم الجمعة، فاليهود طلبوا يوم السّبت واختاروه للرّاحة من العمل والتّفرّغ للعبادة، فهذا مطلبهم، وقد وافقهم ربُّهم ﷻ عليه، وأمرهم أنْ يتفرّغوا لعبادته في هذا اليوم، ووافقهم ليكون دليلاً عليهم بأنّهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم، فلو اختار لهم يوماً آخر لاعترضوا عليه كعادتهم، ولكن ها هم يختارونه بأنفسهم، كما أنّ قصّة السّبت مع اليهود جاءت لتخدم قضيّةً

عقديّةً عامّةً، هي أنّ الآيات الّتي تأتي مُصدِّقةً للرّسل في البلاغ عن الله سبحانه وتعالى قد تكون من عند الله عزَّ وجلَّ وباختياره سبحانه وتعالى، وقد تكون باختيار المرسَل إليهم أنفسهم، وقد كان من بني إسرائيل أنْ كذَّبوا بهذه وهذه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]؛ أي: لكونهم يقترحون الآية ثمّ يُكذِّبونها، وقصّة السّبت ذُكِرَتْ في مواضع كثيرةٍ، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف].

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله سبحانه وتعالى كعادتهم، وأخلفوا ما التزموا به، وذهبوا للصّيد في يوم السّبت، فكانت تأتيهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشّراع، ولا ينتفعون منها بشيءٍ إلّا الحسرة والأسف، فيقولون: لعلّها تأتي في الغد، فيخيّب الله سبحانه وتعالى رجاءهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٦٣]، لا تأتيهم تنكيلاً بهم، وقد سمَّى القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً؛ لأنّهم اعتدوا على ما شرع الله سبحانه وتعالى، قال جلَّ جلاله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة].

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾: كلمة: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾ تُوحي بوجود طائفتين متناقضتين في هذه القضيّة، والحقيقة أنّ الخلاف لم يكُنْ بين اليهود بعضهم بعضاً، بل بينهم وبين نبيّهم موسى عليه السلام الّذي اختار لهم يوم الجمعة، فخالفوه واختاروا السّبت، فجعل الله سبحانه وتعالى الخلاف عليهم، فالمعنى: إنّما جُعِل

السّبت حُجّةً على الّذين اختلفوا فيه؛ لأنّه أثبت عدوانهم على يوم العبادة، فبعد أن اقترحوه واختاروه انقلب حُجّةً عليهم، ودليلاً لإدانتهم، ولو تأمّلنا قوله ﷻ: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾، نجد أنّ كلمة: ﴿عَلَى﴾ تدلُّ على الفوقيّة، فكأنّ السّبت جاء ضدّ مصلحتهم، وكأنّ خلافهم مع نبيّهم موسى عليه السلام انقلب عليهم.

(الآية ١٢٥) - ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

بعد أن تحدثتْ الآيات عن النّموذج الإيمانيّ الأعلى في الإنسان في شخص أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وجعلتْ من أعظم مناقبه عليه السلام أنّ الله ﷻ أمر خاتم رسُله ﷺ باتّباعه، أخذتْ في بيان الملامح العامّة لمنهج الدّعوة إلى الله ﷻ.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: الحقّ ﷻ لا يُوجّه هذا الأمر بالدّعوة إلى رسوله ﷺ إلّا وهو يعلم أنّه سيُنفِّذ ما أُمِر به، وسيقوم بأمر الدّعوة، ويتحمّل مسؤوليّتها.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ﴾: بمعنى دُلَّ النّاس وأرشدهم.

﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: السّبيل هو الطّريق والمنهج.

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: الحكمة: وَضْع الشّيء في موضعه المناسب، ولكن لماذا تحتاج الدّعوةُ إلى الله ﷻ حكمةً؟ لأنّك لا تدعو إلى منهج الله ﷻ إلّا مَنِ انحرف عن هذا المنهج، ومَنِ انحرف عن منهج الله ﷻ تجده أَلِف المعصية وتعوّد عليها، فلا بُدَّ لك أنْ ترفقَ به لِتُخرجه عمّا أَلِفَ، وتقيمه على المنهج

الصّحيح، فالشّدّة والعنف في دعوة الدّين تنفّره؛ لأنّك تجمع عليه شدّتين: شدّة الدّعوة والعنف فيها، وشدّة تَرْكه لما أحبَّ وما أَلِفَ من أساليب الحياة، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلَك اللِّين والرِّفق والحكمة، وأحسنت عَرْض الدّعوة عليه طاوعك في أنْ يترك ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهيّ، ومعلومٌ أنّ النّصْح في عمومه ثقيلٌ على النّفس، وخاصّةً في أمور الدّين، فإيّاك أن تُشعِر مَنْ تنصحه أنّك أعلم منه أو أفضل منه، إيّاك أن تواجهه بما فيه من النّقص، أو تحرجه أمام الآخرين؛ لأنّ هذه التّصرّفات من الدّاعية إلى الله ﷻ لا تأتي إلّا بنتيجةٍ عكسيّةٍ، فهذه الطّريقة تُثير حفيظة النّاس، وربّما دَعَتْهم إلى المكابرة والعناد، وهذه الطّريقة في الدّعوة هي المرادة من قوله ﷻ: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، ويُروى في مقام الدّعوة إلى الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة قصّةٌ دارت بين الحسن والحسين رضي الله عنهما، هذه القصّة تجسيدٌ صادقٌ لما ينبغي أنْ يكون عليه الدّاعية إلى الله عز وجل، فيُروى أنّهما رَأيَا رجلاً لا يُحسِن الوضوء، وأرادا أنْ يُعلِّماه الوضوءِ الصّحيح دون أنْ يجرحَا مشاعره، فما كان منهما إلّا أنّهما افتعلا خصومةً بينهما، كلٌّ منهما يقول للآخر: "أنت لا تُحسِن أنْ تتوضّأ"، ثمّ تحاكما إلى هذا الرّجل أنْ يرى كلّاً منهما يتوضّأ، ثمّ يحكم: أيّهما أفضل من الآخر، وتوضّأ كلٌّ منهما فأحسن الوضوء، بعدها جاء الحُكْم من الرّجل يقول: "كلّ منكما أحسن، وأنا الّذي ما أحسنْتُ"، إنّه الوعظ في أعلى صورةٍ، والقدوة في أحكم ما تكون، مثالٌ آخر للدّعوة يضربه لنا الرّسول ﷺ، حينما أتاه شابٌّ في فَوْرة شبابه، يشتكي من أشرس الغرائز، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتىً شَابّاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ

فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ.. مَهْ، فَقَالَ: «ادْنُهْ»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[1]، هكذا تجرّأ الشّابّ ولم يُخْفِ عِلّته، وهكذا لجأ إلى الطّبيب ليطلب الدّواء صراحةً، ومعرفة العلّة أوّلَ خطوات الشّفاء، فماذا قال رسول الله ﷺ؟ هل نهره؟ لننظر إلى منهج الدّعوة، كيف يكون، وكيف استلَّ رسول الله ﷺ داء الزّنا من نفس الشّابّ؟ فلم يزجره، ولم ينهره، ولم يُؤذه، بل أخذه وربَّت على كتفه في لطفٍ ولينٍ، فلنتأمّل هذا التّلطُّف في بيان الحكم الصّحيح، فمعالجة الأدواء في المجتمع تحتاج إلى فقهٍ ولباقةٍ ولينٍ وحكمةٍ وحُسْن تصرّفٍ، إنّنا نرى حتّى أولئك الّذين لا يؤمنون حينما يصنعون دواءً مُرّاً يغلّفونه بغُلافة رقيقة حُلْوة المذاق ليستسيغه

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: تتمّة مسند الأنصار، حديث أبي أُمامة الباهليّ، الحديث رقم (٢٢٢١١).

المريض، ويسهل عليه تناوله، وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب في هذه المسألة، ويقول أهل الخبرة في الدّعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ: النّصح ثقيلٌ فلا تُرْسِله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، والحقائق مُرّةٌ فاستعيروا لها خِفّة البيان.

وكان ﷺ إذا سمع عن شيءٍ لا يُرضيه من ذنبٍ أو فاحشةٍ في مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشّريف، ويقول: ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا، أو فعلوا: كذا وكذا.. ويكتفي بالتّوجيه العامّ دون أنْ يجرحَ أحداً من النّاس.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾: والجدل مناقشة الحجج في قضيّةٍ من القضايا، وعلى كُلٍّ من الطّرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالّتي هي أحسن؛ أي: في رفقٍ ولينٍ ودون تشنُّجٍ أو غَطْرسةٍ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: النّتيجة هي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾ [الغاشية]، فالنّتيجة: أنّه مطلوبٌ منك الجدال بالّتي هي أحسن، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الأعلم بمن ضلّ عن سبيله وكُتب عليه الضّلال، وهو أعلم بمن اهتدى حقيقةً، فهذه قضايا قلوب وليست قضايا قوالب.

(الآية ١٢٦) - ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾:

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾: نلاحظ أنّ هذا المعنى ورد في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]، وبمقارنة الآيتين نرى أنّهما يقرّران المثليّة في ردّ الاعتداء: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا

عُوقِبْتُم بِهِۦۖ﴾، و﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾، فالحقّ ﷻ وإنْ شرع لنا الرّدّ على الاعتداء بالمثل، إلّا أنّه جعله صعباً من حيث التّنفيذ، فمن الّذي يستطيع تقدير المثليّة في الرّدّ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداءٍ، ودون زيادةٍ في العقوبة، وكأنّ في صعوبة تقدير المثليّة إشارة إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خيرٌ منها، كما قال ﷻ:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾: فقد جعل الله ﷻ في الصّبر سَعةً، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة، ومقاساة تقدير المثليّة فيها، فضلاً عمّا في الصّبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد، كما قال ﷻ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، وكما قيل:

يا من تأتيك العداوة مِنَ الّذي ومِنَ الّتي

ادفع فديتكَ بالّتي حتّى ترى: إذا الّذي

ففي ذلك دَفْعٌ لشراسة النّفس، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام، وقضاءٌ على الضّغائن والأحقاد.

﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾: الخيريّة هنا من وجوهٍ:

أوّلاً: في الصّبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات، وراحةٌ للمجتمع أن تفزعه سلسلةٌ لا تنتهي من العداوة.

ثانياً: مَنْ ظُلِم من الخلق، فصبر على ظلمهم، فقد ضمن أنّ الله ﷻ في جواره، ويجعله في معيّته وحفظه؛ لذلك قالوا: لو علم الظّالم ما أعدّه الله ﷻ للمظلوم لَضنَّ عليه بالظّلم، والمتتبّع لآيات الصّبر في القرآن الكريم يجد تشابهاً في تذييل بعض الآيات، يقول ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ

﴿ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: من الآية ١٧]، وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشّورى]، ولا ننسى أنّ المتكلّم هو الله ﷻ، فليس المعنى واحداً، فلكلّ حرفٍ هنا معنىً، والمواقف مختلفة، فلننظر إلى دِقّة التّعبير القرآنيّ، فالمصائب الّتي تُصيب الإنسان على نوعين:

النّوع الأوّل: هناك مصائبُ تلحق الإنسان بقضاء الله ﷻ وقدره، وليس له غريمٌ فيها، كمن أُصيب في صحّته أو تعرَّض لجائحةٍ في ماله، أو انهار بيته... إلخ، وفي هذا النّوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة، لكن لا ضغن فيها على أحدٍ، فالصّبر على هذه الأحداث قريبٌ؛ لأنّه ابتلاءٌ وقضاءٌ وقدر، فلا يحتاج الأمر بالصّبر هنا إلى توكيد، ويناسبه قوله ﷻ: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: من الآية ١٧].

أمّا النّوع الآخر: فهو المصائب الّتي تقع بفعل فاعلٍ، كالقتل مثلاً، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريمٌ لك، يُثير حفيظتك، ويهيّج غضبك، ويدعوك إلى الانتقام كلّما رأيته، فالصّبر في هذه أصعب، وحَمْل النّفس عليه يحتاج إلى توكيدٍ كما في الآية الثّانية: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشّورى]، فاستعمل هنا لام التّوكيد؛ لأنّ الصّبر هنا شاقٌّ، والفرصة مُتَاحَةٌ للشّيطان لِيُؤلّب القلوب، ويثير الضّغائن والأحقاد.

كما نلاحظ في الآية الأولى قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، وفي الثّانية قال: ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾؛ لأنّ أمامه غريماً، ويُحكى في قصّة اليهوديّ المرابي الّذي أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه في أجلٍ معلومٍ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسّداد في الوقت المحدّد أن يقطع رَطْلاً من لحمه، ووافق الرّجل، وعند موعد السّداد لم يستطع

الرّجل أداء ما عليه، فرفع اليهوديّ الأمر إلى القاضي وقَصَّ عليه ما بينهما من اتّفاقٍ، وكان القاضي صاحب فِطْنةٍ، فقال: نِعمَ العقد شريعة المتعاقدين، وأمر له بسكّين، وقال: خُذْ من لحمه رَطْلاً، ولكن في ضربةٍ واحدةٍ، وإنْ زاد عن الرّطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت، ولمّا رأى اليهوديّ مشقّة ما هو مُقْدِمٌ عليه آثر السّلامة وتصالح مع خصمه، والسّؤال الآن: ما علاقة هذه الآية: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾، بما قبلها: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]؟ الدّعوة إلى منهج الله سُبحانه وتعالى يلفت الإنسان خليفة الله سُبحانه وتعالى في أرضه أنْ يلتزمَ بمنهج الله عزّ وجلّ الّذي استخلفه، ووضع له هذا المنهج لِيُنظّم حركة حياته، والدّاعية يواجه هؤلاء الّذين يُفسدون في الأرض، ويحقّقون لأنفسهم مكاسب ومصالح على حساب غيرهم، ومَن يحقّق لنفسه مصلحةً على حساب غيره لا بُدَّ أن تكون له قوّةٌ وقدرةٌ، بها يطغى ويستعلي ويظلم، فإذا جاء منهج الله سُبحانه وتعالى ليعدّل حركة هؤلاء ويُخرجهم ممّا أَلِفُوه، وينزع منهم سلطان الطّغيان والظّلم، ويسلبهم هذا السّوط الّذي يستفيدون به، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا في وجهه، فقد جمع عليهم شدّة النّصح والإصلاح، وشدّة تَرْك المكاسب، فعلَى الدّاعية أن يتحلّى بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالّتي هي أحسن، فإذا ما تعدّى الأمر إلى الاعتداء عليه، واستشرى الفساد وغلبت شراسة الطّباع، فسوف نحتاج إلى أسلوبٍ آخر، وهو الصّبر، وفي قوله جلَّ وعَلا: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ تحذيرٌ أن يزيدَ الرّدّ على مثله، وبذلك يتعلّم الخصوم أنّك خاضعٌ لمنهجٍ ربّانيٍّ عادلٍ يستوي أمامه

الجميع، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإنّ العقاب بالمثل لا يتعدّاه، ولعلّ ذلك يلفتهم إلى أنّ الّذي أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها، بل هَدَّأَها ودعاها إلى العفو والصّفح، ليكون هذا أدعى إلى الهداية، وهذا التّوجيه الإلهيّ في تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجّه إلى أمّته ﷺ توجّه إليه في تصرُّفٍ خاصٍّ، لا يتعلّق بمؤمنٍ على عموم إيمانه، ولكن بمؤمنٍ حبيبٍ إلى رسول الله ﷺ، وصاحب منزلةٍ عظيمةٍ عنده، إنّه عمّه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيّد الشّهداء رضي الله عنه، فقد مثَّل به الكفّار في أُحُد، وشقَّتْ هندٌ بطنه، ولاكت كبده، فشقَّ الأمر على رسول الله ﷺ، وأثَّر في نفسه، وواجه هذا الموقف بعاطفتين: عاطفته الإيمانيّة، وعاطفة الرّحم والقرابة فهو عمّه الّذي آزره ونصره، ووقف إلى جواره، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَى حَمْزَةَ وَقَدْ مُثِّلَ بِهِ، قَالَ: «لَئِنْ ظَفَرْتُ بِقُرَيْشٍ لَأُمَثِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ مِنْهُمْ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾[1]، فالحقّ سبحانه وتعالى العادل الّذي أنزل ميزان العدل والحقّ في الخلق هَدَّأ من رَوْعه، وعدَّل له هذه المسألة ولأمّته من بعده، فقال: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾، والمتأمّل للأسلوب القرآنيّ في هذه الآية يلحظ فيها دعوةً إلى التّحنُّن على الخصم والرّأفة به، فالمتحدّث هو الله سبحانه وتعالى، فكلّ حرفٍ له معنى، فلا تأخذ الكلام على إجماله، ولكن تأمّل فيه فسوف تجد من وراء الحرف مُراداً وأنّ له مطلوباً، فلماذا قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنۡ﴾، ولم يستخدم: (إذا) مثلاً؟ ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ كأنّ المعنى: كان يجب ألّا تعاقبوا، أمّا

(١) سنن الدّار قطني: كتاب السّير، الحديث رقم (٤٢٠٤).

(إذا) فتُفيد التّحقيق والتّأكيد، والله ﷻ يريد أنْ يُحنِّن القلوب، ويضع ردَّ العقوبة بمثلها في أضيق نطاق، فهذه رحمة حتّى تضمن الأمن والسّلام بين البشريّة والنّاس، كما أنّ في قوله ﷻ: ﴿عَاقَبۡتُمۡ﴾ دليلٌ على أنّ ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوّةٍ واستعدادٍ، كما قال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٠]، كأنّه يقول: كونوا دائماً على استعدادٍ، وفي حال قوّةٍ تُمكّنكم من الرّدِّ إذا اعتُدِيَ عليكم، كما أنّ في وجود القوّة والاستعداد ما يردع العدوّ ويرهبه، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية، وبالقوّة والاستعداد يُحفظ التّوازن في المجتمع، فالقويّ لا يفكّر أحدٌ في الاعتداء عليه، وهذا ما نراه الآن بين دول العالم في صراعها المحموم حول التّسلُّح بأسلحةٍ فتّاكةٍ.

﴿مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾: نلاحظ هنا أنّ الرّدَّ على الاعتداء يُسمَّى عقوبةً، لكنّ الاعتداء الأوّل لماذا نُسمّيه أيضاً عقوبة؟ قالوا: هذه تسمَّى (المشاكلة)؛ أي: جاءت الأفعال كلّها على شاكلةٍ واحدةٍ، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: من الآية ٤٠]؛ لأنّ ردَّ السّيّئة لا يُسمَّى سيّئة، ولسائلٍ في هذه القضيّة أن يسأل: بما أنّ الإسلام يسعى في هذه المسألة إلى العفو، فلماذا لم يُقرِّره من البداية؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل؟ نقول: لأنّ المجتمع لا يكون سليم التّكوين إلّا إذا أَمِن كلّ إنسانٍ فيه على نفسه وعِرْضه وماله.. وهذا الأمن لا يتأتّى إلّا بقوّةٍ تحفظه، كما أنّ للمجتمع توازناً، هذا التّوازن في المجتمع لا يُحفَظ إلّا بقوّةٍ تضمن أداء الحقوق والواجبات، هي قوّة القانون والدّولة، وتضمن أن تكون حركة الإنسان في المجتمع دون ظلمٍ له، كما

أنّ للحقّ سبحانه وتعالى حكمةً ساميةً في تشريع العقوبة على الجرائم، فهدف الشّارع الحكيم أن يَحُدَّ من الجريمة، ويمنع حدوثها، فلو علم القاتل أنّه سيُقتل ما تجرّأ على جريمته، ففي تشريع العقوبة رحمةٌ بالمجتمع وحفظٌ لسلامته وأمْنه.

(الآية ١٢٧) - ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾:

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾: بعد أن ذكرتْ الآيات فضل الصّبر وما فيه من خيريّة، وكأنّ الآية السّابقة تمهّد للأمر هنا: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، ليأتمر الجميع بأمر الله سبحانه وتعالى، بعد أنْ قدَّم لهم الحيثيّات الّتي تجعل الصّبر شجاعةً لا ضعفاً، كمَا يقولون في الحكمة: من الشّجاعة أنْ تجبُنَ ساعةً، فإذا ما وسوس لك الشّيطان، وأغراك بالانتقام، وثارت نفسُك، فالشّجاعة أنْ تصبر ولا تطاوعهما.

﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾: من حكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته أنْ جعلك تصبر على الأذى؛ لأنّ في الصّبر خيراً لك، والله سبحانه وتعالى هو الّذي يُعينك على الصّبر، ويمنع عنك وسوسة الشّيطان وخواطر السّوء الّتي تهيّج الغضب، وتجرّ إلى الانتقام.

والله سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتّجه لإنفاذ أمره، فإذا علم ذلك من نيّته تولّى أمره وأعانه عليه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد]، وإيّاك أن تعتقد أنّ الصّبر من عندك أيّها الإنسان، فالله سبحانه وتعالى يريد منك أن تتّجه إلى الصّبر مجرّد اتّجاهٍ ونيّةٍ، وحين تتّجه إليه يُجنّد المولى سبحانه وتعالى لك الخواطر الطّيّبة الّتي تُعينك عليه وتُيسِّره لك وتُرضّيك به، فيأتي صبرك جميلاً، لا سخطَ فيه ولا اعتراضَ عليه.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: لقد امتنّ الله ﷻ على أمّة العرب الّتي استقبلتْ دعوة الله ﷻ على لسان رسوله ﷺ، بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم، يعرفون حَسبَه ونَسبَه وتاريخه وأخلاقه، وقد كان ﷺ مُحبّاً لقومه حريصاً على هدايتهم، كما قال ﷻ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التّوبة]؛ أي: تعزّ عليه مشقّتكم، ويؤلمه عَنَتكم وتعبكم، حريصٌ عليكم، يريد أن يستكمل لكم أنواع الخير كلّه، وقد قال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ»[(١)]، لذلك حزن رسول الله ﷺ على قومه لمّا رأى منهم الكفر والعناد والتّكبُّر عن قبول الحقّ، وهو يريد لهم الهداية والصّلاح، والله ﷻ هنا يُسلّي قلب النّبيّ ﷺ، ويقول له: لا تحزن عليهم ولا تُحمّل نفسك فوق طاقتها، فما عليك إلّا البلاغ، ويخاطبه ربّه في آيةٍ أخرى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف]؛ أي: لا تكن مُهْلكاً نفسَك أسَفاً عليهم.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾: الضّيق: تأتي بالفتح وبالكسر، ضِيْق، ضَيْق، والضّيق: أن يتضاءل الشّيء الواسع أمامك عمّا كنت تُقدّره، والضّيق يقع للإنسان على درجاتٍ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلدٍ آخر، وربّما ضاقت عليه الدّنيا كلّها، وفي هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه، فإذا ضاقتْ

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمّته، الحديث رقم (٢٢٨٤).

عليه نفْسه فقد بلغ أقصى درجات الضّيق، كما قال ﷻ عن الثّلاثة الّذين تخلّفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [التوبة: من الآية ١١٨]، فالحقّ ﷻ ينهى رسوله ﷺ أنْ يكون في ضيقٍ من مكر الكفّار؛ لأنّ الّذي يضيق بأمرٍ ما هو الّذي لا يجد في مجال فكره وبدائله ما يَخرج به من هذا الضّيق، إنّما الّذي يعرف أنّ له منفذاً ومَخْرجاً فلا يكون في ضَيْقٍ، فالمعنى: لا تَكُ في ضيقٍ يا محمّد، فالله ﷻ معك، سيجعل لك من الضّيق مخرجاً، ويردّ على هؤلاء مكرهم: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]، فلا كرب وأنت ربٌّ.

(الآية ١٢٨) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: هذه قضيّة معيّة الله ﷻ لمن اتّقاه، فمَنِ اتّقى الله ﷻ فهو في جواره ومعيّته، وإذا كنّا في معيّة ربّنا ﷻ فمَنْ يجرؤ أن يكيدنا، أو يمكرُ بنا؟! وفي رحلة الهجرة تتجلّى معيّة الله ﷻ وتتجسّد لنا في الغار، حينما أحاط بالرّسول ﷺ الكفّار، والصِّدِّيق ﷺ يقول له ﷺ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»(١)، المعنى: ما دام أنّ الله ﷻ ثالثهما فهما في معيّته ﷻ.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب أصحاب النّبيّ ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، الحديث رقم (٣٦٥٣).

﴿ٱتَّقَواْ﴾: التّقوى في معناها العامّ: طاعة الله ﷻ باتّباع أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾: الإحسان أعلى مراتب الدّين، وهذا واضحٌ في حديث جبريل عليه السلام حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فقال: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1]، فالمحسن: هو الّذي يُلزم نفسه في عبادة الله ﷻ بأكثر ممّا ألزمه الله تبارك وتعالى، ومن جنس ما ألزمه الله جل جلاله به.

❀ ❀ ❀

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: من الآية ٣٤]، الحديث رقم (٤٧٧٧).

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ الجزْءِ الرّابع عشر

الحمدُ لله الّذي جعلَ القُرآنَ نُوراً لا يُطْفَأُ مِصبَاحُهُ، وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُه، ومَنهَجاً لا يَضِلُّ سَالِكُهُ، وفُرقَاناً لا يَخمَدُ بُرهانُهُ، وبُنياناً لا تُهْدَمُ أحكامُهُ، وحَقّاً لا يُخْذَلُ أعوانُهُ.

اللّهمَّ اجعلنَا ممَّن تأدَّبَ بآدابِ القرآنِ الكريمِ، وائتمرَ بأوامرِه، وانتهى بنواهيه، والتمسَ غرائبَ علومِه، وخشَعَ لسماعِه، وخضعَ لكلامِه، وآمنَ بمتشابِهه، وعَمِلَ بمُحكَمِه، واستنَّ بسُنَّتِه، وحافظَ على واجباتِه، وعَمَّرَ بتلاوتِه جميعَ أوقاتِه، ولم يغفَلْ عن تلاوتِه في حالةٍ من حالاتِه.

سبحانَ ربّك ربِّ العزَّةِ عمَّا يصفونَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❀ ❀ ❀

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية **رقم الصّفحة**

تفسير سورة (الحِجر) من الآية: (١–٩٩):

١– ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ ١١

٢– ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ ١٥

٣– ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ ١٦

٤– ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾ ١٧

٥– ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾ ١٧

٦– ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ ١٧

٧– ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ ١٨

٨– ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ ١٨

٩– ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ ١٩

١٠– ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠﴾ ٢١

١١– ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١﴾ ٢٢

١٢– ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢﴾ ٢٩

١٣– ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ ٣٠

١٤– ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤﴾ ٣٠

١٥– ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾ ٣١

١٦- ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ ٣٢

١٧- ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾ ٣٣

١٨- ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ ٣٤

١٩- ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ ٣٦

٢٠- ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ ٣٨

٢١- ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ ٣٨

٢٢- ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ ٤٠

٢٣- ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ ٤٢

٢٤- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ ٤٤

٢٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾ ٤٥

٢٦- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ ٤٥

٢٧- ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ ٤٧

٢٨- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ ٤٨

٢٩- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ ٥٠

٣٠- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ ٥٠

٣١- ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ ٥١

٣٢- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ ٥٢

٣٣- ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ ٥٢

٣٤- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ ٥٣

٣٥- ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ ٥٣

٣٦- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ ٥٣

٣٧- ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧﴾ ٥٤

٣٨- ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ ٥٤

٣٩- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ ٥٤

٤٠- ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ ٥٦

٤١- ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ ٥٦

٤٢- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ ٥٧

٤٣- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣﴾ ٥٧

٤٤- ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ ٥٨

٤٥- ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ ٥٩

٤٦- ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ ٦٠

٤٧- ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ ٦٠

٤٨- ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ ٦١

٤٩- ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾ ٦١

٥٠- ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ ٦٢

٥١- ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١﴾ ٦٣

٥٢- ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾ ٦٤

٥٣- ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣﴾ ٦٦

٥٤- ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾ ٦٦

٥٥- ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ ٦٧

٥٦- ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ ٦٨
٥٧- ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧﴾ ٦٩
٥٨- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨﴾ ٦٩
٥٩- ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩﴾ ٧٠
٦٠- ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ ٧٠
٦١- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١﴾ ٧١
٦٢- ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢﴾ ٧١
٦٣- ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ ٧١
٦٤- ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾ ٧٢
٦٥- ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾
.... ٧٢
٦٦- ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ ٧٣
٦٧- ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ ٧٤
٦٨- ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ ٧٤
٦٩- ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾ ٧٥
٧٠- ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ ٧٥
٧١- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ ٧٥
٧٢- ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ ٧٦
٧٣- ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ ٧٧
٧٤- ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ ٧٧

٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ ٧٨
٧٦- ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾ ٧٨
٧٧- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ ٧٨
٧٨- ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ ٧٩
٧٩- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ ٧٩
٨٠- ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ ٨٠
٨١- ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ ٨١
٨٢- ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ ٨٢
٨٣- ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ ٨٢
٨٤- ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ ٨٣
٨٥- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ
ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ ٨٣
٨٦- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾ ٨٥
٨٧- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ ٨٦
٨٨- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾
.... ٨٨
٨٩- ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ ٩٠
٩٠- ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ ٩١
٩١- ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ ٩٢
٩٢- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢﴾ ٩٤

٩٣- ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ ٩٥

٩٤- ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ ٩٦

٩٥- ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ ٩٦

٩٦- ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ ٩٧

٩٧- ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ ٩٧

٩٨- ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾ ٩٩

٩٩- ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ ١٠١

تفسير سورة (النّحل) من الآية: (١-١٢٨):

١- ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ ١٠٩

٢- ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱتَّقُونِ ٢﴾ ١١٢

٣- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾ ١١٦

٤- ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾ ١١٧

٥- ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ ١١٩

٦- ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ ١١٩

٧- ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾
.... ١٢٠

٨- ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ ١٢١

٩- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ ١٢٢

١٠- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾
.... ١٢٣

١١- ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ ١٢٤

١٢- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ ١٢٥

١٣- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾
.... ١٢٧

١٤- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى
ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ ١٢٩

١٥- ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾ ١٣٣

١٦- ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ ١٣٤

١٧- ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ ١٣٥

١٨- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ ١٣٦

١٩- ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ ١٣٧

٢٠- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ ١٣٧

٢١- ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ ١٣٨

٢٢- ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾
.... ١٣٨

٢٣- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ ١٣٩

٢٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ ١٤٠

٢٥- ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾
.... ١٤١

٢٦- ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ
وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ ١٤٢

٢٧- ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ
إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ ١٤٣

٢٨- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ ١٤٥

٢٩- ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ ١٤٧

٣٠- ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ
خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾ ١٤٧

٣١- ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ
ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾ ١٥١

٣٢- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾
.... ١٥٢

٣٣- ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ
ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ ١٥٥

٣٤- ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ ١٥٦

٣٥- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن

دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ ١٥٧

٣٦- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾
.... ١٦٢

٣٧- ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ١٦٩

٣٨- ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ١٧٠

٣٩- ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ١٧٢

٤٠- ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ ١٧٣

٤١- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ١٧٤

٤٢- ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ١٨٠

٤٣- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾
.... ١٨١

٤٤- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾
.... ١٨٤

٤٥- ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ١٨٨

٤٦- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ١٩٠

٤٧- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ ١٩١

٤٨- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾
.... ١٩٣

٤٩- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ... ١٩٧

٥٠- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ ٢٠٠

٥١- ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ ٢٠٢

٥٢- ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٢٠٦

٥٣- ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ٢٠٨

٥٤- ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ٢١٠

٥٥- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٢١١

٥٦- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ٢١٢

٥٧- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٢١٣

٥٨- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ ٢١٥

٥٩- ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٢١٦

٦٠- ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ٢١٦

٦١- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٢١٨

٦٢- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم
مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ٢١٩

٦٣- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ٢٢٤
٦٤- ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾
.... ٢٢٦
٦٥- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ... ٢٢٨
٦٦- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾
.... ٢٢٩
٦٧- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾
.... ٢٣٢
٦٨- ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٢٣٣
٦٩- ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٢٣٥
٧٠- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ
قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾ ٢٣٧
٧١- ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ
فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ٢٣٩
٧٢- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٢٤٣
٧٣- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾
.... ٢٤٧
٧٤- ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٢٥٠

٧٥- ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ
سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ ٢٥١
٧٦- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا
يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ ٢٥٤
٧٧- ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ ٢٥٦
٧٨- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ
لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ ٢٦٠
٧٩- ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾
.... ٢٦٣
٨٠- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ
وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ ٢٦٥
٨١- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ
تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾
.... ٢٦٨
٨٢- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢﴾ ٢٧١
٨٣- ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ ٢٧٢
٨٤- ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤﴾ ... ٢٧٣
٨٥- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾ ٢٧٤
٨٦- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ

إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ٢٧٥

٨٧- ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ٢٧٦

٨٨- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾
.... ٢٧٧

٨٩- ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا
عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ٢٧٨

٩٠- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ ٢٨٢

٩١- ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ
كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ ٢٩٢

٩٢- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن
تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ
تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ٢٩٤

٩٣- ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ٢٩٨

٩٤- ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ ٣٠١

٩٥- ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ... ٣٠٣

٩٦- ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ٣٠٥

٩٧- ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ ٣٠٦
٩٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ ٣٠٧
٩٩- ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ٣١٠
١٠٠- ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ٣١١
١٠١- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ٣١٤
١٠٢- ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾
.... ٣٢٣
١٠٣- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ
عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ ٣٢٤
١٠٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ ٣٢٧
١٠٥- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾
.... ٣٢٨
١٠٦- ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن
شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ ٣٢٩
١٠٧- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ ٣٣٣
١٠٨- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

.... ٣٣٤
١٠٩- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ ٣٣٦
١١٠- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ ٣٣٧
١١١- ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ ٣٣٨
١١٢- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ٣٣٩
١١٣- ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ٣٤٤
١١٤- ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ ٣٤٥
١١٥- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ ٣٤٦
١١٦- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ٣٤٨
١١٧- ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ ٣٤٩
١١٨- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ٣٤٩
١١٩- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ ٣٥١

١٢٠ - ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ ٣٥٣

١٢١ - ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١﴾ ٣٥٦

١٢٢ - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾ ٣٥٧

١٢٣ - ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ ٣٥٨

١٢٤ - ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤﴾ ٣٥٨

١٢٥ - ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١٢٥﴾ ٣٦١

١٢٦ - ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ ... ٣٦٤

١٢٧ - ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧﴾ ٣٧٠

١٢٨ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨﴾ ٣٧٢

تضرّع ودعاء ٣٧٥

فهرس ٣٧٧

❀ ❀ ❀